روايـــــة

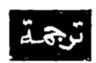
البنات الثلاثة

حكم الملكة آن ،
لسان اسمه
اسم « أوبرا
في لندن
يلا .

الجزء الأول



برتولد بريخت



شفيق مختار

دار الهلال

العالم فقير

وابن آدم خبيث وشرير

فى عام ١٧٢٨ ، وانجلترا تتمطى باسترخاء تحت حكم الملكة آن ، طلع على المجتمع الانجليزى المترف شاعر فقير سليط اللسان اسمه جون جاى (John Gay) ، بمسرحية غنائية أطلق عليها اسم « أوبرا الشحاذ » (The Beggar's Opera) فتن بها جمهور المسارج فى لندن لما وجده فيها من غمزات سياسية ، فأقبل عليها ، وصفق لها طويلا ٠

وتدور أوبرا جاى فى العالم السفلى ، عالم الجريمة ، حول وغدين وفتاة ، أو بالأحرى ، عدد من الفتيات ٠ فقاطع الطريق المزواج « ماكهيث » يوقع البنت « بولى » فى غرامه ، ويتزوجها سرا ، بغير علم أبيها الافاق « بيتشام » ٠ ولما كان الرجلان من « الشخصيات المرموقة » فى العالم السفلى ، ويعرف كل منهما عن الآخر ما يكفى لشنقه عدة مرات ، فان « بيتشام » يشى بزوج أبنته الى الشرطة لينتقم منه ، لكن هذا الاخير يهرب ، ثم يقع فى أيدى مطارديه نتيجة لغدر صاحبته البغى « جينى » وزميلاتها فى البيت السيىء السمعة الذى يتردد عليه ٠ وفى السجن يجد زوجة وفية من حريمه تساعده على الهرب ، ليقبض عليه من جديد على يد امرأة أخرى من ذلك الحريم ، فيحاكم ، ويؤخذ ليعدم ، لولا أن المسرحية تنتهى نهاية سعيدة ، بالعفو عنه ٠

وقد كتب جاى مسرحيته المرحة هذه كأسمه (فلو ترجمنا ذلك الاسم لأصبح « حنا المرح ») ، ليفثأ فيها غيظ الطبقة المطحونة التى كان ينتمى اليها من أرستقراطية كانت تدير المجتمع كما تفعل العصابات فى العالم السفلى ٠ وكتبها أيضا ليغنى ويضحك ، ويجعل أهل لندن يضحكون ويغنون معه ، فجاءت مسرحيته خفيفة الدم حقا ،

ولاذعة ، وأرست قواعد تقليد مسرحي مازال ألى يومنا هـذا يفتن الجماهير : تقليد المحاكاة التهكمية ، أو « النـأورة » على المجتمع ومن يديرونه ، بالنكتة ، والاغنية ، والتلميح ، والموقف ألهزلى ، والتعرية.

ويبدو أن الغيظ الذى كان يعتمل فى نفس جون جاى لم يجـد متنفسا كافيا فى أوبرا الشحاذين هذه ، لانه مالبث أن أتبعها بملحق لها أطلق عليه اسم «بولى» منعت الرقابة اللندنية عرضه بغير امهال.

***

وكما فتن جمهور لندن ، انسحر برتولت برخت بمسرحية جون جاى وتسلطت عليه شخوصها الظريفة الافاقة التى تفتق عنها خيال الشاعر الانجليزى ، قبل قرنين ، على سـبيل الزراية والتهكم على الارستقراطية الانجليزية الفاسدة فى العصر المتخم الذى عاش فيه. فأخذ برخت فكرة المسرحية (تشبيه المجتمع بغابة العالم السفلى) ، واستعار شخوصها ، ليستخدمها فى تعرية المجتمع البرجـوازى الحديث الذى لم يدع - فى ظل مبدأ « البقاء للاقوى » - لغابة العالم السفلى شيئا .

وليست هذه المرة الاولى أو الاخيرة التى يقرأ فيها برخت عمـلا لغيره ، فيعجبه ، ويراه مكتوبا برؤيا جديدة تمليها اهتماماته ومواقفه فيستعيره من صاحبه ، ويعيد كتابته . فقد استعار « ادوارد الثانى » من مارلو ، وأخذ « الام » من جوركى فأعاد كتابتها كمسرحية ، كما أخذ عن سينج فى « بنادق السنيورا كارارا » .لكن تلك حكاية أخرى. المهم أن برخت - وهو صانع ماهر بحق - أحسن دائما استخدام تلك المادة المستعارة فى التعبير عن رؤيا جديدة .

وفى أوبرا الشحاذين يبدو أن تلك الرؤيا أرقتـه كثيرا ، لانه كتبها فى مسرحية أطلق عليها اسم « أوبرا البنسات الثلاثة » ، ثم عاد فكتبها فى رواية ، كما كتبها فى سيناريو فيلم سينمائى .

***

والفكرة الاساسية التى يعالجها برخت فى تنويعاته الثلاثة على لحن جون جاى يمكن أن نجملها فى فكرة نجدها مترددة فى كثرة من أعماله : فقر العالم ، وشر البشر ، فى مجتمع يقتات فيه القوى على فقر الضعيف. وبقدر ما يستسلم الفقراء يستأسد الاقوياء ويفترسون ، ويتناحرون فيما بينهم كالغربان على الاسلاب والغنـائم ، لكن - بينما يشتت الفقراء فقرهم - يجمع الاغنياء الاقوياء غناهم وتلم شـملهم قوتهم ، فيجتمعون فى مأدبة واحدة ، يشربون ، ويمرحون ، ويمتلئون ، من

فقر الفقراء ، بالمال أكثر . وتهكم برخت هنا ، بكل مافيه من مرارة ونقمة ، ليس موجها الى هذه الفئة دون الاخرى ، لانه مغتاظ من الضحية أيضا ، بقدر ما هو مغتاظ من جلادها ، على النحو الذى يفصح لنا عنه مشهد المحاكمة الذى يحلم به العسكرى فيوكومبى الاعرج ، فى خاتمة الرواية ، قبيل بيعه وتسليمه .

عندما كتب برخت « أوبرا البنسات الثلاثة » أزعجه نجاحها .. على مسارح لندن ، ونيويورك ، وباريس . مثلما أزعجه نجاح « الام شجاعة » ، فيما بعد ، على مسارح سويسرا . وكما أعاد كتابة مشاهد بأكملها من « الام شجاعة » كتب « أوبرا البنسات الثلاثة » من جديد ، ولكن على شكل رواية ، لا مسرحية .

وربما قارب الناقد « ارنست شوماخر » الحقيقة كثيرا عندما كتب يقول عن « أوبرا البنسات الثلاثة » أنها عمل « فيه مجال كبير لسوء الفهم » ، لايستطيع المرء أن يتبين فى أبطاله مايجعله متيقنا من أن برخت وضعهم على المسرح كأنماط بورجوازية تعرى وتدين أصولها الحية ، وأن برخت فى هذه الاوبرا« يلقننا بضع حقائق مجردة . بلسان تجريدى فصيح » ، أى ، باختصار ، أنه ليس واقعيا ، وليس واضحا لايحتمل التأويل .

وتلك من المشكلات التى عانى منها برخت طويلا : اتهامه حينا بالتجريدية ، وأحيانا بالشكلية ، وفى معظم الاحيان « بالاسلبة » Stylization والغنائية .

كتب برخت الرواية (١٩٣٤) اذن ليصحح أخطاءه فى الاوبرا . لذلك نجده فى الرواية محددا وملموسا أكثر ، بعيدا عن التجريد ، وواقعيا ،بعيدا عن الغنائية ،وأشد حرصا على البعد الايديولوجى لعمله .

فالعسكرى الاعرج ، الذى يلعب فى الرواية دورا بالغ الاهمية ـ اذ يجسد الضحايا الفقراء الذين ظلوا فى الاوبرا مختفين فى الكواليس ـ يسرق الاضواء من بيتشام وماكهيث ، ويجعل صراعهما خلفية لمأساته ، بينما كان ذلك الصراع بين الوحوش الكبيرة هو الذى ملأ المشهد المسرحى كله فى « أوبرا البنسات الثلاثة » .

وفى الوقت ذاته عدل برخت عن موقفه المثير لشبهة الترفيه فى الاوبرا ، وعوضه بدور تعليمى فى الرواية . فهو ـ بلمسة فنية رائعة بحق ـ يفصح عن عقدة الذنب لدى المثقفين فى العصر عامة بحكاية مجلد دائرة المعارف البريطانية الممزق الذى وجده العسكرى الاعرج فيوكومبى ملقى فى مرحاض ببيت بيتشام فأخذه وأصبح أثمن شىء

فى حياته . وكأنما على سبيل التكفير عن ذلك الذنب ، يضع برخت معارفه — التى حرم منها فيوكومبى والملايين من أمثال فيوكومبى — فى خدمة من حرموا منها ، فيكتب رواية ممتعة بحق عن دنيا المال والاعمال ، يكشف فيها بالحدث والحوار ، والمونولوج الداخلى أحيانا ، عن ميكانزمات تلك الدنيا الخفية التى يحس من لا يعرفونها ، وطأتها دون أن يخطر وجودها لهم ببال . فيكشف عن كهنوت الآلهة الكبار الذين يتصرفون فى أقدار « العبيد الصغار » ، ويبيعون ويشترون لحم البشر ، وأحيانا يأكلونه ، دون أن يخلعوا قفازاتهم .

***

لرواية البنسات الثلاثة قيمة أخرى ، فهى — فوق كونها رواية برخت اليتيمة — نموذج حى ونادر للرواية الملحمية ، بما فيها من أساليب الابعاد التى يلجأ اليها الكاتب ، بالتدخل ، والتعليق ، والتهكم ، والتفلسف أحيانا ، لقطع السياق ، حتى يذكر القارىء باستمرار أنه يقرأ رواية من محض الخيال ، فلا تستوعبه تلك الرواية ، وتوقعه فى اسار الوهم الروائى الذى يجعله يتوحد بشخوصها ويسبغ هويته على تلك الشخوص .

والواضح أن الرواية تختلف عن كل ما ألفنا قرآءته من روايات . حقيقة أن فيها معمارا روائيا رائعا ، وصنعة بارعة لا تجحد واهتماما يقرب من الدقة الحسابية بالاحداث التى ينسج منها الكاتب نسيجا محكما شديد التماسك ، الا أن برخت — عملا على تبديد الوهم الروائى — لا يكف عن اعلامنا سلفا بما سوف يحدث بعد ، متخليا بذلك عن أهم سلاح فى جعبة الروائى : مفاجأة القارىء بانكشافاته .

لكن برخت لم يكتب رواية البنسات الثلاثة ليقدم لنا رواية تقليدية متقنة الصنع ، بل كتبها — أساسا — ليصحح خطأ بدا له أنه تورط فيه عندما وقف على مشارف الترفيه والامتاع فحسب فى أوبرا البنسات الثلاثة ، وعندما غمض فى تلك الاوبرا موقفه الفكرى والاخلاقى من المشكلة الاجتماعية — التى أخذ العمل من جون جاى ليعالجها فى كتابة جديدة له — ، الى الحد الذى جعل جماهير العواصم البورجوازية الكبرى تهلل للعمل بدلا من أن تكتشف حقيقتها فيه فتصدم به . وكتب الرواية أيضا ، فيما يبدو لنا ، ليجرب كيف يمكن أن تكتب الرواية الملحمية . واعتقادنا أنه — على كلا المستويين — حقق ما أراد فأعطانا عملا روائيا فريدا! .

شفيق مقار

حكاية العسكرى الذى لم يمت

فى حرب البوير

« وأخذ عطاياهم ، لانه كان محتاجا
ثم تكلم (لانه لم يكن مجردا من روح الدعابة) :
فقال لهم : فيم تتفضلون على بمأوى ؟
ولم تعطوننى خبزا ؟
وكيف بالله سأدفع ثمن كل هذا ؟ »

(من « سقوط اللورد ايجن »
أغنية شعبية ايرلندية قديمة .)

أصيب عسكرى من المشتركين فى حرب البوير ، اسمه جورج فيوكومبى ، برصاصة فى ساقه ، مما أدى الى بتر النصف الاسفل من تلك الساق فى مستشفى بمدينة كيبتاون . وعندما عاد الى لندن ، تسلم مبلغ خمسة وسبعين جنيها استرلينيا ، وقع مقابلها على ورقة تعهد فيها بعدم مطالبة الدولة بأى شيء بعد ذلك ، ثم وظف النقود فى مشرب جعة صغير فى نيوجيت بعد ان أطلعه المالك السابق على الدفاتر (وهى كراسات صغيرة ، مبقعة بالجعة ، مكتوبة بالقلم الرصاص) فأثبتت له أن المشرب يدر ربحا لا يستهان به ، لا يقل عن جنيهين فى الاسبوع .

غير أنه سرعان ما تبين — بعد أن انتقل للاقامة فى الغرفة الخلفية الصغيرة ، وانخرط فى بيع الجعة ، أسبوعا وراء أسبوع ، بمساعدة امرأة عجوز — أن الامر لم يكن يساوى فقد ساقه ، لان الايراد — لا الربح — ظل دون الجنيهين بكثير ، رغم ما التزمه من أدب ولطف معشر ، ذلك العسكرى ، تجاه زبائنه . ثم اكتشف حقيقة الامر ، فتبين ان الايراد السابق كان مرجعه تكاثر عمال البناء فى ذلك الحى ردحا من الزمن ، وترددهم على المشرب ، فلما انتهت أعمال البناء ، تناقص الزبائن ، وحل الكساد . وقد أخذ عليه الناس ما أظهره من غفلة ، لانه لو كان قد استخدم عقله ، فيما قالوه له ، لفطن الى ان حركة البيع — فيما تبينه الدفاتر — كانت تنشط فى أيام الاسبوع ، وتكسد فى أيام العطلات ، على العكس من مألوف الحال فى مثل تلك الحانات — وهو ما يعرفه تمام المعرفة كل صاحب حان خبير بعمله . لكن العسكرى

كان له عذره فقد ظـل - حتى شراء ذلك المشرب - زبـونا فى تلك الاماكن ، لاصاحب عمل . ولقد استطاع رغم كل شيء أن يبقى على مشربه أمدا لم يتجاوز أربعة أشهر ولعله كان مستطيعا أن يطيـل فى أجله أكثر مما فعل لو لم يضيع معظم وقته فى البحث عن المالك السابق ليسوى حسابه معه . وهكذا فانه - فى نهاية تلك الاشهر الاربعة - وجد نفسه مفلسا ، شريداً ، بغير مأوى .

وقد وجد المأوى فى كنف امرأة كانت زوجا لعسكرى آخر ما زال يحارب ، فبات يتقرب الى أولادها بما يرويه لهم من قصص الحرب ، بينما تنصرف هى الى العمل فى دكانها الصغير . لكن المرأة مالبثت أن تلقت خطابا من زوجها يخبرها فيه بقرب عودته الى الوطن فى أجازة ، فطلبت من صاحبها العسكرى - الذى كانت قـد دأبت على النوم معه ، كما يحدث عادة فى مثل هذه البيوت الصغيرة - أن يسرع بمبارحة المنزل قبل أن يعود زوجها ، فظل فى ضيافتها بضعة أيام ، ثم ذهب الى حال سبيله . وبعد عودة الزوج زارها خلسة ، مرة أو مرتين ، فأعطته شيئا يأكله ، لكنه لم يفز منها بغير ذلك ، بطبيعة الحال . وقد ساءت بعد ذلك أحواله ، فتدهور من سييء الى أسوأ ، حتى انضم فى آخر أمره الى طابور المعوزين الذين يسوقهم الجوع ليل نهار فى شوارع أعظم مدينة فى العالم أجمع .

ساقته قدماه ذات صباح الى حيث توقف فوق أحد الكبارى التى تعبر نهر التيمز . لم يكن قد ذاق طعاما منـــذ يومين ، وكل رواد الحانات ممن استدر عطفهم ببزته الرسمية أحسنوا اليه - لسبب او لآخر - بشراب ، فلم يعطوه طعاما . ولولا تلك البزة لما أعطوه شيئا ، شرابا كان أم طعاما . وهو ماجعله يرتديها .

لكنه الآن فى ثيابه العادية الاخرى التى كان يرتديها وهو صاحب حانة . وقد لبسها الآن لانه كان ينوى أن يتســـول . أن يصبح شحاذا . وقد أخجله ذلك من نفسه كثيرا . لم يخجل لكونه قد أصيب برصاصة فى ساقه . ولم يخجل عنـدما نصب عليه الرجل صاحب الحانة فباعه دكانة لانفع فيها وسرق نقوده ، لكنه خجل لان الحاجة ارغمته على الوقوف فى الشوراع ليشحذ ، ليطلب نقودا من أناس غرباء عنه تماما لايعرفهم . فلم يكن هناك ، فى تصوره ، من هو مدين له بشيء .

لهذا كانت الشحاذة صعبة بالنسبة اليه ، ولم يتعلمها بسهولة . فهى حرفة من لم يتعلموا شـــيئا ، والمصيبة أنه اكتشف أن حرفة

من لا حرفة لهم هذه تتطلب تعليما . اقترب من شخص وراء آخر فتحدث اليه ، طالبا نقودا ، ولكن بغير مسكنة ، بتعبير لا ذلة فيه على وجهه ، مراعيا الا يقطع على الناس طريقهم ، حتى لايحس أحد أنه يضايقه . فوق انه اختار لشحاذته جملا طويلة لم يكن يتمها الا بعد أن يكون المخاطب قد مضى وخلفه وراءه يخاطب الهواء . كما أنه لم يمد يده بحركة السؤال المعهودة . وهكذا فانه بعد أن أذل نفسه للمرة الخامسة وجد نفسه ولا احد يعيره التفاتا أو يدرك انه يشحذ .

لكن أحدا فطن اليه ، رغم فشله . فقد بوغت بصوت مبحوح يقول له من خلاف :

— غور من هنا يابنى آدم !

ولفرط احساسه بالذنب لم يلتفت وراءه لينظر الى صاحب الصوت ، فانصاع وغار ، وقد طأطأ رأسه ، ولم ينظر وراءه الا بعد أن سار قرابة المائة ياردة ، فاذا باثنين من سفلة الشحاذين فى ثياب مهلهلة واقفين جنبا الى جنب ينظران فى أعقابه ، ثم لم يكد يستأنف سيره الاعرج حتى ساراً وراءه ، فلم يفقدهما الا بعد أن عبر عدة شوارع . نظر فلم يجدهما فى أعقابه .

وفى اليوم التالى ، بينما هو يتسكع على مقربة من الميناء ، يباغت أناسا متفرقين من الطبقات الدنيا ، ويثير دهشتهم بمحاولته التحدث اليهم ، فاجأته ضربة في ظهره . وفى اللحظة عينها دفع الشخص الذى هاجمه شيئا فى جيبه .وعندما استدارلم يرأحدا، لكنه اخرج من جيبه قطعة من بطاقة زيارة مثنية ، مكرمشة ، شديدة القذارة ، وقد طبع عليها اسم احدى الشركات وعنوانها : « ج.ج. بيتشام . ٧ شارع أولد أوك » . وقد كتب تحت ذلك ، بقلم كوبيا ، وحروف سائحة : « ان كنت تريد عضمك لايتكسر تعالى عند هذا العنوان » وتحت هذا الكلام وضع الكاتب سطرين على سبيل التأكيد .

أشرق ذهن فيوكومبى ببطء ، فأدرك أن الهجمات التى تعرض لها مؤخرا مرتبطة بمحاولته الشحاذة . لكنه لم يحس رغبة ملحة فى زيارة شارع « أولد أوك » .

غير أن شحاذا تقدم منه، فوجه اليه الكلام ،فى أصيل ذلك اليوم، بينما هو يتسكع خارج احدى الحانات . نظر الى محدثه فعرف فيه أحد الاثنين اللذين طارداه بالامس . كان شابا فى مقتبل العمر ، ولم يبد لصاحبنا فيوكومبى انه شخص يخشى شره ، حتى عندما أمسك بكم سترته وجذبه جانبا فقال له :

ـ يا ابن الحرام ! أرني نمرتك !
فقد كان صوته ودودا لا عداء فيه .
ـ أى نمرة ؟
لم يتوقف الشحاذ الفتى عن مشـيته الزرية ، ويــده مستميتة على كم الاخر ، لكن بغير ضغينة . أوضح للعسكرى ، بالرطانة التى تتحدث بها طائفة الشحاذين ، ان هذه الحرفة الجديدة التى يريد ان يقتحمها ليست سائبة كما يتصــور ، فهى منظمـة كغيرها من الحرف ، بل وربما أكثر من غيرها ، وأنه (أى العسكرى) لايجب أن يتصور نفسه فى ركن همجى غير متحضر من العالم ، بل يجب أن يذكر أنه فى مدينة عظيمة ، هى محور العالم كله . ولذلك فانه ، لكى يزاول حرفته الجديدة ، يجب أن يحمل رقما ، تصريحا من نوع ما ، يستطيع الحصول عليه ـ مقابل ثمن معلوم ـ من نقابة لها مقرها الرسمى فى شارع أولد أوك ، وهى نقابة يجب أن ينضم اليها .
انصت فيوكومبى لكل هذا دون أن يقاطع محدثه بسؤال . فلما قال الشحاذ الشاب ماعنده ، أجابه بنفس اللهجة المهذبة التى لا عداء فيها ـ وكانا اذ ذاك يقطعان شارعا مزدحما بالسابلة ـ قائلا أنه يسعده كثيرا أن يعلم أن لهم نقابة تضمهم ، كما هى الحال بالنسبة للبنائين والحلاقين ، لكنه ، فيما يخصه ، يفضل أن يظل حرا ، وأن يتصرف على هواه بغير وصاية من أحد . فقــد شبع من الاوامر فى حياته ، تشهد بذلك ساقه الخشبية .
فلما قال ذلك مد يده الى محدثه الذى أصغى اليه ، وعلى وجهه تعبير من يستمع الى حديث مثير للاهتمام بدرجة غير عادية من فم متحدث شديد البراعة لايستطيع السامع ، للاسف ، أن يوافقه الرأى تماما ، وفى نهاية الامر ضحك ، وضربه على ظهره كما لو كان صديقا قديما ، ثم تركه وعبر الشارع وحده ، فوقف فيوكومبى مكانه ، وقد أثارت تلك الضحكة قلقه .
وفى خلال الايام القليلة التالية ، ازداد فشلا على فشله .
بدا أنه كيما يحصل المرء على سيل لاينقطع من الحسنات ، يجب أن يظل جالسا فى مكان بعينه (وقد اكتشف أن هناك أمكنة جيدة وأمكنة رديئة) ،ولم يستطع أن يكتشف كيف يدبر الاخرون أمورهم .
طرد منه لفوره . لم يستطع أن يكتشف كيف يدبر الاخرون أمورهم .
كانوا يبدون جميعا ، بطريقة ما ، اتعس منه حالا ، ثيابهم مثلا ، كانت خرقا حقيقية يستطيع المرء أن يرى من خلالها عظامهم . (وقد

تعلم فيما بعد ان بذلة غير ممزقة لاثقوب فيها تعتبر فى بعض الدوائر أشبه بواجهة دكان مغطاة بالورق ، لاتبدى من المعروضات شيئا . فوق أن مرآهم عموما كان أشد مدعاة للنفور والتقزز ، فعاهاتهم ، على الاقل ، كانت أفظع من عاهته وأقذر . والبعض منهم كان يفترش الطوار البارد بلا أى شيء تحت عجزه حتى يتأكد المارة تماما من أنه سيمرض وربما سيموت . ولم يكن لدى فيوكومبى أى اعتراض على ذلك ، بل كان يسعده كثيرا أن يفترش الطوار بتلك الطريقة ، فقط لو سمح له أحد بذلك . لكنه بدا واضحا للاسف أن ذلك الوضع المزرى المثير للشفقة ليس نهبا متاحا لاى كان . فرجال الشرطة والشحاذون تكاتفوا ، كل بطريقته ، على حرمانه منه .

وهكذا فان كل ماعادت عليه به محاولته الفاشلة كان بردا فظيعا أصابه فى صدره ، بحيث أصبح مضطراً الى التسكع فى الشوارع وجسده ملتهب بالحمى وآلام حادة تمزق صدره .

ثم التقى ذات مساء بالشحاذ الشاب ، فبدأ هذا الاخير يتعقبه لفوره . وبعد شارعين لا أكثر انضم اليه شحاذ آخر ، فانطلق صاحبنا يجرى ، والاثنان يجريان فى أعقابه .

انفلت فدخل حارة جانبية ضيقة ليروغ فيها ، ولم يعد يسمع وقع أقدامهما وراءه ، فداخلته طمأنينة ، وتصور أنه قد أفلت . لكنه بوغت بهما أمامه على ناصية أحد الشوارع ، وقبل أن يتمكن من الافلات ثانية ، أخذ كل منهما يضربه بعصاه ، بل ودفعه أحدهما ليوقعه على الرصيف ، وأخذ يجذبه من ساقه الخشبية ، حتى أوقعه على رأسه . لكنهما تركاه فى تلك اللحظة فجأة ، وانطلقا هاربين . فقد ظهر شرطى من ركن الشارع .

راود فيوكومبى أمل فى أن يخف الشرطى الى نجدته . لكن شحاذا ثالثا خرج من زقاق ضيق بين البيوت ، على طاولة صغيرة ذات عجلات ، فأحدث هياجا فى الشارع وهو يشير للشرطى على الرجلين الهاربين ويحاول أن يقول له شيئا غير مفهوم . وهكذا فان فيوكومبى عندما شده الشرطى ، الذى أثار ذلك الصخب ضيقه ، وشيعه بركلة فى مؤخرته ، وجد نفسه مطاردا من جديد ، تحت أنظار ذلك الشرطى ، والشحاذ الثالث وراءه ، دافعا طاولته ذات العجلات بكلتا يديه .

وعندما نظر الى مطارده الجديد وجده بغير ساقين ، فيما بدا له .

عند منحنى الشارع الاخر تعلق الشحاذ مقطوع الساقين بسروال فيوكومبى . كانا قد دخلا أقذر منطقة فى الاحياء الفقيرة ، والازقة

قد ضاقت حتى أوشكت حيطان البيوت ان تتلامس ٠
من أحد تلك الازقة كان ممر ضيق يفضى الى فناء ضخم معتم ٠
قال له مطارده المقعد ، آمرا ، بصوت مبحوح :
ـ هنا !
وعزز قوله بهجمة من طاولته على كاحل فيوكومبى الذى كان الجوع قد جرده من كل قواه ، فدخل الفناء الضيق ـ الذى لم يكن يزيد على ثلاث ياردات مربعة ـ راغما ٠ وقبل أن يفيق من دهشته أو ينظر حوله ، كان الشحاذ المقعد ـ وهو رجل متقدم فى السن يميزه فك بالغ الضخامة ـ قد قفز من طاولته المتحركة كالقرد ، فاذا به ، فجأة ، صاحب ساقين سليمتين ، وانقض عليه .
كان أطول من العسكرى بكثير ، وله ذراعان كذراعى الاورانج أوتانج .
زمجر آمرا :
ـ هيا اخلع سترتك وأرنا فى عراك شريف لا غش فيه ان كنت أجدر منى بالشحاذة فى منطقة طيبة مربحة كالتى كنت تتسكع فيها . والله ان غلبتنى يكون الحق معك . فشعارى هو « وسع الطريق للاصلح ، والى الجحيم بالمغلوب ! » وبهذه الطريقة يستفيد الجنس البشرى كله ، لان الاصلح يصعد الى القمة وينال كل ما فى الارض من خيرات . لكن اياك والخداع ، أو الضرب تحت الحزام ، ولا تستخدم ركبتيك . فهذا العراك ، ان كان سيحسم الامر بيننا ، يجب أن يتم طبقا لقواعد كوينسبرى !
كان العراك قصيرا . أخضع فيوكومبى جسديا وروحيا ، فسار ذليلا فى أعقاب العجوز .
ولم يرد ذكر لشارع أولد أوك .
ظل العسكرى أسبوعا تحت سطوة سيده الجديد . وضعه هذا الاخير على ناصية معينة، بعد أنجعله يعود الى ارتداء بزته العسكرية، وفى المساء ، عندما يسلم ايراد اليوم ، كان العجوز يطعمه .
لكن ايراده ظل شحيحا للغاية . وقد كان يدفعه بأكمله لمخدومه على أية حال ، فلم تتح له الفرصة ليعرف ان كانت البنسات القليلة التى يشحذها تفى بثمن الرنجة والجبن الرخيص اللذين كانت تتألف منهما وجبته الرئيسية كل يوم ٠ أما العجوز ، الذى بدت عاهاته أسوأ من عاهة العسكرى بكثير ـ رغم أنها لم يكن لها وجود ـ فكانت تجارته رائجة بحق ٠

وبمضي الوقت ، ايقن العسكرى ان سيده لم يضعه فى ذلك المكان الا تحقيقا لمصلحته الخاصة ، فالمورد الرئيسي للربح كان متركزا عند موقع العجوز ، حيث يتكاثر المارة صباحا ومساء . وقد تبين ان المحسنين منهم لايحسنون الا مرة واحدة ، وانهم غالبا مايلزمون جانبا من الطريق بعينه لايغيرونه ، لكنهم يشذون أحيانا ، فيغيرون مسارهم · فهم لا يمكن الاطمئنان اليهم كلية · ولهذا وضعه العجوز فى ذلك المكان حتى لايفلت منهما أحد ، فمن لم يعط العجوز ، مر بالعسكرى . ورغم ادراكه أنه بهذه الطريقة ، يقوم بدور ثانوى للغاية ، فانه أيقن أن وضعه هذا كان خطوة الى الامام ، حتى وان لم يكن الخطوة الصحيحة .

غير أن الامور لم تستمر على هذا الحال . لانه لم يكد ينقضى أسبوع حتى بدأ العجوز يعانى من اهتمام خاص بأمره وأمر مساعده ، من جانب الجمعية السرية فى شارع أولد أوك . ففى بكور احد الايام ، بينما يغادران مكان بياتهما فى عوامة قديمة ، هاجمهما أربعة أو خمسة من الشحاذين فحملوهما حملا عبر عدة شوارع ، حتى بلغوا دكانا صغيرا قذرا عليه لافتة مكتوب عليها « آلات » .

وراء حاجز خشبى متآكل داخل الدكان كان رجلان ، أحدهما ضئيل ، مجفف ، له وجه كريه منفر ، واقف فى صداره وقميصه ، بغير سترة ، وقبعة عتيقة مزيتة قد انزلقت على مؤخرة رأسه ، واضعا يديه فى جيبى سرواله ، متشاغلا بالنظر من واجهة الدكان ، يتأمل الصباح الكئيب خارجا ، دون أن يستدير أو يظهر أدنى اهتمام بالوافدين الجدد . أما الاخر ، فكان سمينا ، ذا وجه أحمر شديد الحمرة ، كريها هو الاخر ، واشد اثارة للنفور — ان كان ذلك ممكنا — من صاحبه القمىء .

قال البدين أحمر الوجه للعجوز ، بنبرة بدا أن المقصود منها الزراية لا الترحاب :

— اهلا اهلا مستر سميثى . أسعدت صباحا .

ثم دلف من باب مغطى بألواح حديدية الى الغرفة الداخلية .

نظر العجوز حوله ، بارتباك واضح ، قبل أن يسير فى اعقاب الرجال الذين أحضروهما ، وقد أصبح لون وجهه رماديا .

أما فيوكومبى ، الذى بدا أن الكل نسوه ، فقد ظل واقفا فى الدكان · على الحيطان كانت بضع آلات موسيقية معلقة ، عتيقة ومحطمة . بدا أن أعمال الدكان لم تكن رائجة ، فتلك البضائع القليلة

على حيطانه كانت مكسوة بطبقة سميكة من التراب .
وقد تبين فيوكومبى ، عندما تفتحت عيناه فيما بعد ، أن تلك الانتيكات القليلة المتربة لم يكن لها دور ـ الا التمويه ـ فى نشاط الشركة التى كان قد التحق لتوه ، دون علم منه ، بخدمتها . والواقع ان المكان كله كان يتصف بقدر يحسد عليه أصحابه من التمويه ، فحتي واجهة البيت الضيقة ذات النافذتين كانت تعطى فكرة منقوصة للغاية عما وراءها من أعماق داخلية شاسعة ، وحتى الحاجز الخشبى المتآكل ، بآلة عد النقود العتيقة المخلخلة الموضوعه عليه ، لم يكن يكشف شيئا .
ففى البيت ، الذى كان فى حقيقة أمره ثلاثة بيوت مفتوحة على بعضها البعض ، تضم فيما بينها فناءين ، كانت ورشة تعمل فيها زهاء نصف دستة من الفتيات يشتغلن بالحياكة ، ومنشأة لصناعة الاحذية تضم عددا مماثلا من الصناع المتخصصين فى حرفتهم . لكن الاهم من ذلك كله أن المبنى كان يضم فى أحشائه الداخلية قسما كاملا للسجلات يحتوى على مالايقل عن ستة آلاف اسم من أسماء من أسعدهم الحظ بشرف العمل فى خدمة الشركة .
لم تكن لدى العسكرى ، وهو واقف فى ذلك الدكان ، أدنى فكرة عن الطريقة التى تعمل بها هذه المنشأة المشبوهة الفريدة فى نوعها . وقد استغرقه الوقوف على ذلك أسبوعا بأكمله . لكنه ـ قبل أن يأتى اليهم ـ كان قد بلغ مرحلة من اليأس والعوز جعلته يدرك أن من حسن الطالع حقا أن تتاح له فرصة المجيء الى ذلك المكان والانضمام الى مثل تلك المنظمة السرية بالغة القوة .
لم يظهر مستر سميثى ، مخدوم فيوكومبى الاول ، ثانية ذلك الصباح ، ولم يره فيوكومبى بعد ذلك الا مرتين أو ثلاثا على أكثر تقدير ، من مبعدة .
بعد فترة ليست قصيرة وارب الرجل السمين الباب الخديدى واطل برأسه قائلا :
ـ ساقه الخشبية حقيقية .
وهنا استدار الرجل القميء الذى بدا واضحا أنه ـ رغم ضآلته ـ رئيس كل أولئك الناس ، فذهب الى فيوكومبى ، وبحركة سريعة شمر ساق سرواله ليتيقن من عاهته وساقه الخشبية ، فلما تم له ذلك ، وضع يديه فى جيبى سرواله من جديد ، وعاد الى النافذة فوقف اليها ينظر خارجا ، وقال بصوت خافت :

ـ ماذا تستطيع أن تفعل ؟
فاجابه العسكرى بصوت يماثل صوته خفوتا :
ـ لاشيء . أشحذ فقط .
قال الرجل القميء بازدراء ، دون أن يعنى بالالتفات الى محدثه :
ـ ومندا الذى لايريد ان يشحذ ؟ رجلك مقطـوعة ، هه ؟ لك ساق خشبية . ولمجرد أن لك ساقا صناعية تريد أن تشحذ ؟ لكنك فقدت تلك الساق فى خدمة وطنك ، هذا أسوأ . هذا يمكن أن يحدث لاى امرىء كان (الا اذا كان يعمل فى وزارة الحرب) . وعندما يفقد شخص ما ساقه يصبح كل اعتماده على رحمة الاخرين ؟ طبعا يصبح كل اعتماده على رحمتهم ، أولاد الحرام ! ولـكن من منهم يحب أن يبعثر نقوده على الغير ؟ الحروب ـ انها حالات استثنائية ياصاح . الزلازل مثلا ، لا يكون لأحد حيلة فيها . أما فى الحرب ، فالكل يعرف مقدار الربح الذى يعود على البعض من وطنية البعض الاخر . فى بداية الامر يتسلقون فوق بعضهم بعضا ليتطوعوا فى سبيل التاج . لكنهم عندما يطيح أحد بأرجلهم لايروق لهم ذلك . وهناك شيء آخر ، الشيء الاساسى : لماذا تكون حكاية الذهاب الى الحرب فى سبيل التاج والوطن مربحة ، ولم تنهال آيات التكريم والمجد والخلود على أولئك الرجال الشجعان ؟ ـ لمجرد أنهم يتعرضون لخطر فقـدان ذراع أو ساق ؟ وفى الحقيقة ، لو لم يكن ذلك الخطر الصغير ـ أو الكبير حتى نجاريك ـ لما بات هناك مبرر لكل ذلك العرفان بالجميل من جانب الامة . اسمع ، انت فى حقيقة الامر متظاهر ضد الحرب . كلا . لا جدوى من انكار ذلك . فأنت عندما تقف فى الطرقات ، دون أن تبذل أدنى جهد لاخفاء عاهتك ، فانك فى واقع الامر تقول لكل من يراك ، بغير كلام ، أنظر فظاعة الحرب ! انها تطيح بأرجل الناس ! يجب أن تخجل من نفسك . ان الحروب ضرورية بقدر ماهى مخيفة . أتريدنا أن نفقد كل شيء ؟ أتريد أن ترى بريطانيا العظمى يملؤها الاجانب ؟ أتحب أن تعيش وسط أعداء يحتلون بلادك . يارجل ، لاينبغى لك أبدا أن تتربح من وراء بلواك بهذه الطريقة أبدا . ليست لديك الموهبة اللازمة لذلك ..

عندما أتم كلامه ، ذهب دون أن ينظر الى العسكرى ، فدلف من الباب الحديدى الى الغرفة الداخلية التى بها مكتبه . لكن الرجل السمين جاء فأخذ فيوكومبى ، بسبب ساقه ، فيما قال له ، فعبر به فناء خلفيا الى فناء آخر ، حيث عينه مشرفا على مجموعة من الكلاب .

ونتيجة لهذا الاجراء ، أخذ العسكرى يدور فى ذلك الفناء كل صباح ومساء ، ليتريض ، ولكى يشرف ، فى الوقت ذاته ، على كلاب العميان ، التى كانت الشركة تقتنى عددا لايستهان به منها . ولم تكن تلك الكلاب قد أختيرت على أساس براعتها فى قيادة العميان (الذين كان يوجد عدد منهم فى خدمة الشركة فعلا ، لم يتجاوز خمسة) بل لاسباب أخرى تماما ، منها القدرة على اثارة الشفقة فى نفوس المارة ، بأن يبدو الكلب منها زريا للغاية . وقد كانت كلها زرية بالفعل .

ولو سئل فيوكومبى عن حقيقة حرفته ، لوجد صعوبة فى الرد ، بصرف النظر عن خوفه من التورط فى متاعب مع الشرطة . فلم يكن مستطيعا أن يدعو نفسه شحاذا . كان فى حقيقة أمره مستخدما ، فى منشأة تبيع اللوازم التى يحتاجها من يحترفون الشحاذة فى الطرقات

لم يبذل أحد أدنى جهد لتثقيفه وتحسين مستواه بما يجعل منه شحاذا على مستوى مقبول من الكفاءة . فخبراء الشركة ألقوا عليه نظرة واحدة وقرروا أنه لن ينجح فى تلك الحرفة أبدا . لكنه ، مع ذلك ، كان مجدود الطالع . لم تكن لديه حقا المواهب اللازمة للنجاح فى الشحاذة ، لكنه كان حائزا لشىء لايستطيع الكل أن يباهوا به : رجل خشبية حقيقية . ولقد كان ذلك المؤهل كافيا للحصول على عمل .

كان يستدعى بين الحين والحين الى الدكان ليرى شرطيا من نقطة البوليس القريبة ساقه الخشبية . ولو ان الامر ، فى الحقيقة ، لم يكن يستدعى أن تكون تلك الساق خشبية بحق . فلم يكن الشرطى يلقى عليها الا نظرة عابرة لاتكشف شيئا . فوق أن بولى بيتشام ، ابنة صاحب الشركة ، كانت تتواجد فى الدكان ، بطريقة ما ، فى معظم تلك الزيارات التفتيشية . وقد كانت الفتاة بارعة بحق فى تدبير الامور مع الشرطى .

غير أن تلك الزيارات كانت نادرة . ولذا فان العسكرى قضى معظم الاشهر الستة الاخيرة التى كانت قد تبقت له من حياته ، بين الكلاب . وقد انتهت حياته الهزيلة ، بعد تلك الشهور ، نهاية غير عادية ، بحبل التف حول عنقه ، بين تهليل وتكبير حشد عظيم من الناس .

أما السيد القمىء الذى رآه فيوكومبى واقفا يتأمل العالم من واجهة الدكان يوم أن دخل ذلك البيت المثير للاهتمام لاول مرة ، فكان مستر جوناثان ارميا بيتشام .

قصة غرام بولى بيتشام وزواجها

عندما كنت مجرد فتاة بسيطة صغيرة ـ
لانى كنت ذات يوم بسيطة مثلكم ـ
قلت لنفسى : لعلنى فى يوم من الايام سوف يأتينى أحد
واذ ذاك سيتعين على أن أعرف مايجب أن أفعله .
فان كان رجلا لديه مال
وكان شخصا لطيفا مهذبا
وكانت الياقة التى يرتديها فى عمله ياقة بيضاء ناصعة كالثلج
وكان يعرف كيف يجب أن تعامل السيدات
اذذاك سأقول له « لا »
لان المرء مع رجل كهذا يجب أن يتحدث عن الجو
ويخفى مشاعره فلا يظهر مايعتمل فى نفسه .
سيضىء القمر طول الليل ، كعهده سابقا ،
وبغير شك سيكون القارب مربوطا الى الشاطىء .
لكن الامر لن يذهب الى أبعد من ذلك .
والله البنت لاتستطيع أن تجعل نفسها رخيصة !
والله البنت يجب أن تحكم وثاق رجلها ، وتسحبه جيدا وراءها .
والا حدثت أشياء لاتخطر لاحد على بال !
آه ، والله الجواب الوحيد : « لا ! »

أول واحد جاء ، كان رجلا من « كنت »
وفيه كل صفات الرجل الذى تتمناه الفتاة ،
والثانى كان يملك ثلاث بواخر فى الميناء
والثالث كان مجنونا بى .
ولما كانوا ثلاثتهم مثقلين بالنقود
وكانوا ثلاثتهم أولادا مهذبين
والياقات التى يرتدونها فى عملهم بيضاء ناصعة كالثلج ،
وفوق ذلك يعرفون كيف يجب أن تعامل السيدات ،
فقد كان ردى على ثلاثتهم بلا .

وهكذا تحدثت عن الجو ،
ولم أدع شيئا من مشاعرى يبين .
وقد ظل القمر مضيئا طول الليل ، كسابق عهده ،
وبلا أدنى شك كان القارب مربوطا الى الشاطىء ،
لكن الامر لم يذهب الى ابعد من ذلك خطوة .
فوالله البنت لاتستطيع أن تجعل نفسها رخيصة .
ووالله البنت يجب ان تحكم وثاق رجالها ، فتسحبهم وراءها جيدا
والا حدثت لها أشياء لا تخطر لأحد على بال .
آه ، كان الجواب الوحيد : « لا ! »

لكن رجلا جاء ذات صباح ، وكانت يومها السماء زرقاء ،
فلم يتنهد أو يطلق الزفرات ،
بل علق قبعته ببساطة على المشجب فى مخدعى
فتركته يفعل ، دون أن أدرى لم .
ولما كان رجلا بغير مال
ولم يكن لطيفا أو رقيق الحاشية
وحتى ياقته التى يتأنق بها فى يوم الاحد لم تكن فى بياض الثلج
ولم تكن لديه أدنى فكرة عن كيفية معاملة السيدات
فانى لم أستطع أن أقول له لا .
اذذاك لم أتحدث عن الجو ،
وتركت العنان لمشاعرى ، تبين وتفصح على هواها ،
ووالله أضاء القمر طوال الليل ، كسابق عهده ،
لكن القارب انفك رباطه ، وابحر من الشاطىء ،
وكان من المتعين أن يكون الامر هكذا !
فوالله البنت أحيانا يجب أن تجعل نفسها رخيصة !
وأحيانا لا تستطيع أن تحكم وثاق رجلها أو تسحبه وراءها !
لكن أى شىء يمكن أن يحدث آنذاك ،
ولا يعود هناك وجود لكلمة اسمها « لا » .
(اغنية بولى بيتشام)

(١)

صديق الشحاذ

عملا على مقاومة البخل المتزايد من جانب الجنس البشرى ، افتتح مستر بيتشام دكانا يستطيع أحقر الشحاذين شأنا أن يستأجر منه أدوات ومعدات مضمونة ، يلين بفعلها أشد القلوب قسوة .

بدأ مستر بيتشام حياته العملية بائعا للآلات الموسيقية المستعملة ، ومؤجرا لها . كان زبائنه من الشحاذين والمغنين الجوالين . لكن تلك التجارة لم تكن مربحة ، فاشتغل مستر بيتشام بعمل اضافى عملا على زيادة دخله . ولما كان ذلك العمل بالابراشية (١) ، فقد أتيحت له الفرصة لدراسة أحوال الفقراء عن كثب . وكانت حكاية استخدام الآلاته الموسيقية كمعاونات فى عملية الشحاذة ، أول ما شحذ فكره وحفز خياله .

فالكل يعرف أن أولئك الشحاذين يستخدمون الآلات الموسيقية ليستدروا شفقة الناس ، وهى عملية ليست سهلة بالمرة . لانه كلما ازداد ثراء المرء ، كلما قل استعداده للتعاطف مع من هم أفقر منه ، دع عنك من لا يملكون شروى نقير ، رغم أن ذلك الشخص عينه يكون على استعداد دائما لأن يدفع ثمنا باهظا فى مقعد باحدى الحفلات الموسيقية ، باعتبار أن ذلك سيتيح له الحصول على قدر لا يستهان به من الغذاء الروحى . لكن من هم أقل من ذلك المستوى ثراء وسعة عيش ، ممن لا يكون البون قد صار شاسعا بينهم وبين الفقر ، يكونون عادة على استعداد لبذل بضعة دريهمات من مالهم بغير كبير صعوبة ، فيدعون قلوبهم – التى تغلظ وتتحجر بسبب ذلك الصراع المشهور من أجل البقاء – تلين ، أحيانا ، بفعل هذه النغمة أو تلك التى يعزفها لهم شحاذ مسكين .

ومع ذلك فان السيد جوناثان ارميا بيتشام تبين – مرة تلو مرة – ان زبائنه من الشحاذين ممن يستأجرون الآلات الموسيقية ليزاولوا

(١) (Parish) تقسيم ادارى داخلى فى كنيسة انجلترا ، لكنه من الناحية المدنية أشبه بالجهات الحكومية المختصة عندنا بتنظيم الصدقات ، وتقديم المعونات للاسر المحتاجة ، ورعاية الفقراء

عملية تليين القلوب بها ، يتأخرون دائما في سداد اقساط الايجار . نعم هناك بضعة أشياء يمكن ، كما قلنا ، أن تستدر شفقة الناس في هذه الأيام ، لكن المشكلة أن تلك الاشياء لا تكاد تستخدم بضع مرات حتى تفقد فعاليتها ، لان الانسان لديه تلك المقدرة المخيفة على أن يجعل نفسه بليد الحس جامد القلب متى أراد ، خاصة متى اكتشف الكوارث التي يمكن أن تحيق به كلما استسلم لعواطفه الخيرة .
وهكذا فانه يحدث أن المرء عندما يرى رجلا بلا ذراع لأول مرة ، تجعله الصدمة يمنح ذلك الرجل بنسين، لكنه في المرة الثانية لايعطيه الا نصف بنس ، فاذا رآه للمرة الثالثة ، فانه في أغلب الظن ، يسلمه الى البوليس بغير تردد .

بدأ بيتشام بداية متواضعة محدودة للغاية .
ظل ، لبعض الوقت . مكتفيا بتقديم الاستشارات لعدد محدود من الشحاذين ذوي الأذرع الواحدة ، أو العميان ، أو الطاعنين في السن . ثم تكفل بايجاد أماكن لهم ، في مناطق يتصدق فيها الناس . فالناس لا يحسنون في كل وقت وأي مكان . وهكذا فان الشحاذ البارع يستطيع بدلا من أن يضيع وقته في التسول بالموسيقى في شهر يونيو .. أن يزيد دخله زيادة محسوسة بالمرور في الحدائق العامة ليلا لأزعاج العشاق ، لان الناس يكونون أكثر استعدادا للبذل في تلك الظروف .

ورويدا رويدا تحسنت أحوال بيتشام . اكتشف الشحاذون الذين تعاملوا معه أن ايراداتهم قد ارتفعت . وهكذا فانهم وافقوا على أن يعطوه ، مقابل جهوده ، جزءا من النقود التي يكسبونها .

اذ ذاك تيقن بيتشام من أنه اكتشف العمل الذي يصلح له في الحياة ، فبدأ يعمق بحوثه ويوسع مداها . وسرعان ما اكتشف ان الهيئة الزرية التي تنم عن فاقة حقيقية وعوز لا زيف فيه تكون أقل فعالية بكثير من البؤس المصطنع . ففي أحيان كثيرة كان أناس من المقطوعة أذرعهم بحق يفشلون في العمل ، لانهم ليست لديهم ملكة التأثير في نفوس الآخرين بما يعطونه من انطباع بالبؤس . لكن الموهوبين حقا ، قد يفتقرون الى تلك العاهات الثمينة . وفي ذلك كان مجالا عظيم للمباداة اكتشفه بيتشام .

بدأ الرجل يعد بضع أطراف صناعية مزيفة : أذرع وسيقان تصدم الناظر بما فيها من قبح وما تنطق به من تشويه وحشي . فلاقت تلك العاهات المصنوعة نجاحا منقطع النظير .

ولم ينقض وقت طويل الا وقد بات فى مكنة الرجل أن يقيم ورشة لصناعة العـاهات . ولم يقتصر الامر على ذلك ، بل تعـداه الى سيكولوجية الاستخدام الأمثل لتلك العاهات . فقد اكتشف بيتشام مثلا أن بعض أصحاب الحوانيت ، خاصة أصحاب المطاعم ومحـلات التجميل ، بل والجزارين أيضا ، يكونون على استعداد دائما للتصدق بسرعة على أى شحاذ يلصق أمام محالهم مستعرضا عاهاته المقززة : على سبيل الرشوة ، حتى ينتقـل الى مكان آخـر . ولم يكن ذلك الاكتشاف آلا بداية متواضعة . فقد اكتشف بيتشام فى أعقابه أن أصحاب تلك المحلات على استعداد لأن يدفعوا مبالغ أكبر لشحاذيه حينما يذهبون فيلصقون امام المحلات المنافسة . وهكذا وجد نشاط الشحاذة موضعه فى هيكل المنافسة الذى يدور بداخله صراع طاحن من أجل البقاء .

وعندما بدأت غرفة السـجلات تكبر ، بدأ بيتشـام « صديق الشحاذ » كما كان يدعو نفسه ، فى ادخال نظام الاحتكار ، بتخصيص مناطق معينة لشحاذين بعينهم ، مع تهيئة الحماية الكاملة لهم ، لطرد الدخلاء ، ولو بالقوة ، كما كان يحدث أحيانا . وقد كان لهذه التجربة الاخيرة فضل عظيم على منشأة بيتشام ، اذ أنه ابتداء من تطبيقها ، بدأت المنشأة ترسخ وتسير قدما على طريق النجاح .

لكن صاحبنا لم يكن ممن يرضون بقليلهم ، فلم يكتف بما حققه من انتصارات ، بل أخذ يعمل بلا هوادة ليزود رجاله بما يمكنهم من مزاولة خدمتهم بأعلى درجة من الكفاية . وهكذا افتتحت فصول ــ تزايد عددها باستمرار ــ فى مقر الشركة ، الذى اتسع كثيرا ، لتعليم الشحاذين ، الذين تحولوا ، بصـورة متزايدة ، الى مسـتخدمين فنون التظاهر بالاصابة بالشلل الرعاش ، والسير كما يسير العميان ، الى آخر تلك الاشياء . فلم يكن مستر بيتشام من المؤمنين بالجمود فى دنيا الاعمال .

وهكذا فانه تم التوصل فى معامله وفصوله الى تحقيق الكمال لانماط أساسية بعينها من الشـقاء الانسانى ، كضحايا التقـدم ، وضحايا الحرب ، وضحايا الرخاء الصناعى . علمهم جميعا كيف يذيبون القلوب الجامدة، كيف يلفتون الانظار، وكيف يلصقون كالعلقة حتى تزهق أرواح الناس فيحسنون اليهم .

وقد كان من الطبيعى ، بعد خمسة وعشرين عاما من النشاط الذى لايهدأ ، أن يصبح بيتشام مالكا لثلاثة بيوت ، ومنشأة مزدهرة .

نوار الخوخ

كانت البيوت التى يدير فيها مستر جوناثان آرميا بيتشام ورشته العجيبة تضم غرفا عديدة . بين تلك الغـرف ، كانت غـرفة مطلية باللون الوردى ، تخص الآنسة بولى بيتشـــام . كانت حجــرتان من الحجرات الاربع الصغيرة التى يتألف منهــا مسكن الســيد بيتشام الخاص تطلان على الشارع ، بينما تطل الغرفتان الاخريان على الفناء. لكن هاتين الحجرتين الاخيرتين كانتا تفضيان الى شرفة خشبية ، وهكذا فان نوافذهما كان من الضرورى أن تغطى بستائر من التيل لتقطع الطريق على نظرات الفضوليين ، فوق أن تلك النوافذ لم تكن تفتح الا فى الليالى التى يشتد فيها الحر حتى يخفف الهواء من جو الغرفة الخانق . كانت غرفة بولى فى الطابق الثانى ، وفوقها السطح مباشرة .

وقد اشتهرت الآنسة بيتشام فى الجيرة بأكملها باسم « الخوخة » ، نظرا لجمال بشرتها الذى لا يوصف .

عندما أتمت عامها الرابع عشر ، أعطيت غرفة خاصة بها ، فى الطابق الثانى . وقد قال بعض ذوى الألسنة الطويلة أنها حصلت على تلك الغرفة لكيلا تظل فى صحبة أمها طيلة الوقت ، بالنظر الى أن السيدة بيتشام لم تكن تستطيع التحكم فى ضعفها ازاء المشروبات الكحولية ، وقد بدأ الجميع ، ابتداء من تلك السن أيضا ، ينادونها بلقب آنسة ، كما سمح لها بالتردد على الدكان أحيانا ، خاصة عند مجىء الشرطى ميتشجين فى احدى زياراته التفتيشية . ولعلها كانت – فى مبـــدأ الامر – أصغر من ذلك كله ، لكنها ، كما قلنا ، كانت فتاة باهرة الجمال .

أما الحجرات الاخرى ، حيث ورشة الحياكة ، وورشة المصنوعات الجلدية ، فنادرا ما كانت تتردد عليها ، لان السيد بيتشام لم يكن يحبذ تواجدها فى ورشه هذه . ومع ذلك كانت بولى تعلم بكل مايجرى فى تلك الحجرات . لكن شيئا من ذلك كله لم يثر اهتماما فى نفسها .

ازدهر محل الآلات ازدهارا عظيما ، حتى قال الجميع أنه لولا بولى الحسناء لكان الشرطى ميتشجين قد اهتم اهتماما أكبر بالوقوف على حقيقة ما يجرى فى ذلك الدكان ووراء جدرانه من انشطة مستر بيتشام . فالعدد الهائل من الناس المترددين على ذلك الدكان : داخلين خارجين ، صباح مساء ، لم يكن يتناسب البتة وتلك الآلات القليلة المحطمة على حيطان دكان بيتشام .

ولم يقتصر نجاح بيتشام على رواج أحوال دكانه ، بل امتد ، بنفس القدر ، الى نشاطه فى الابراشية . والواقع أنها لم تظل ابراشية واحدة ، بل أصبحت ثلاث ابراشيات أشرف الرجل على الصدقات ومعونات الفقراء فيها . رغم أن الفقراء لم يظهروا ميلا خاصة للجوء اليه . فقد اكتشفوا فيما يبدو ، أنهم أفقر من أن يتمكنوا من الحصول على خدمات مستر بيتشام . فوق أن طبيعة هذا الاخير ، كرجل أعمال ، أثرت على نظرته الى الامور . فهؤلاء الفقراء ، لماذا يجيئون الى ابراشياته ؟ ليشحذوا منها . لكن الشحاذة ليست نهبا مباحا لاى كان ، فهى نشاط اقتصادى يندرج تحت اهتمامات مستر بيتشام المتعلقة بأعمال منشأته الخاصة . ولذلك فانه أظهر دائما منتهى النفور من أى تعاون مع الفقراء فى عمليات شحاذة عامة كهذه لا تجرى تحت اشرافه كصاحب منشأة متخصصة تتعامل فى ذلك النشاط عينه ، طبقا للقواعد التى يدير بها أعماله .

لم يكن من الغريب اذن أن تكلف الخوخة نفسها مشقة التلطف مع ذلك الشرطى السمين ميتشجين . فتلك الألاعيب الأبوية جميعها كانت ، فى نهاية الامر ، من أجلها وحدها . وما أكثر المرات التى سمعت أباها يقول فيها :

ــ والله لولا البنت لما احتملت عيشة الكلاب هذه يوما آخر . يعلم الله أنى لم أكن أطيق ذلك من أجل سواد عينيك يا ايما . على الاقل لكيلا تدفعين نفسك الى غياهب القبر بهذه الخمر التى تشربينها ليل نهار .

ايما هذه كانت زوج مستر بيتشام . وكان من دأبها أن تقول لزوجها كلما عبر عن استهجانه لرذائلها الصغيرة :

ــ وهل الذنب فى هذا السكر ذنبى ؟ لو كنت وجدت راحة فى حياتى الزوجية كنت سأسكر ؟ ثم انى أستطيع الامتناع عن الشرب وقتما شئت . منذ الآن . فأنا لا أدع شيئا يتسلط على !

الاولاد يسمعون أحاديث عديدة من هذا النوع ، فتحدث فى نفوسهم

تأثيرا عميقا .
ولقد يظن المرء ، بسبب التساهلات (الصغيرة كما قلنا) التى كانت الآنسة بولى بيتشام تبديها تجاه ميتشجين وآخرين ، أنها ربيت لتكون من ذلك النوع من الفتيات . لكن الأمر على العكس تماما . فهى لا تكاد تذكر مرة واحدة استحمت فيها ، داخل البرميل الخشبى الموضوع فى الحمام (حيث الستائر مسدلة أبدا) دون أن يسترها قميص خفيف يخفى جسدها حتى عن عينيها . فلم يكن مستر بيتشام ميالا لان يدعها ترى جمال بشرتها .
وبنفس القدر من الحرص ، لم يخطر لمستر بيتشام ببال أن يدعها تخرج من البيت وحدها ، ولو لخمس دقائق لا أكثر . كانت تذهب الى المدرسة طبعا ككل أولاد الناس الآخرين ، لكن سام كان يذهب دائما فيحضرها .
ولقد بلغ من حرص الرجل على طهارة ابنته أن غضب غضبة مضرية عندما ضبطها ذات يوم وقد ألصقت على حائط غرفتها صورة ممثل مشهور أخذتها من احدى الصحف ، فذهب الى مسز بيتشام محنقا وقال لها ، وكأنه يحملها وزر ذلك كله :
ــ ابنتك هذه ! انها شعلة من الشهوات الدنيئة . ستفسد اذا لم نحكمها جيدا .
لكن فكرة مسز بيتشام عن الشهوات الدنيئة كانت مختلفة عن تصورات زوجها تمام الاختلاف ، فوق أن ذكرياتها بذلك الشأن كانت مريرة للغاية . ولذا فانها لم تلق الى برطمة زوجها بالا ، وعندما تخطت ابنتها عامها الثامن عشر ، بدأت تصحبها معها فى نزهتها الأسبوعية ، بعد ظهر أيام الأحاد ، الى حانة « الاخطبوط » ، وهى حانة من « النوع المحترم » ، تباهى غيرها من الحانات بحديقة خلفية صغيرة فيها ثلاث شجرات كستناء عجفاء ، يستأجر صاحبها جوقة نحاسية تعزف فيها ، فى أمسيات أيام الآحاد ، فيكون هناك رقص ، من النوع المتحفظ ، بطبيعة الحال ، بينما تجلس الامهات بجوار سياج الحديقة يشتغلن التريكو .
لم يكن من المعقول أن تتردد فتاة فى جمال بولى على مكان كهذا طويلا دون أن يلحظها أحد . فسرعان ما كثر خطابها . من الخطاب اثنان بدا أنهما جديران بالنظر ، أولهما يدعى مستر بيكيت . والآخر ــ وهو الطف معشرا ــ اسمه مستر سمايلز . غير أن مستر بيكيت الذى ظهر أولا فلم يثر كبير اهتمام ، ازدادت فرص نجاحه بمجرد

ظهور مستر سمايلز ، وربما بسببه .
ولذلك قصة . فمستر بيكيت رجل قصير ، ربعة ، غليظ المراوح، له رأس يشبه رأس فجلة ، يتحفلط في لباسه ، ويحمل عصا مهولة يلفت حجمها النظر ، لا يكاد يتركها من يده ، ولون بشرته لا ينم عن صحة . الحقيقة أنه لم يكن هناك أى وجه للمقارنة بين مستر بيكيت ومستر سمايلز الذى كان يصغره سنا بكثير ، ويتفجر صحة ، ووسامة ، وشبابا ، حتى يخيل لمن يراه أنه من أولئك الشبان المنعمين الذين يتسابقون بالقوارب على مياه نهر التيمز . لكن السيد بيكيت رجل أعمال ، بينما الولد سمايلز مجرد كاتب عند أحد المحامين . ولذلك اطمأنت مسز بيتشام الى بيكيت أكثر مما اطمأنت الى منافسه قليل الوزن . فالشبان من أمثال سمايلز تعرفهم هى . لا احساس لديهم بالمسئولية ، يعيشون ، فى معظم الامر ، ليومهم ، بلا أدنى تفكير فى الغد ، وهمهم الاول والاخير الجرى وراء ملذاتهم العابرة . لذلك لم يخطر للسيدة بيتشام ببال أن تتحدث الى سمايلز، فتلمح له بأنه ان كان يريد بولى يجب أن يجتهد وينشط ، ليحسن مركزه ، ويرسخ فى مهنته ويكبر ، لانه ما الذى يعنيه ذلك كله بالنسبة لشاب طائش مثله ؟
فى الربيع انتظمت خوخة فى دروس مسائية للتدبير المنزلى . وبينما هى فى طريقها الى البيت ذات ليلة ، ظهر السيد سمايلز بجوارها فجأة ، فدفعها دفعا الى مدخل أحد البيوت ، وألصقها بالحائط ، وأخذ يحدثها ، وهى حبيسة بين ذراعيه ، فقد وضع ذراعا الى يمينها واخرى الى يسارها ، وبسط راحتيه على الحائط وراء رأسها . لكن الفتى لم يذهب الى أبعد من ذلك ، ولم يحاول ما هو أخطر . بدا أن كل همه أن يشمها ، فيملأ خياشيمه برائحتها الحلوة .
ولقد حدست مسز بيتشام الخبيرة ، لفورها ، بعض ذلك كله ، فعنيت من تلك اللحظة بفحص ملابس ابنتها الداخلية قبل غسلها ، فى موعد معين من كل شهر . ثم مالت بثقلهـا كله فى جانب المستر بيكيت ، مظهرة بجلاء تفضيلها له . فالسيد بيكيت تاجر اخشاب ملىء ، ورجل ذو مبادىء لا مأخذ عليها . وهكذا فان جاذبية الشباب، والوسامة ، ولطف المعشر ، رجحت عليها كفة سحر لا يقاوم ، سحر الرجل الثرى التاجر الكبير .
فوق أن الطريقة التى يضع بها يديه حول الردفين ، أثناء الرقص ، تدعو فى الحقيقة الى الدهشة ، من تاجر اخشاب مثله . ولقد أدرك

مستر بيكيت الذى لا يفوته شىء أن مسكاته ولمساته الحميمة لم تغب عن فطنة الام ، لكنها تعامت عنها ، فبدا له ذلك التعامى بشير خير يعد بأشياء أحسن وأجل شأنا تأتى مستقبلا ، وأطمـأن الى أن الطريق أمامه بات مفتوحا بغير عوائق أو صعاب . لكن الرجل الحصيف لم يذهب الى ما هو أبعد من هذه المداعبات السطحية البريئة ٠

غير أن الفتى سمايلز ، رغم مزايا السيد بيكيت هذه جميعها ، كان يحوز عليه سبقا واحدا : توفر الوقت لديه . فالمستر بيكيت ، كما هو متوقع ، كان رجلا مشغولا للغاية ، ولذا فانه لم يكن يحتكم فيما يحتكم فيه منافسه من وقت يكرسه للخوخة . لم يكن قادرا على التخفف من أعباء العمل دائما ليجرى وراءها ٠

ومع ذلك فانه سرعان ما لاحظ أن الخوخة بدات تميل الى أخذه مأخذ الجد ٠ ولحسن الحظ لم يكن الرجل عزوفا عن فكـرة الزواج كمعظم الناس . فدعا السيدة بيتشام وابنتها الى رحلة على شاطىء نهر التيمز ، فى صباح يوم أحد . وقد أوشكت ترتيبات الرحلة أن تفشل لان السيد بيتشام عاد الى بيته فى الساعة الخامسة من مساء السبت ، فى حال يرثى لها من النـكد ، وبصوت يثير الشفقة طلب فنجانا من الشاى بالبابونج يشربه قبل النوم ، ثم جعل زوجته تضع قالبا من الطوب ، ملفوفا فى قطعة قماش دافئة منداة ، على معدته .

كان مستر بيتشام قد تورط ، فى الآونة الاخـيرة ، فى عمليـات خارجة عن نطاق نشاطاته المألوفة ، تتعلق بمسألة فيها بواخر شحن . ولم تكن تلك العمليات الجديدة عليه ، سائرة على ما يرام فيما يبدو ، ولذلك أوجعته معدته . لأن أضعف ما فى مستر بيتشام معدته . أقل قلق يسبب له اضطرابات فيها . لكنه تحامل على نفسه فى صباح الاحد ، وذهب الى الكنيسـة فى صحبة زوجته وابنته ، رغم ضعفه الشديد ، ثم تركهما وذهب رأسا الى اجتماع ما . وقد حالف المرأتين التوفيق ، فقد بدآ واضحا أن الرجل كان يعانى متاعب خطـيرة ٠

كان مستر بيكيت ، الذى جاء لاصطحاب المرأتين مرتديا بذلة بيضاء ، قد استأجر عربة حنطور يقومون فيها برحلتهم ٠ وقد لاقى صعوبة حقيقية فى العثور على عربة من هذا النوع ، ضيقة المقعد (١) .

---

(١) العربة التى استأجرها مسـتر بيكيت ، ليتيح له مقعدها الضيق أن يلتصق ببولى أثناء الرحلة ، اسـمها بالانجليزية هانسوم « (Hansom) » وقد ترجمناها بعربة حنطور لانها أقرب ما تشبهه الذاكرة لدينا — وهى عربة مغلقة بها مكان لشخصين فقط ، يقف سائقها على منصة صغيرة وراء صندوقها ليقـود جياده .

لكن مسز بيتشام حسرت نفسها بين مستر بيكيت وبولى · وهو ما يبدو ان الرجل كان قد توقعه ، وأخذ له أهبته ، لان السلة التى انحشرت فى العربة معهم ، بين ثلاثة أزواج من الاقدام ، عندما كشف غطاءها على العشب الاخضر ، طالعتهم ، بجانب البيض المسلوق ، وسندوتشات الجامبون ، والفرخة المحمرة ، بثلاث زجاجات من الجن . وهكذا نال مستر بيكيت الحصيف بغيته ، فسعد بالجلوس على المقعد الضيق ، لصق بولى الحسناء ، فى رحلة العودة .

بدأت السماء تمطر مطرا خفيفا ، وسرت فى الجو برودة ، لم يجد معها الحرام (١) الذى لفوا به أرجلهم لانه جعل أصلا لراكبين فقط ، فأخذت مسز بيتشام تستحث السائق على الاسراع بصوت فقد كثيرا من نعومته ، قائلة أنهم تأخروا فى العودة كثيرا . فقد قاربت الساعة الثانية .

توقفت العربة أمام حانة « الاخطبوط » لينزل منها مستر بيكيت . ولم يستغرق الوداع أكثر من لحظة ، كما لم يذكر أحد منهم شيئا عن أى لقاء آخر . نزل تاجر الاخشاب من العربة فوقف فى نفس المكان الذى التقى فيه بالمراتين عند بداية الرحلة ، وكأنه لم يتحرك من مكانه ، أو يتغير فيه شىء ، اللهم الا ما أضيف الى رأسه المربع من قطرات المطر . لكنه ، فى حقيقة أمره ، كان قد مر بتحول كامل ، فلم يعد ذلك الرجل · يشهد بذلك أنه ، وهو التاجر الذى يحسب كل دقيقة بما يربحه أو يخسره فيها من نقود ، ظل طيلة الاسبوع التالى يقضى كل أمسياته ، عـدا مساء الخميس ،فىحانة«الاخطبوط» .. على أمل . بل وتردد على الحانة مرتين فى احدى الامسيات . كما رأته مسز بيتشام ، أثناء النهار ، يتسكع فى شارع أولد أوك ، أو يقف مستندا الى عصاه الغليظة التى كان يضعها وراء عجزه ممسكا بها بكلتا يديه · وقد راقبته مسز بيتشام من وراء الستائر جيداً · فلاحظت أنه يقضى معظم وقتـه محملقا فى اللافتـة المكتوب عليهـا « آلات » .

كان يدرس المنزل بامعان .

لم يكن السـيد بيكيت عبيطا . لاحظ أشياء كثيرة وهو واقف يرقب المنزل فيشهد عن كثب النشاط الذى لايهدأ لتلك الورشة العجيبة· رأى رجالا أسوياء أصحاء يدخلون من الباب ، ليخرج بعد دخولهم رجال مقعدون مشوهون يتحركون على طاولات العجزة ذات العجلات

---

(١) الحرام ،بكسر الحاء .

وسرعان ما تبين ان الخارجين لم يكونوا أناسا غير الداخلين . وفجاه تجلت لذهنه الحصيف طبيعه الصناعة التى تشتغل بها ورشه مستر بيتشام . ولتوه أدرك الرجل ان هذه الورشة منجم ذهب لا ينضب .

وفى نفس الوقت الذى تكونت فيه هذه الافكار وتشكلت فى ذهن مستر بيكيت اللماح ، كانت أفكار أخرى محددة تتكون وتتشكل فى ذهن مسز بيتشام عن هذا الخاطب اللحوح وهى واقفــة ترقبه عن نافذة فى الطابق الاول .

بدا أنه كان يتوقع حركة ما من جانب الخوخة ، لن تقــدم الفتاة عليها . والظاهر أن ما استقر عليه رأيه من أن شــيئا معينا حدث اثناء تلك الرحلة يجب أن تترتب عليه نتائج بعينها ، لم يستقر عليه رأى الطرف الآخر . فالآنسة بيتشام باتت تستخدم مدخلا جانبيا يقع فى شارع آخر ، تدلف منه الى بيت أهلها ، عند عودتها من دروس التدبير المنزلى المسائية .

وفى معظم الاحيان كانت تسارع بالانصراف من تلك الدروس لتقابل الولد سمايلز . لسبب ما وجدت متعة فى السير معه عبر الحديقة العامة ، فى عتمة المساء ، وقد اكتظت الدكك جميعا بالمحبين . وهما يسيران معا كان الفتى يقول لها أشياء لطيفة ، ويظهر اهتماما عظيما بمظهرها . وقد شغف بموضع معين من عنقها كان يحب أن يــــراه دائما ، فــاذا ما ارتدت ثوبا يخفى ذلك الموضع قال لهــا أن الثوب لا يلائمها . وقال أيضا أنها ستدفعه الى الجنون .

كان يحافظ على مواعيده معها بكل دقة ، ويأتى دائما بعجلة ظاهرة . وقد توصل ، بهذه الطريقة ، الى الايحاء بأن لديه مشاغل عديدة وملحة ، لكنه يهملها فى سبيل لقاء بولى .

فى تلك الايام تفتحت الخوخة حقا للمرة الاولى . كان الوقت ربيعا . ألفت بولى أن تدخل عنابر الورشة مرتدية ثوبا أزرق فاتح اللون فيه دوائر بيضاء وترقب عملية كى الثياب بالشحم لتبدو قذرة ، فاذا ما اغتاظت العاملات السقيمات فى تلك العنابر الخربة الرطبة المعتمة من منظرها المترف ، وأخذن فى « التنبيط » عليها بألسنة يعـــوزها الاحترام ، رفعت لهن طــرف ثوبها ، واستدارت ، فأرتهن عجيزة بيضاء صغيرة .

ثم تخرج بعد ذلك لتلعب مع الكلاب فى الفناء ضاحكة وتطلق عليها أسماء مضحكة . أطلقت على كلب منها اسم سمايلز . حتى شجرة البرقوق الزرية فى الفناء اكتشفت فجأة أنها جميلة . وفى الصباح

وهي تغتسل كانت تغني . باختصار كانت الفتاة عاشقة ، لكن ليس لأحد بعينه .
وكل مساء تستلقي على بطنها أمام نافذتها ، واضعة وجهها المستدير كالبدر بين كفيها وتقرأ الروايات . فتتنهد ، وتقول لنفسها :
ــ يالله ! ياله من منظر فظيع هذا الذي يدور حول الفيرا ، النقية ، الجميلة ، الطاهرة ، وهي تناضل ضد أفكارها الشريرة التي تدفعها الى ارتكاب المعاصي ! انها تحب حبيبها ، الرياضي ، الشجاع ، تحبه من كل قلبها الذي يحمل له أقوى المشاعر وأنبلها ، ومع ذلك فهناك شهوات تتلصص في أعماقها . شهوات حسية غارقة في الظلام ، لا تختلف في شيء عن المعاصي المغرقة في الخطيئة ! وكثيرا ما تتنهد بولي الجميلة متسائلة : « ترى ما الذي سيحدث لي مع هذا الرجل الوسيم ؟ وأين سيحدث لي ؟ » ان حالي كحال الفيرا ، بل أسوأ . لأني لست عاشقة ومع ذلك تتملكني هذه الشهوات . هل أستطيع أن ادعي أن حبيبي هو الذي أثارها بين جوانحي ؟ لا أستطيع أن أدعي ذلك . لا أستطيع أن أقول أني ضحية وسامته التي افقدتني الصواب ــ لانه منذا الذي يستطيع أن ينسب الوسامة الى مستر بيكيت ؟ أو الشجاعة الى مستر سمايلز ؟ لكني أقوم من فراشي المنجد بالريش صباح كل يوم ، وبينما أنا أغتسل تجتاحني شهواتي ــ وهي شهوات شريرة ــ فتجعل حتى مستر بيكيت ، ومستر سمايلز ، وسيمين في نظري ! وكم أخشى ان طال الامر أكثر من ذلك ، أن تجرفني شهواتي الجسدية الى الحضيض ، وهو المكان الذي قيل لي دائما أنه مآل كثير من منكودات الحظ ممن تتسلط عليهن مثل هذه الرؤى والأحلام التي تتكاثر على كلما انفردت بنفسي في غرفتي الوردية هذه ، مهد الطهر والبراءة ، وآويت الى فراشي ، وجذبت اغطيته حتى أسفل وجهي ، وأخذت أحلم . ويالها من أحلام ، لا أجرؤ حتى على ذكرها ! بضع ليال أخرى محمومة كهذه وأجدني مضطرة الى الارتماء في أحضان أول رجل أقابله ، حتى ولو كان جورج الأعرج العجوز الذي يحرس الكلاب في الفناء . لكن مستر بيكيت ، بعد كل شيء ، لا يمكن أن يكون عريسا سيئا الى الحد الذي يوقعني في كل هذه الحيرة . ومع ذلك هل أجد القوة على الانتظار ؟ ما الذي أستطيع أن أفعله لكي أحافظ على مظهر الود والطهارة الذي لا شك أنه يتوقعه في زوجته المقبلة ؟ وكيف أستطيع أن أقابل نظراته بنظرة صافية بريئة تكبح جماح أية شهوات دنيئة قد أثيرها في صدره ، وهي

شهوات ما من سبيل الى اشباعها أبدا ، أبدا ، قبل الزواج !

كان قرار خوخة بالزواج من تاجر الأخشاب قرارا لم يتم التوصل اليه بعد اى قدر يعتد به من التدبر وأعمال الفكر . كل ما فى الامر أن رجاحة العقل العملية للغاية التى تتمتع بها ابنة مستر بيتشام انتقت من بين خاطبيها ألعريس الارسخ قدما ، والاطول باعا ، الذى يمكن الاعتماد عليه .

ومع ذلك ، فان المستر سمايلز تمكن ، بجاذبيته التى لا تقاوم ، من مقابلة الآنسة بيتشام المرة تلو المرة . بل وحاول الوغد أن يقنعها بالعيش معه فى غرفة مفروشة . لكن ذلك الاقتراح ترك فى نفس الفتاة انطباعا بأنه كان عاجزا ، على المستوى الاقتصادى ، عن اعالة زوجة . وفى زيارتها الثانية لمستر سمايلز فى غرفته المفروشة ، رآها مستر بيكيت وهى تغادر المنزل معه .

وفى اليوم التالى فتحت مسز بيتشام خطابا مثيرا للاهتمام من هذا الاخير يتوسل فيه الى بولى أن ترتب له لقاء معها ، ويذكرها صراحة بواقعة معينة حدثت يوم الرحلة . كانت لهجة الخطاب كلها كريهة للغاية .

دبرت مسز بيتشام أمورها بحيث يقابل مستر بيكيت ابنتها مرة ثانية ، فى حانة « الاخطبوط » ، يوم الاحد التالى . لم تكن تعرف الشىء الكثير عن حكاية ابنتها مع الولد سمايلز ، ولم تكن على استعداد لأن تصدق شيئا حتى لو أخبرها أحد . كان شغلها الشاغل التفكير فى طريقة تحذر بها ابنتها بلباقة ، ودون أن تؤذى احساسها ، من الاستسلام السريع ، لتاجر الأخشاب الذى كانت قد اختارته لابنتها وانتهى الأمر . كانت ترقد فى الفراش ليلا ، بجوار زوجها ضئيل الحجم ، وتنغمس باستمتاع شديد فى تصورات لا تستحى عن أوضاع من العناق الزوجى الحميم بين ابنتها وبين بيكيت — أو بالأحرى جيمى ، كما كانت قد ألفت أن تدعو تاجر الاخشاب مؤخرا . لكنها عندما ذهبت الى « الأخطبوط » ، فى مساء الاحد ، فارقها قلقها .

تكدس رواد الحانة حول المنضدة الحديدية المستديرة تحت شجرة الكستناء ، حتى أوشكوا أن يجلسوا بعضهم فوق بعض ، الا عندما يكون رقص ، فتقل كثافتهم قليلا ، وتذهب بولى ومستر بيكيت للرقص هما أيضا . لكنهما عندما يعودان يصبح الحديث أمرا صعبا ، بالنظر الى تكدس الآخرين . ومع ذلك لم يعدم مستر بيكيت وسيلة يبتعد

بها مع المرأتين عن ذلك الزحام ·
طلب تاجر الاخشاب لنفسه طبقا من الكبد الضانى بالزيت والخل· وبينما هو يعد طبقه ببراعة يحسد عليها ، أدار دفـــه الحديث الى ستانفورد سيلز ، السفاح ، الذى نسبت اليه الصحف مؤخراً عدة جرائم قتل فى حى الميناء . ولما كانت السيدتان تعرفان اسم ذلك السفاح وحكايته ، فقد أخذتا تتبادلان التكهنات معه عما يحتمل أن يكون عليه شكل الرجل ·
وهنا أخذ مستر بيكيت يتحدث حديث عليم ببواطن الامـور عن ذلك السيد الذى دوخت جرائمه البوليس ، لان البوليس لم يستطع ان يكتشف دافعا مقبولا يدفعه الى ارتكابها . وقد بدا من حديث مستر بيكيت أن عالم الجريمة نفسه كان يجل مستر ستانفورد سيلز هذا اجلالا يقرب من الرهبة التى يحسها الناس فى مواجهة قوى ماوراء الطبيعة . بل وقد حدث فعلا أن عددا من المجرمين الذين ظل البوليس يطاردهم زمنا طويلا دون جدوى ، تقدموا ، من تلقاء أنفسهم ، فجأة ، فسلموا أنفسهم ، باختيارهم ، لسكوتلاند يارد ، لمجرد أنهم أحسوا أن « السكين » فى أعقابهم . و « السكين » ، كما هو معلوم ، كنية مستر ستانفورد سيلز ، بين حثالة الميناء ·
كانت بولى ، فيما تبين ، ملمة بأوصاف ذلك السيد سيلز الماما كاملا ، وقد وصفته لتاجر الأخشاب وصفا دقيقا .
قالت أنه أشقر ، ممشوق القوام ، أنيق بفطرته ، حتى ليبدو ، فى ثياب عمال الشحن ، كما لو كان سيدا من علية القوم يرتدى تلك الثياب على سبيل التفكهة والتنكر · وقالت أيضـــا أنه عطوف مع النساء .
الواقع أن بولى تحدثت فى ذلك اليوم كما لم تتحدث من قبل ، حديثا طليا ، يبعث البهجة فى النفوس · فقد أثر مستر بيكيت فيها تأثيرا عميقا ، وحرك مشاعرها ، فتألقت .
ظل الاثنان يرقصان ، معظم الوقت ، بنشاط فائق ، فلم يتسن لمسز بيتشام ـ لفرط ضيقها ـ أن تتابع حديثهما كامـلا . لـكنها استطاعت مع ذلك أن تكون معهما بأذنها . وكم كانت دهشتها عظيمة عندما وجدت حديث ابنتها منصبا ـ بعد سيلز ، السفاح ـ على الولد سمايلز ، وكم هو ساحر ، ولطيف ، وجذاب . ولم يفتها أن تلحظ كيف أن المستر بيكيت أصغى لذلك كله وهو يتصبب عرقا ، حتى ابتلت باقته وارتخت .

لكن بولى بدت ممسكة بزمام امره فى يدها ، وقد بدا واضحا أن الرجل كان قد وقع فى شباكها تماما .

فى صباح اليوم التالى كان واقفا من جديد ، فى شارع أولد أوك ، أمام الدكان . وفى المساء تجرأ ، فسمح لنفسه بزيارة مسز بيتشام فى عقر دارها ، مما سبب لها حرجا عظيما ، لانها خافت من مستر بيتشام الذى لم تكن لديه أدنى فكرة عن حكاية ابنته وخطابها ، وهى حكاية كانت زوجته تنوىأن توقفه عليها تدريجيا ،وبمنتهى الحرص.

جلس مستر بيكيت على حافة الكنبة القطيفة الحمراء فى غرفة انجلوس ، وأخذ يحذر مسز بيتشام من ذلك الولد سمايلز ، لانه ليس شابا ابن ناس ، بل هو منحرف ، والحقيقة أنه فاجر ، وابن حرام ، ويجرى دائما وراء النساء . ثم سأل المرأة عما اذا كان سمايلز هذا قد ضايق بولى بالخطابات أو بأى شىء من هذا القبيل ، فلما أجابته مسز بيتشام نفيا ، بدا واضحا أنه لم يصدقها ، وهم بأن يقوم الى المدفأة فيقلب رمادها بحثا عن رسائل غرامية تكون قد أحرقت فيها .

وتصادف أثناء خروجه أن قابل بولى على الدرج ، فصحبها الى مدرستها المسائية . أخذت الفتاة تثرثر طيلة الطريق عن بيتها ، وعن الاعداد الكبيرة من الناس الذين يترددون على منشأة أبيها ، داخلين خارجين طوال النهار ، وعن الشبان الذين يعملون بقسم الثياب ، وكيف أنهم يحبونها جميعا ، لانها لا تتعالى عليهم أو تسىء معاملتهم .

لكن تاجر الاخشاب، وهو يمعن النظر فى وجهها، بدا له أن هناك هالات زرقاء حول عينيها ، فسبب له ذلك كمدا شديدا .

وبعد ذلك أطلق العنان لخياله ، فأخذ يراها بعين الخيال ، فتاة حسناء شهية ، فى بيت كبير كالمتاهة ، فيه أبواب عديدة يلجها دائما بغير انقطاع ، شبان يدخلون ويخرجون — بيت ، فى الواقع ، لايصلح البتة لفتاة فى مقتبل العمر . وفى مؤخرة وعيه كانت ذكرى تقض مضجعه ، وتهول له الامور : ذكرى واقعة معينة حدثت يوم الرحلة ، أو ، على وجه الدقة ، أثناء العودة من تلك الرحلة . كانت تلك واقعة لم يجد فى نفسه الجرأة على ذكرها أو التحدث بشأنها ، لا الان ، ولا فيما بعد عندما منعته سلسلة متلاحقة ثقيلة الوطء من نوائب الدهر من اطالة الحديث مع زوجته . لكن عدم ذكره لتلك الواقعة ، وعدم تمكنه من مناقشتها لايعنى أنه نسيها أو استخف بشأنها ، على العكس . ظلت ثقيلة رازحة على صدره . فقد نفثت تلك الواقعة

المشئومة فى نفسه شكا قويا فى طهارة بولى وبراءتها ، وسلطت عليه فى الوقت ذاته وسواسا مقيما جعل من تلك البراءة وشكوكه حولها شغله الشاغل .

والحقيقة أنه لم يصب فى حياته بمثل ما أصيب به من عشق لبولى وانشغال بها . ولقد كانت هناك ظروف عديدة اسهمت فى خلق ذلك الانشغال المجدود . قال السيد بيكيت لنفسه وهو يتفحص مشاعره تجاهها :

ـ من الخطأ الفاحش أن يسأل المرء نفسه ان كان يتزوج الفتاة التى يتزوجها من أجل مالها أم من أجل شخصها ، لانه غالبا مايكون دافعه الى الزواج قائما على الاثنين معا . والحقيقة ، أى شىء يمكن أن يفوق بائنة الفتاة سحرا ، نعم نعم ، بغير مالها كنت سأرغب فيها بغير شك ، ولكن ربما ليس بهذا الوله !

حقيقة الامر أن تاجر الاخشاب لم يكن غشيما فيما يتعلق بمسائل الحب والهوى . فقد سبق له الاقتران بأكثر من زوجة ـ وغالبا فى وقت واحد معا ـ لكنه لم يكن لديه وقت للمغامرات ، لانه كان متورطا فى أعماله مع أناس خطرين للغاية ، وكان لديه من الهموم التى تقصم الظهر مايكفيه وأكثر . كل مافى الامر انه كان ، فى تلك الآونة ، فى مسيس الحاجة الى زيجة جديدة . بل ان تلك الزيجة كانت أمرا حيويا بالنسبة له . فلم تكن أحواله التجارية رائجة فى تلك الايام ، وكانت محلاته تخسر .

وكان فى تلك الايام أيضا يحمل فى جيب سترته الداخلى عددا كبيرا من قصاصات الصحف تتضمن تفاصيل حديث صحفى كان احد المخبرين قد أجراه مع مدير البوليس عن القاتل المدعو ستانفورد سبلز ، المعروف باسم « السكين » . كانت تلك القصاصات قد ارسلت الى السيد بيكيت من مجهول ، وقد سببت له ازعاجا شديدا . وبسببها أيضا أطبق شفتيه ، فلم يلفظ حرفا من كلام كثير كان على طرف لسانه .

بعد قرابة أسبوع حدثت لمستر جوناثان ارميا بيتشام ارتباكات مالية خطيرة ، نتيجة لالاعيب معينة قام بها شخص اسمه مستر كوكس ، فلم تكد تلك الارتباكات تحدث ، حتى اتجهت أفكار مستر بيتشام ، بطريقة اوتوماتيكية ، الى ابنته الفاتنة .

(٢)

والان كلهمو ذهبوا الى الحرب معا ،
وكل واحد منهم يصرخ فى طلب طلقات البنادق .
هناك بطبيعة الحال أناس كثار طيبون
سوف يوفرون لهم كل مايحتاجونه من رصاص عن طيب خاطر.
« لن نحارب بغير ذخيرة ! » سوف يهتفون ،
وسوف يقال لهم « اتركوا ذلك الامر لنا يا أبناءنا ،
« هيا اذهبوا انتم الى الميدان وقاتلوا ،
« وسوف نصنع نحن لكم كل المدافع والذخيرة . »

ثم وقد صنعوا تلالا من ذخيرة ،
لم يجدوا حربا جيدة لها ،
هناك بطبيعة الحال أناس كثار طيبون
سوف يخلقون لهم حربا من الهواء كالحواة ،
وسوف يهتفون :
« هيا هيا انطلق الى الجبهة ياولدى العزيز ،
« هؤلاء الاوغاد يتهددون أرض اجدادك ،
« سر هيا يابنى سر ، من أجل أمك ومن أجل أخواتك ،
« سر فى سبيل الله والوطن والملك »

(أغنية حرب)

حاجة حكومة صاحبة الجلالة

ويليم كوكس كان سمسارا . والمفروض ، طبقا لما هو مكتوب فى بطاقة زيارته أن لديه مكتبا فى مكان ما من حى المال والاعمال بمدينة لندن ، لكن من النادر جدا أن يتردد عليه أحد فى ذلك العنوان ، وهو شخصيا لا يستعمله الا فيما ندر . والحقيقة أنه لم يكن لديه سبب

معقول واحد يجعله يذهب الى ذلك المكان ، لان المكتب لم يكن يحتوى
الا على فتاة شاحبة لانفع فيها ، جالسة مع آلة كاتبة قديمة مهشمة
الحروف ، لاتفعل شيئا ، لانه لم يكن هناك أى شىء تكتبه . كل مافى
الامر أن الفتاة كانت تجلس فى انتظار البريد ، الذى كان يسلم فى
ذلك العنوان حتى لايضطر مستر كوكس الى الافصاح لاحد عن عنوان
بيته . فلم يكن يستقبل أى مخلوق فى بيته ، وكل صفقاته كان يعقدها
فى أحد المطاعم .

كان من دأبه أن يقول :

— لست فى حاجة الى منظمة أعمل من خلالها . فأنا لا أتعامل الا
فى الصفقات الكبيرة !

لم يكن يلمس اى شىء قذر . كان يرتدى قفازه أبدا . وكان يرتدى
أيضا بذلة رمادية فاتحة اللون ، جاهزة ، وجوارب بنفسجية ، وربطة
عنق قرمزية . ولسبب ما رسخ فى ذهنه أن الناس يعتقدون أنه ضابط
فى ثياب مدنية . لذلك كان يمشى دائما مشدود القامة ، بخطو
عسكرية .

ولا يعنى عدم وجود مستخدمين لديه يكبدونه مرتبات باهظة
أنه كان بغير معاونين . ففى مكاتب حكومية معينة كان يجلس أناس
مختلفون يعاونونه ويحققون له من الفائدة مالم يكن ليحصل عليه من
حشد كامل من الكتبة الكسالى سليطى اللسان .

كان له معاون من هذا النوع ، مثلا ، فى الاميرالية .

من ذلك المعاون استقى ذات يوم معلومة مؤداها أن حكومة صاحب
الجلالة كانت فى مسيس الحاجة . هذه الحاجة كانت الى سفن نقل
الجنود ، بالنظر الى ضرورات الحرب التى دعت الى نقل حشود كبيرة
من هؤلاء الجنود الى كيبتاون . وبلا أدنى تردد قرر كوكس لفوره أن
يبذل كل مافى وسعه لاشباع تلك الحاجة لدى حكومة صاحبة الجلالة

ولما كانت الصفقة بحرية ، فانه ذهب الى حانة يؤمها صنف وطىء
من البحارة المحترفين ، وبدأ يستعلم بحذر عن امكانية الحصول على
عدد من أقدم السفن . وسرعان ماسمع عن سفن ذلك شأنها ، تملكها
شركة بروكلى وبروكلى الملاحية ، وهى مؤسسة كانت تتعامل — بين
نشاطات أخرى — فى تجارة السفن جاهزة الصنع .

كان فى لندن ، فى تلك الاونة ، عدد كبير من الناس الذين لم يلتزموا
تمام الالتزام بما يمليه الضمير من الاستجابة لرجاء الحكومة بأن تقدم
دنيا الاعمال مؤازرتها الكاملة للدولة فى صراعها مع البوير . فبادر

الموقف هكذا ، طبقا للمثل الانجليزى المشهور : كان هؤلاء السادة على استعداد لان يبيعوا المربى للحكومة ، لكنهم لم يكونوا على استعداد لمشاركة الحكومة فى أكلها • غير أن مستر كوكس لم يكن من تلك الفئة الضالة . فلم تكن لديه أدنى رغبة فى الاثراء على حساب الكوارث التى تحيق بوطنه • ولذا فانه انخرط فى استقصاءات متعبة ، وان كانت لاضرر فيها، حول امكانية استئجار مكاتب وآلات كاتبة • وهو مالم يكن مستر كوكس فى حاجة اليه ، لان اى انسان له صديق صاحب نفوذ فى الاميرالية ، مثله ، كان حريا بأن يعرض على الحكومة تلك السفن الناقلة للجنود التى سمع بها فى الحانة ، بغير حاجة الى أدنى تعقيدات . فقد كانت تلك السفن تتسع لاعداد هائلة من الجنود ، فوق أن الاستفسارات اللبقة التى تمت بشأنها من شركة بروكلى وبروكلى أثبتت أنها رخيصة فعلا •

والحقيقة أنه لم يرد ذكر لاى شىء ، خلال المقابلة السريعة التى تمت بين السمسار كوكس والسادة بروكلى وبروكلى بشأن السفن المعروضة للبيع ، خلا حمولة تلك السفن وثمنها . فلم يسأل السيد كوكس أى سؤال يخرج عن ذلك الموضوع المحدد ، كما لم يفه أصحابه الشركة بحرف عن حالة السفن . وبناء عليه فان أولئك السادة كانوا على أستعداد لان يقسموا على ذلك ، بضمير مستريح ، فى أى وقت ، أمام أية محكمة •

لم يشر أحد ، أثناء المقابلة ، الى أية رغبة من جانب مستر كوكس فى شراء سفن من بروكلى وبروكلى ، رغم أن السفن التى جاء ذكرها كانت رخيصة فعلا وواسعة . كل ماهنالك أن مستر كوكس يعرف أناسا كثيرين على استعداد لدفع مبالغ لايستهان بها مقابل الحصول على سفن شحن • فأسعار الشحن ارتفعت كثيرا بسبب الحرب ، والسفن المعروضة للبيع قليلة وباهظة الثمن • (لكن الحقيقة ، رغم ذلك كله ، أنه مامن أحد فى كامل وعيه يبحث عن سفن لاتغرق بمجرد أن تبحر يمكن أن يذهب الى السادة بروكلى وبروكلى بحثا عن تلك السفن) •

ولقد كان مستر كوكس مهتما ــ وبصورة عاجلة ــ بالبحث عن سفن جيدة ، لا للحكومة ، بل لبعض الشركات الخاصة .ـ فحاجة الحكومة الى سفن نقل الجنود كانت مسألة ثانوية للغاية بالنسبة اليه وهو لم يهتم بها أصلا الا فى نطاق بعض نشاطاته الجانبية . ولذلك فضى أسبوعا اخر فى البحث عن مزيد من السفن •

ولم يضع جهده هباء ، فقد اكتشف ثلاث سفن اخرى تصلح ناقلات للجنود ، جديدة عن سابقاتها ، وأكثر صلاحية من كل الوجوه . ولقد اضطر الى القيام بعدة رحلات ، واحدة منها الى ساوثمبتون ، فى معرض بحثه عن تلك السفن ، فلما كلل سعيه بالنجاح ، وجد أنه قد وفق الى ثلاث سفن مملوكة لاشخاص مختلفين ، لايمكن اعتبارها رخيصة بحال ، لكنها تبدو جيدة متينة فعلا .

أخذ مستر كوكس علما بتلك السفن ، ثم عاد الى لندن .

وهناك عاد الى البحث فى كيفية اشباع حاجة الحكومة . لكنه ــ كما سنرى ــ لم يهمل مصالحه الخاصة وهو يفعل ذلك . ولقد انصبت مصالحه هذه على شراء عدد من سفن الشحن الجيدة ، كتلك التى شاهدها فى ساوثمبتون ، بأرخص سعر ممكن .

فيما يخص عملية الحكومة ، تحدث مستر كوكس ، فى لندن ، أمام عدد من رجال الاعمال جمعهم معا ليتحدث اليهم فى ذلك الخصوص . ولم يكن من الصعب العثور على مثل أولئك الناس . فقد كانت مدينة لندن تغلى غليانا وتجيش بالمبادرات الفردية . فحى المال والاعمال كان قد اشتعل حماسا للوقوف بجانب الوطن فى الحرب مع البوير . الحقيقة أن الحكومة كانت زبونا مثاليا لامثيل له .

ولقد علم صاحبنا مستر بيتشام بحاجة حكومة صاحبة الجلالة وهو فى صحبة أربعة أوخمسة من السادة الذين كانوا لايقلون عنه حماسا لان يهرعوا الى اجابة أى أمر يقرأونه مجرد قراءة فى عينى الحكومة .

وقد اجتمعوا فى مطعم محترم من مطاعم الطبقة المتوسطة بحى كينسينجتون . اكتشفوا بعد أن تم التعــــارف بينهم أن جمعهم يضم أحد البارونات ، وســـمسار مراهنــــات غـير مشروعة على سباق الخيل ، ومدير مصنع قطن فى لانكشاير ، وصاحب مطعم ، ومالك عقارات سكنية ، ومربى أغنام ، وصاحب احــدى الشركات الكبيرة التى تتعامل فى الالات الموسيقية المستعملة .

اعطوا النادل طلباتهم ، ثم استرخوا فى مقاعدهم يستمعون الى كلمة السيد ويليم كوكس التى ألقاها بمناسبة اجتماعهم .

بدأ مستر كوكس كلمته قائلا :

ــ ان موقف بلادنا خطير بحق . بدأت الحرب كما تعرفون حضراتكم لان المواطنين البريطانيين المسالمين تعرضوا لهجوم مفاجىء وغير مبرر ، بلا أدنى استفزاز من جانبهم ، والاسوأ من ذلك أن قوات صـــاحبة الجلالة التى هبت لنجدتهم على الفور هوجمت فى كل مكان هجمات

غادره والحقت بها اهانات دامية فى معرض قيامها بواجبها لحماية الممتلكات البريطانية . ولقد قرأتم جميعا بغير شك عن الهجمات المضادة التى ظلت حكومتنا تؤجلها حتى الان بسبب سعة صدرها الزائدة عن الحد وحبها للسلام . وهو موقف لم يعد الان مفهوما . فانجلترا الان ، بعد أن نشبت هذه الحرب ، تقاتل حشدا غوغائيا مسعورا من الفلاحين المجانين دفاعا عن ممتلكاتها وراء البحار . ففى بلدة ميفكينج حوصرت القوات البريطانية . وهى تقاتل الآن دفاعا عن بقائها ضد جيش من البوير يفوقها عددا وعدة . وكل من كان من حضراتكم متعاملا فى بورصة الاوراق المالية يدرك جيدا ماالذى يعنيه هذا . أيها السادة ! ان الغرض من هذا الاجتماع هو تقديم العون السريع الى بلدة ميفكينج وتحريرها ! (تصفيق) أيها السادة ! لقد دقت الساعة التى يجب أن يتحلى فيها رجل الاعمال البريطانى برباطة الجأش ، والشجاعة ، والمبادرة ! هل يجب أن تضيع بطولة مقاتلينا الشبان هباء لأنكم تكشفون عن افتقاركم الى هذه الخصال من الذى يشن الحرب ياسادة ؟ العسكرى ورجل الاعمال ! كل يشنها من موقعه . الحكومة لاتفقه فى الاعمال شيئا . الحكومة تقول : اننا فى حاجة الى ناقلات جنود . فنقول نحن على العين والراس ، هاهى الناقلات . فتقول الحكومة : أنتم تعرفون أكثر مما نعرف عن هذه الاشياء . كم ثمن هذه الناقلات ؟ ذلك شيء بوسعنا أن نعرفه بغير ابطاء ، فنقول للحكومة ثمنها كذا وكذا . والحكومة لاتساوم .. فهى تعرف أن النقود ستظل فى البلاد . ثم انه لا يجب أن تكون هناك مساومة بين الاصدقاء . فسيان أن تكون النقود فى جيب هذا الصديق أو ذاك الصديق . والحكومة وممثلوها فى دنيا الاعمال أصدقاء . هناك رابطة حميمة تربطها بهم وثقة متبادلة بينها وبينهم . يقول الواحد منهما للاخر : « اسمع ، هذا شيء لاتعرف أنت أن تفعله ، دعنى أفعله نيابة عنك . فاذا صادفنى شيء لا استطيع ان افعله ، سوف تفعله أنت نيابة عنى . » هكذا تولد الثقة . هكذا تنشأ المصالح المتكافئة . يقول لى وزير هذه الوزارة أو تلك ونحن ندخن سيجارة معا : « اسمع يابيلى يابنى . ان زوجتى لم تعد تستطيع تدبير أمورها فى بيتها الكبير ذى الاثنتى عشرة غرفة . ماذا أفعل ؟ » فأقول له : « لا تشغل نفسك بصغائر كهذه ياسيدى الوزير . يجب أن تتفرغ تماما لعملك . » وادبر الامر له ! ثم تقراون حضراتكم فى الصحف أن سيادته قد القى هذه الخطبة أو تلك فى مسألة تمس مصالح البلاد ،

وان تلك الخطبة قد عززت موقفنا فى العالم ، وفى افريقيا او الهند او اى مكان آخر تحدث أشياء عظيمة تزيد من قدر بلادنا ومكانتها زيادة ضخمة . لهذا أقول له : « تشارلس ! يجب أن تتحرر من كل الهموم والمشكلات ، من اجل صالح بلادك . لايجب أن تشغلك متاعب صغيرة او مشكلات مالية . وانا مجرد رجل اعمال بسيط فى حالى ، لا أبحث عن مجد او شهرة . لا أريد أن أرى اسمى فى الصحف ، ولا أريد تقديرا من احد . كل ما أبتغيه هو أن أساعدك ، بهدوء ، وبغير علم من أحد ، فى الجهد الخارق الذى تبذله للقيام بعملك العظيم فى سبيل رفعة الوطن . أريد أن أقوم بواجبى المقدس تجاه وطنى ! »

ومثلى أيها السادة آلاف من رجال الاعمال الذين يعملون فى صمت، بغير ضجيج ، كجنود مجهولين لايدرى بهم احد ، لكنهم يعملون ، ان سمحتم لى بالقول ، باستماتة ، وبراعة منقطعة النظير ، وسعة حيلة لا تنضب . وهكذا فان رجل الاعمال يورد السفينة ، والعسكرى يبحر عليها . رجل الاعمال ماهر واسع الحيلة ، والعسكرى شجاع .

أيها السادة . لاتدعونا نضيع الوقت فى كثرة الكلام. دعونا نؤسس شركة للنقل البحرى .

لقيت كلمة مستر كوكس نجاحا فوريا . شكره صاحب المطعم باسم الاخرين وباسم الوطن لانه أوقفهم على مافيه أداء واجبهم . وبعد أن نوقشت بعض التفاصيل العملية ، تم تحرير عقد ابتدائى بتأسيس الشركة . أحضر النادل حبرا وورقا ، وأخذ سمسار المراهنات يكتب . ثم تقرر أن تشترى بأسرع مايمكن سفن شركة بروكلى وبروكلى الثلاث التى ذكرها مستر كوكس حتى يجرى اعدادها اعدادا كاملا ، على أن يقسم ثمن الشراء ثمانية (٨) أقسام متساوية ويدفع نقدا فور اتمام الصفقة .

عندما بلغوا ذلك الحد ، خيم على المائدة صمت عميق . فقد جاء وقت تحديد الانصبة فى أرباح الشركة ، خاصة أرباح كوكس الذى أتاهم بالعملية كلها . طلبوا من النادل احضار مزيد من السيجار والجعة .

ثم أخذ مدير مصنع النسيج يتحدث بغير اكتراث ، كما لو كان يدردش ، وهو يتابع دخان الكورونا الازرق بعينيه :

ـــ يبدو لى أن الارباح الصافية يجب أن تقسم على ثمانية لانها ثمانية ، أليس كذلك ؟ أما صديقنا مستر كوكس فانه يجب أن يحصل ــ فوق نصيبه فى الارباح ــ على عمولة اضافية ولنقل إنها عشرة فى

المائة من الثمن الذى تدفعه الحكومة .
نظر الجميع الى كوكس ، باستثناء واحد أو اثنين ، فمال كوكس بمقعده الى الوراء وقال باسما :
ــ هذه نكتة ظريفة !
كانت مطالبه أضخم من ذلك بكثير ، وقد أوضحها لهم بين علامات الدهشة من جانبهم . ثم بدات مناقشات استمرت ساعتين ، لم تنخفض بعدها مطالب كوكس انخفاضا يذكر . وقد أحس الجميع أن استمرار النقاش يومين آخرين لن يجديهم شيئا ازاء صلابته . وهكذا اتفق على أن تكون العمولة خمسة وعشرين فى المائة .
عندما انتهى السادة جميعا من التوقيع على الوثيقة بزفرات حرى وحزن على الوجوه ينبىء عن أنهم كانوا يوقعون أحكاما بالموت على أعز احبائهم ، انفض سامرهم بسرعة ، فذهب كل الى بيته .
وقد خرج مستر بيتشام من ذلك الاجتماع بانطباع مطمئن للغاية بالنسبة للعملية كلها ، وبالنسبة لمهارة مستر كوكس وسعة باعه فى مسألة تقسيم الارباح . فمثل هذه المساومات لم تكن لتدور بمثل هذه الجدية لو لم تكن العملية سليمة مائة فى المائة .

متاعب لاتخطر لرجل الشارع ببال

ذات صباح غائم مغلف بضباب لندن عقد اجتماع ضم خمسة من السادة فى أحد المكاتب العديدة الصغيرة العارية ذات الاثاث الاصفر التى يزخر بها حى المال والاعمال فى تلك العاصمة العظيمة . على الباب الزجاجى المصنفر المفضى الى ذلك المكتب ، كانت هذه الكلمات بأحرف مذهبة : « بروكلى وبروكلى ــ شركة ملاحة » .
بين الخمسة المجتمعين فى تلك الغرفة كان السيدان بروكلى وبروكلى ، وهما مخلوقان باهتان لا لون لهما ، مترددان لا يستقران على رأى ، يتنافس كل منهما الاخر فى خوفه المبالغ فيه من اتخاذ اى قرار يمس مصالحهما المشتركة . لان كلا منهما كان حريصا على مصالح الاخر حرصه على الحياة ذاتها ، وقد بدا كل منهما مهموما بغير حد لاقتناعه الكامل بأنه أضعف من أن يتحمل مسئوليتهما المشتركة .
لهذا كان كل من يعرف مجريات الامور فى حى المال والاعمال يعامل

هذين الاخوين كما لو كانا بيضتين نيئتين . وقد كان مستر كوكس من خيرة العارفين بمجريات الامور فى حى المال والاعمال ،فعاملهما تلك المعاملة بينما المجتمعون ينشئون عقدا يتم بمقتضاه نقل ملكية سفن الشحن الثلاث « آنا الجميلة » ، و « الولد البحار » ، و « المتفائل » ، الى الشركة الجديدة مقابل مبلغ اجمالى قدره ثمانية آلاف ومائتان من الجنيهات الاسترلينية (٨٢٠٠) ، على أن تتم معاينة السفن يوم الخميس التالى لتحرير العقد ، وأن يتم التوقيع على العقد فور اجراء المعاينة ، بعد دفع الثمن المتفق عليه نقدا وعدا.

قال أحد السيدين بروكلى :

ـ يسعدنى طبعا أن أراكم كلكم هناك وقت اجراء المعاينة ، لكنى لا أعتقد أن هناك ضرورة لذلك فى حالة هذه السفن بالذات .

وهكذا تم ترتيب كل شىء على أكمل وجه .

ولهذافان دهشة الاخوين بروكلى وبروكلى كانت عظيمة عندما فوجئا بمستر كوكس يزورهما فى مكتبهما فى صباح اليوم التالى ، فيستحلفهما بكل عزيز أن يقسما على السرية المطلقة ، فيقسمان ، واذا به يباغتهما بعرض آخر ، من جانبه ، لشراء السفن ، فى حالة عدم اتمام الصفقة التى تم الاتفاق عليها بالامس . وللاخوين عذرهما طبعا اذا زلزلتهما هذه التطورات غير المتوقعة وأصابتهما باصطخاب داخلى عظيم .

نتيجة لذلك كله اتصل أحد الاخوين بروكلى بعد ظهر الاربعاء بصاحب عقارات الاسكان ، لا لشىء الا لانه الوحيد الذى كان يعرف عنوانه من بين الشركاء ، فاستفسر منه بنبرة أمل حقيقى عما اذا كان هناك احتمال لالغاء العقد ، وصارحه القول بأن الشركة (بروكلى وبروكلى) قد تلقت عرضا جديدا أفضل وأنه لا يستطيع أن يأخذ على عاتقه توريط أخيه فى صفقة خاسرة بالتمسك بالثمن القديم الذى سبق الاتفاق عليه .

فعبر ايستمان ، صاحب العقارات ، عن شديد أسفه ، نيابة عن الشركة لعدم امكان التحلل من العقد ، وهنا غمغم بروكلى شيئا بصوت مقهور عن يوم الخميس الساعة السادسة مساء قائلا أنه سيكون اذ ذاك فى حل من استئناف المفاوضة اذا لم تجر الامور على وجه مرضى . وقد سارع ايستمان ، فى أعقاب تلك المحادثة ، باخطار بقية الشركاء ، طالبا منهم أن يراعوا موعد يوم الخميس بكل دقة . لكن كوكس اتصل بايستمان فى صباح يوم الخميس ودعاه الى تناول

فنجان من القهوة معه فى أحد المطاعم . وهنـــاك اعتذر له عن تأخير اضطرارى طفيف ، قائلا أنه لن يستطيع أن يدفع نصيبه من النقود الا صباح يوم السبت .

ونتيجة لذلك ، عقد اجتماع اتسم بالاضطراب والاثارة ، فى مطعم آخر ، فى تمام الساعة الثانية ، قبيل الموعد المحدد للمعاينة . وفى ذلك الاجتماع طالب مدير مصنع النسيج ، بانفعال ، بأمر من اثنين : اما أن يتقدم كوكس بالمبلغ المطلوب منه فورا ، واما أن يتم التوصل الى ترتيبـــات أخرى . وفى الوقت ذاته عرض أن يقوم هو بالوفاء بالتزامات كوكس ، وأن يحصل على نصيبه فى الارباح .

لكن ايستمان انتقد هذه الاقتراحات ، فبنى نقده على اعتبارين : أولا ، الانذار الموجه الى كوكس ، وقد وافق عليه تماما ، وثانيا ، العرض الذى تقدم به مدير مصنع النسيج ، وقد رفضه تماما . وفى الوقت ذاته أعلن أنه مستعد لان يأخذ على عاتقه الوفاء بنصيب كوكس .

وفى أعقابه سارع شركاء عديدون من بين السبعة باعلان استعدادهم الكامل للحلول محل كوكس . وهكذا بدا واضحا للجميع ــ فيما عدا كوكس ــ أن هذا الاخير يجب أن يفقد نصيبه فى الشركة آذا لم يتقدم من فوره ويسدد نصيبه من ثمن شراء السفن . وقد أبدى كوكس شكوكه فى سلامة مثل هذا الاجراء قبله ، لكنها كانت شكوكا ضعيفة . وفى نهاية الاجتماع كانوا قد اتفقوا جميعهم على تقسيم العملية الى سبعة أنصبة بدلا من ثمانية ، على أن يحصـــل كوكس على عمولته فحسب .

وقد بدا أن ذلك القرار الصارم وقع على كوكس وقع الصاعقة لانه أصيب بوعكة مفاجئة ، فاســتأذن وذهب الى بيته ليأوى الى الفراش ، معلنا أنه لن يستطيع أن يصحبهم أثناء قيامهم بالمعاينة .

اتفق ايستمان مع مهندس بحرى سابق على أن يقوم بمعـــاينة السفن فنيا لحسابهم بوصفه خبيرا فى هذه الامور . كان ذلك المهندس رجلا طويلا ، نحيلا ، غائر العينين والوجنتين ، اسمه بايل ، طرد من كل وظيفة التحق بها فى حياته بسبب ادمانه الخمر . وقد قابله الشركاء قرب الميناء ، فدعوه ، بناء على نصيحة ايستمان ، الى بضع كئوس من الخمر حتى ينعـــدل مزاجه ، ويعلن أن الســـفن الثلاث لا تصلح لركوب البحر لانها قد باتت هياكل نخرة ، فيزود الشركة بميزة سبق على الاخوين بروكلى فى مساوماتها معهما .

وقد تم اللقاء بهذين الاخوين فى مكتبهما المخصص لاستقبال سفن

الشركة بالميناء ، ولم يكن بعيدا عن موقع السفن .

كانت السفن ثلاثة هياكل ضخمة نخرة ـ بالفعل ـ كئيبة ، يعود تاريخها الطويل الى أيام الامبرال نلسون رحمه الله • فالعالم لن يخلو أبدا من هواة تخزين الاشياء العتيقة كالقبعات ، وصناديق السيجار ، وأسرة الاطفال وما الى ذلك ، اما عن هوس عاطفى بحت وأما عن مجرد غباء • وليس من شك فى أن أحداً من هذا الصنف من الناس كان قد شغف بهذه السفن الثلاث فاحتفظ بها بدلا من أن يغرقها • ولا عجب فى ذلك • لكن وجه العجب الحقيقى كان فى بقاء تلك التوابيت الثلاثة النخرة طافية على الماء الآسن بالرغم من الحكمة القائلة أن كل الاشياء الى زوال •

ولقد بدا واضحا منذ النظرة الاولى أن السفن الثلاث كانت قد تركت فى حالها طيلة سنين عديدة ، بل طيلة أحقاب بأكملها • لكن ما العمل وعدة آلاف من جنود الامبراطورية الابطال ينتظرون من يحل محلهم فى بلاد الترانسفال ، ويسعدهم كثيراً أن ترسل حكومتهم أى شىء يعبرون البحر فيه عائدين الى الوطن . ولسوف يسعدهم كثيرا بغير شك أن تسارع الشركة بارسال هذه السفن لاحضارهم .

كانت « الولد البحار » أقرب السفن الثلاث الى الشاطىء ، فصعدت اللجنة اليها . وقد بدت السفينة فعلا أشبه بسفينة حقيقية . ولم يكن أى من زائريها بحارا حتى يتفاهم معها ، لكن أى بحار ذلك الذى كان يجازف بالوقوع فى مصيدة كهذه ليدق عنقه؟

لم تكن السفينة مهجورة • فقد استعمرتها جرذان هائلة الحجم بدت أشبه بالحملان التى تمرح على سفوح الجبال فى ويلز ، ولقد بدا واضحا أن تلك الحيوانات السمينة الضخمة رغم أعمارها الطويلة ، لم تكن قد رأت الانسان من قبل ، ولذلك فانها لم تحس بأدنى خوف من اقتحام اللجنة لسفينتها .

كان المهندس بايل قد أعد نفسه للقيام بعدد من الحركات الاستعراضية يكشف فيها بصراحة كلبية لا تقيم وزنا لشىء الالاعيب المختلفة التى يتوصل أصحاب السفن عديمى الضمير من خلالها الى اخفاء حقيقة توابيتهم العائمة لتبدو للبسطاء فى صورة يخوت فاخرة . كان قد بيت النية على أن يفاجىء الاخوين بروكلى بعبارة لاذعة كهذه : « وما هذا أيضا يا سادة » ثم ينتزع هذا الجزء التالف أو ذاك من جسد السفينة المتآكل . لكنه الان وقف ذاهلا ، مخذولا ، وقد أسقط فى يده ، يفتح فمه ليتكلم فلا يخرج منه صوت . لكن احداً لم يكن بحاجة الى من يقول له شيئا ، فأى طفل كان بوسعه أن

يدرك حقيقة ذلك القبر العائم من أول نظرة .
فالداء الذى كانت « الولد البحار » تعانى منه لم يكن من الممكن القول عنه ، حتى بأكبر قدر من سـلامة النية وحسن الظن ، أنه مرض مؤقت .
لهذا لم يتحرك واحد من الرجال العشرة قيد أنملة من السلم الحديدى الذى وقفوا عليه ، لان أحدا منهم لم يكن ليجرؤ على ان يستند بيده الى اى جزء من أجزاء السفينة اذا حدث وتعثر فى بعض الركام المتعفن المتناثر فى كل مكان ، خشية أن تنفذ يده من خشب السفينة .
قال ايستمان فجأة بصوت مرتفع مرح :
ـ ايوه ، أيوه !
فتردد صدى صوته أجوف كئيبا .
وهنا قال أحد السيدين بروكلى فجأة ، بمنتهى الهدوء :
ـ الواقع أن المرء لا يجب أن ينقاد وراء المظاهر الخارجية . أهم ما فى الامر هل تصلح السفينة لركوب البحر وتصمد له اذا هاج ؟
هناك أناس لديهم القدرة على أن يظلوا بمنجـاة من التأثر بآراء الاخرين ، مكتسبين مناعة كاملة تقيهم من الانخداع بالوقائع الثابتة ، مما يتيح لهم أن يعبروا عن آرائهم الخاصة بحرية وصراحة كاملة بلا أدنى اعتبار للزمان أو المكان . أمثال هؤلاء ولدوا ليكونوا قادة . وقد كان مستر بروكلى أحد أولئك .
عادت الشركة البحرية للنقل الى الارض الصلبة وكأنها فى كابوس. ولم تعن الشركة بالقـاء نظرة ، ولو عابرة على « أنا الجميلة » و « المتفائل » ، التى كانت ، فيما بدأ ، أسوأ السفن الثلاث حالا .
وعنـدما احتل الجميع أماكنهم مرة أخـرى فى مكتب بروكلى وبروكلى ، ألقى أحد الاخوين بروكلى كلمة قصيرة :
ـ أيها السادة ! (قال مستر بروكلى وهـو ينظر من النـافذة) يبدو لى أنكم توقعتم شيئا أفضل مما شـاهدتموه ، رغم أنـكم على علم بالسعر ، كما يبدو لى أنكم تحسون بشىء من خيبة الامل وعدم الرضاء عن العملية كلها .
ألقى نظره سريعة حوله ، ولمـا لم يعارضه أحد استطرد قائلا :
ـ فان كان الامر كذلك ، أود أن أنصحكم ألا تخالفوا بأى حال من الأحوال ذلك الهاتف الداخلى الذى يهيب بكم أن تعدلوا عن هـذه الصفقة . ان كنتم فى عجلة من أمركم ، فستجدون انه من الصعوبة بمكان الحصول على سفن فى هذه الآونة ، خاصة بهذا السـعر ،

لكنكم ، اذا كانت لديكم فسحة من الوقت للبحث والتمهل بضعة أشهر ، ستجدون بكل تأكيد شيئا أكثر ملاءمة لمطالبكم . ولحسن الحظ تستطيع شركة بروكلي وبروكلي ، بمصادفة مجدودة ، أن تبيع هذه السفن على الفور لمشترين آخرين . فكما قلت لمستر ايستمان بالامس ، تلقت شركتنا عرضا آخر أفضل من عرضكم ، ولن يؤسفنا ألبته أن نراكم تنسحبون من الصفقة . بل وقد نستطيع النظر فى امر تعويض صغير ندفعه لكم . الساعة الان الخامسة والنصف ، وفى السادسة والربع لدينا .. أنا وأخى اجتماع آخر . لهذا يحسن ،بل يجب ، أن نتوصل الى قرار سريع ، وحاسم .

وهنا قال مستر بايل بهدوء :

ــ السفن لا تساوى أكثر من مائتى جنيه على أقصى تقدير ، وهى بكل تأكيد ، ليست صالحة لركوب البحر .

نظر مستر بروكلي فى ساعته وقال :

ــ هأنتم تسمعون رأى مستشاركم . ولا سبب لدينا يدعونا الى مناقضته .ولن يخطر لنا ببال أن نرغمكم على شراء سفن لاتريدونها. فلسنا فى وضع يسمح لنا بتحمل أية مسئولية بشأنها .. وقد يكون من الافضل، من وجهة نظر خبيرة بمثل هذه الامور، أن تباع كخشب كسر وحديد خردة . وفى تلك الحالة يكون مبلغ المائتى جنيه الذى ذكره مستشاركم معقولا . وهكذا فانى لو كنت مكانكم ، أيها السادة، لما ضيعت وقتا فى أية مناقشات أخرى .

ثم غادر الغرفة مع أخيه .

فلم يكد الاثنان يخرجان حتى غمغم ايستمان قائلا :

ــ هذه هى السفن الوحيدة المتوفرة حاليا . لا يجب أن ننسى ذلك . ومع ذلك فانى كنت أحبذ الانسحاب من الصفقة عن طيب خاطر لو لم أكن واثقا من أن ذلك العرض الاخر لم يتقدم به أحد غير صديقنا كوكس . فقد بالغنا فى الصلابة معه . وها هو الان يحاول أن يتم الصفقة بشركاء آخرين . شركاء أكثر غباء .

وهكذا انفتحت أعين كثيرين فى تلك الغرفة فجأة على أشياء كانت خافية . وبعد خمس دقائق لا أكثر كانوا واقفين كلهم ، وأقلامهم فى أيديهم ، حول العقد .

فى طريق العودة قال ايستمان للمهندس :

ــ أنت مدرك طبعا أنى لا أفقه من هذه الامور كلها شيئا . ومن الصعب أن أتصور كيف يمكن أن يبحر أحد فى برميل عتيق كهذه

السفينة التى رأيناها . هذه الاخشاب النخرة ستتحلل بمجرد أن يمسها الماء · لكن هذا تفكير رجل الشارع غير المتخصص مثلى · فهناك طبعا تلك الاساليب الحديثة الرائعة . انهم يتوصلون الان باستمرار الى خلق شيء من لا شيء . أراهن ان هذه السفن ستمخر عباب الماء كأى سفينة جديدة بمجرد أن نجرى بعض اصلاحات طفيفة بها ونكسوها جيداً بطبقة من الطلاء · أى نعم · رجل الشارع غير المتخصص مثلى ليست لديه أدنى فكرة عن العجائب التى يمكن تحقيقها هذه الايام .

ولما لم يجب المهندس بشيء ، استطرد ايستمان قائلا بعد صمته قصير ، محدثا فى الواقع نفسه :

ـ أفظع شيء فى هذه الحياة المنافسة التى تتربص بالمرء فى كل لحظة . لا يكاد يتباطأ أو يتمنع عن صفقة ، مهما بلغت قذارتها ، حتى تمتد ألف يد لتخطفها منه . تخطف اللقمة من فمه . فيضطر المرء أن يرضى بأى شيء حتى لا يموت جوعا . فذلك الذى ينتابه الضعف أو التخاذل لحظة يقضى عليه قضاء مبرما · وذلك الذى ينشد ما تعارف الناس على تسميته بالاحترام يجب عليه أن يوطن النفس على الخوض فى الوحل الى عنقه . حقيقة ، لا يكاد المرء يفلت من الحضيض حتى تواجهه هموم لا تخطر لرجل الشارع الفقير الذى يظل فى الحضيض ببال .

كله من أجل البنت

اثار تخلف مستر كوكس عن المعاينة مخاوف مستر بيتشام . لم يجد الى النوم سبيلا ، وقضى ليلة ليلاء .

كان متورطا فى شراء ثلاث سفن عتيقة نخرة يعادل نصيبه فيها حوالى نصف سفينة ، وقد بات مصير النقود التى غامر بها متوقفا على مستر كوكس ، فهو وحده الذى يقرر ما اذا كانت تلك النقود ستضيع على صاحبها أم ستعود اليه مضاعفة · وهكذا فان مستر بيتشام أصبح فى قبضة مستر كوكس ، وهو موقف يعنى بالنسبة لبيتشام ما يعنيه الوقوع بين فكى أفعى ضخمة بالنسبة للأرنب . فالسؤال الحيوى هو : هل سيتمكن مستر كوكس من تصريف هذه السفن ؟ لماذا لم يحضر المعاينة ، أو ، على الاقل ، توقيع العقد ؟

لقد أخرجوه من الصفقة عنوة ، فلم يعد شريكا بل مجرد سمسار •

ضاق صدر مستر بيتشام فجافاه فراشه ، وهم واقفا وذهب يتجول فى أرجاء بيته ليتأكد من أن كل الانوار كانت مطفأة . لكن قلقه الداخلى العنيف هو الذى دفعه الى ذلك التجوال الليلى لا الحرص على اطفاء الانوار• لم يكن، فى تلك الآونة ،فى وضع يمكنه من احتمال أدنى خسارة . والاسوأ من ذلك أنه كان يعانى من خوف مرضى فى ذلك الخصوص . فخسارة أقل مبلغ من النقود كانت تفقده كل ثقة بالنفس . فهو رجل لم يكن يثق فى أحد ، ولذا لم يكن هناك مايجعله يثق بنفسه •

كانت كل الانوار مطفأة ، لكن نافذة بولى المفضية الى الشرفة كانت مفتوحة . استطاع أن يراها فى الظلمة ، راقدة على فراشها ، جذب النافذة من الخارج فأغلقها مغضبا .

قال لنفسه وهو يعود الى فراشه :

ـ لم أفعل كل هذا ؟ أفعل كل هذا من أجل هذه البنت . سأضطر الى طرد امرأتين أخريين من الورشة . سيتحلل هؤلاء الملاعين من فرط الكسل • ليس فى طاقتى أن أبقى على كل هؤلاء الناس وأدفع لهم أجورا . لا أحد يكف عن العمل ، أو عن التظاهر به ، سواء توافد الشحاذون أم انقطعت أرجلهم من الدكان • ماالذى يهمهم ؟ انهم لا يخاطرون بشىء . وبولى هى الاخرى ، تستطيع أن تقوم ببعض العمل . ماذا تظن نفسها ؟ كوكس هذا لا يمكن الوثوق به . لم يكن ينبغى لنا أن نستمع اليه ، على الاطلاق . انها حيلة قذرة أن يقترح على المرء صفقة كهذه ثم يتركه غارقا فيها حتى أذنيه ويهرب . بودى لو قطعت رقبته . لكن ما الفائدة ؟

ثم جلس فى فراشه فجأة وهو يتصبب عرقا :

ـ يالى من أحمق مأفون ! سينتهى أمرى بأن أصبح متسولا ! أى شىء جعلنى أتعامل مع رجل لا أستطيع أن ألوى عنقه ؟

فى صباح اليوم التالى ذهب بيتشام الى ايستمان ثم ذهب الاثنان معا الى مكتب كوكس فى حى المال والاعمال . راوغتهما التايبست شاحبة الوجه قليلا ، ثم قالت لهما بصفاقة أن كوكس قد غادر المدينة . فوق أن المكتب ، الذى لم يكن بيتشام قد رآه من قبل ، أحدث فى نفس الاخير تأثيرا سيئا للغاية . انقبض قلبه وهو يجيل عينيه فيما حوله ، وقد أدرك أن هذا مكتب نصاب !

قضى بيتشام بقية ذلك الصباح فى عذاب مقيم •

كان قد تورط فى هذه الصفقة أصلا لانه فهم أنهم سينصبون على الحكومة ، فجعله ذلك يثق فى الصفقة وفى القائمين بها ثقة عمياء . فالعمليات التى من هذا النوع تكون ــ عادة ــ مأمونة . فالنصب على الاخرين هو ــ بعد كل شىء ــ الهدف المشروع لكل رجل أعمال يدرك ما هو بسبيله . لولا ان الدنيا لا أمان لها ، فهى تباغت المرء دائما بما ليس فى الحسبان ، فيجد نفسه منصوبا عليه بدلا من أن ينصب هو على الاخرين . والحقيقة أن المرء يكاد ، فى ساعات اليأس، يؤمن بأنه لاحد لشرور الدنيا وأهلها . لكن بيتشام لم يكن فىحاجة الى اليأس ليؤمن بذلك. فتلك كانت عقيدته الراسخة ،بل الوحيدة.

لكن ايستمان جاء بعد الظهر فأعلن أن كل شىء على ما يرام . قال أن كوكس قد عاد شريكا من جديد ، أو بالاحرى ، أكد للجميع أنه لم يكن قد انسحب من الشركة فى أى وقت ، وأنه ذاهب ، فى أصيل ذلك اليوم ، لمعاينة السفن مع صديقه المسئول فى الامبرالية ، وعلى بقية الشركاء أن ينتظروا عودته فى مطعم معين .

معاينة السفن ! مصيبة أخرى ! بدا الرجال السبعة الذين جلسوا ينتظرون فى ذلك المطعم كما لو كانوا قد حكم عليهم بالابحار على ظهر « المتفائل » !

فى الخامسة والنصف دلف كوكس الى قاعة المطعم ، مرتديا ربطة عنق حمراء جديدة متوهجة الحمرة مجتهدا فى أن يبدو نصابا بكل معنى الكلمة ، فلما وقف امام مائدة الشركاء ، أخرج من جيبه ــ بحركة مسرحية للغاية ــ عقدا موقعا مختوما بخاتم الامبرالية ،ومعه شيك بمبلغ ٥٠٠٠ جك (خمسة آلاف جنيه استرلينى) قابلالدفع فورا لامر شركة النقل البحرى ، دفعة تحت الحساب .

قال ان سعادة الوزير لم يكن لديه وقت لمعاينة السفن . ثم أضاف بنبرة الواثق من نفسه غاية الثقة ، المستخف بكل تلك الشكليات :

ــ مثل هذه الاجراءات الشكلية ليس هناك مايدعـــو اليها بين الرجال الشرفاء . أوه ! كدت أنسى ! لقد أنفقت ألفى جنيـــه من أموالكم ، أعطيتها لمستر هيل . مساهمة منا فى صندوق اغاثة الأسر المنكوبة بالمصالح الحكومية . قال أن الفا واحدة تكفى ، لكنى وجدت أن الآلة التى يحسن تزييتها تعمل بطريقة أفضل .

كان مزاجه معتدلا للغاية . فقد ذهب الى ساوثمبتون ، ثانية ، فى ذلك اليوم، وحصل على حق أسبقية شراء السفن الراسية هناك. كان كل شىء يجرى على مايرام ، فى دقة الساعة . وقد عقد العزم

على تلقين السادة هؤلاء الشركاء فى شركة النقل البحرى درسا لاينسى. أسعده كثيرا أن يرى بعين الخيال تلك السفن الجيدة الراسية فى ساوثمبتون فاردة شراعها مبحرة الى عرض البحر ، تاركة الشركاء فى ورطة موحلة ، ومستر كوكس سابحا فى بحر من النقود .

لكنه لم يذكر شيئا من ذلك كله ، بطبيعة الحال ، للشركاء . ولم يذكر لهم شيئا ، على وجه الخصوص ، عن السفن الراسية فى ساوثمبتون . ظلت السفن الثلاث المحطمة المملوكة للشركة مدار حديثهم . قال أن الاجراءات التى اتفق عليها هى التالية : سيتم تسليم السفن رسميا الى الحكومة بأسرع ما يمكن ، أما أعمال الترميم وما اليها فيمكن البدء فيها بعد التسليم ، وعند اتمامها سيتم سداد باقى الثمن المتفق عليه مع الاميرالية .

فوافقوا كلهم عن طيب خاطر . لكن الرأى استقر طبعا على البدء فورا باجراء تجديدات أولية للسفن الثلاث قبل التسليم الابتدائى . فلم يكن هناك مهرب من اجراء بعض الترميمات وأعمال الطلاء وما الى ذلك حتى تبدو تلك التوابيت العائمة شبيهة بالسفن على الاقل .

وقد قال مستر كوكس ، جادا ، فى معرض الحديث عن ذلك :

ــ ولا يجب أن ننسى أن هذه السفن يجب أن تظل متماسكة طوال رحلة بحرية تبلغ عدة آلاف من الاميال .

وقد وكل الاشراف على ذلك الجانب من العملية الى ايستمان . سوف يكلفهم الامر بضع مئات من الجنيهات ، وربما بضعة آلاف . لكن ذلك شر لا مهرب منه . والحقيقة أنهم جميعا ، بعد ما عانوه من قلق واضطراب وتوجس فى الآونة الاخيرة، كانوا قدقروا عيناواطمأنوا على أموالهم الى الحد الذى جعلهم على استعداد لغض النظر عن شىء من الاسراف . حتى مستر بيتشام وافق على ذلك .

الى هنا كان كل شىء يسير على مايرام ، الى الحد الذى جعل بيتشام يدهش بحق عندما جاءه الشريك مربى الاغنام ، بعد بضعة أيام ، قائلا أنه لا يستطيع الاستمرار فى الصفقة ، لانه فى حاجة الى كل أمواله الحاضرة للوفاء بالتزاماته فى توريدات الجيش . وبعد مناقشات طويلة ، وافق بيتشام على شراء نصيبه فى الشركة ، بحيث أصبح الان يملك السبعين (٢/٧) . وقد اعتبر ذلك توفيقا مجدودا يحسد عليه .

لكن الانباء المزعجة ما لبثت أن جاءت من الاميرالية .

وقد جاء بتلك الانباء ايستمان الذى قابل كوكس صدفة فى أحد

المطاعم وتحدث معه . فالظاهر ان صعوبات معينة نشأت فجأة فيما يتعلق بالعقد المبرم مع الحكومة ، اذ أوعز بعضهم الى الوزير بأنه يحسن تشكيل لجنة فنية من المهندسين لمعاينة السفن . ورغم أن « الرجل » قاوم ذلك الاقتراح حتى الان ، الا أنه قرر أخيرا أنه يكون من الأسلم أن يتفقد السفن بنفسه ليطمئن قلبه على الاقل وبذلك بات الامر كله متوقفا الان على التوصل الى تأجيل تلك الزيارة حتى تكون الترميمات الاولية قد قطعت شوطا لا بأس به .

هذه الانباء المزعجة كانت السبب فى عودة بيتشـــام الى بيته فى الليلة السابقة لرحلة زوجته وابنته ــ التى لم يكن يعلم عنهمـا شيئا ــ مع تاجر الاخشاب ، وقد بدت عليه علامات الانهيار ، وذهابه الى الفراش فورا حيث أحاط نفسه بزجاجات الماء الساخن وشرب الشاى بالبابونج ثم قضى ليلة ليلاء .

وقد أعقب ذلك أسبوع محموم من المفاوضات تقطعت فيه أنفاس الشركاء . ومما زاد الامر صعوبة وتعقيدا أن مستر كوكس رفض أن يعطيهم عنوانا يجدونه فيه ، وكلما سألوه قال انه بسبيل الانتقال الى مسكن جديد .

وهكذا فان الشركاء جميعا قضـــوا تلك الايام السوداء رائحين غادين بين بيوتهم وأرصفة الميناء . لكن الترميمـات الاولية كانت تجرى ببطء شديد . وقد اكتشفت أشياء داخل السفينة المدعوة « بأنا الجميلة » جعلت شعر النجارين المشـــتغلين بترميمها يقف هولا . وكذلك « الولد البحار » ، كانوا كلما نزلوا بداخلهما ، ارتعدت فرائصهم . أما « المتفائل » فلم تكن الاصلاحات قد بدأت فيها بعد، لان المقاولين لم يصلوا الى قرار بشأن امكانية وضع الســلالم على جوانبها دون أن يعرضوا حياة عمالهم للخطر .

وبالاضافة الى كل هذا كانت هناك شائعات وأقاويل كثيرة تتداولها الالسن فى منطقة الميناء . فالنجارون كانوا يثرثرون باكتشافاتهم كلما جلسوا لتناول وجباتهم فى حانات الميناء . وعندما حاول ابستمان تكتم الامر بالتلويح أمامهم بأن التحدث فى هذه المسائل يعتبر خيانة وطنية ضحكوا فى وجهه . فأولئك الرجال جميعهم كانوا ممن نورتهم الاشتراكية ، فلم يعد من السهل الضحك على عقولهم .

غير هذه البلايا جميعها ، بات واضحا للشركاء أن تكاليف الترميمات الأولية لن تقل بحال عن خمسة أو ستة آلاف جنيه .

خلال ذلك الاسبوع الذى لاينسى ، قابل بيتشام مستر كوكس

عند ايستمان ، فدعاه بيتشام الى تناول العشاء فى بيته . فالامر كله بات متوقفا على كوكس ، اكثر من أى وقت مضى . وقد جاء كوكس بوجه ينطق بالثقة والطمأنينة . واثناء ذلك العشاء الذى حضره ايستمان ، التقى السمسار النصاب بالانسة بولى بيتشام لاول مرة . وقد كان الرجل زئر نساء من أسوأ الانواع طرا . ومما يفصح عن حقيقة خلقه أنه كان — فى الوقت ذاته — من أشد الناس استهجانا لمثل ذلك الضعف تجاه النساء عند الاخرين .

كان بيتشام قد اهتم بأمر السيد كوكس فى الآونة الاخيرة اهتماما خاصا ، وكرس له جزءا لا يستهان به من جهوده ووقته . وقد سمع ، نتيجة لذلك ، اقاويل عديدة ومتباينة عن فضائح نسائية مخجلة يتورط فيها مستر كوكس بصورة تكاد تكون مستمرة ، وتكاد تكون منحصرة فى صنف واحد بعينه من أحط اصناف النسوة ، وهى فضائح بلغ من فظاعتها أنه كان يفلت فيها من لفت أنظار البوليس ، فى كل مرة ، بصعوبة ، وفى اللحظة الاخيرة لسوء الحظ وقف مستر بيتشام على ذلك كله بعد فوات الاوان ، لانه لو كان قد عرف تلك الاشياء عن مستر كوكس ، لبات ذلك سببا آخر للاحجام عن أى تعامل معه . لا لان أخلاقيات مستر بيتشام كانت عالية . بل لان رجل الاعمال الذى لاينقطع لاعماله ، ويضع كل قلبه فيها ، يعرض نفسه دائما ، ويعرض من يتعاملون معه ، لمخاطر مالية جسيمة . لكن اجترار ذلك كله بعد أن وقعت الواقعة لم يكن يجدى أحدا شيئا . وبذا لم يعد أمام مستر بيتشام الا أن يجارى ذلك الفاجر كوكس ويتملقه .

تألقت بولى فى ذلك العشاء ، واستعرضت مفاتنها . تحدثت مع كوكس كسيدة صالونات خبيرة . بل وذهبت الى حد الجلوس الى البيانو ، بعد ان تناول السادة قهوتهم ، فغنت أغنية وطنية بصوتها الحلو المسرسع قليلا . وعندما انقضى العشاء لم يبد كوكس ميلا للعودة لبيته ، فاقتنع ايستمان ، بل وبيتشام أيضا ، بمصاحبته فى جولة عربدة ليلية بين الكباريهات ومواخير العاصمة . أمال قبعته القطنية الرمادية على عينه بزاوية حادة تنبىء عن « شقاوة » شديدة . لكن خديه الرماديين كانتا ترصعهما بقعتان متقدتان تنمان عن داء دفين ينهش صدره . وقد انقاد مستر بيتشام راغما ، فى سبيل نقوده ، فسار بجانب الرجل كما لو كان ذاهبا الى جنازة . كان يفضل لو ذهبوا ثلاثتهم الى رصيف

الميناء حيث كانت وردية ليلية من العمـــال تشتغل بترميم سفن الشركة ، بأجور مضاعفة .

تصرف كوكس فى النوادى الليلية التى دخلوها ـ كما توقـع بيتشام تماما ـ تصرف فاجر عربيد ، لا تصرف رجل أعمـــال عاقل . بل ودفع الحساب فى كل مرة .

وفى اليوم التالى فاجأ الشركاء بنبأ استلام مستر هيل ، المسئول الكبير بالاميرالية ، للسفن الثلاث ، رسميا ، بغير معاينة . ولكن برشوة اضافية ، من شركة النقل البحرى الى شخصه ، قدرها ثلاثة آلاف جنيه استرلينى (٣٠٠٠ جك)بالتمام والكمال .

(٣)

كيف يحيا الانسان بأزهاق أرواح اخوته البشر ·
بسحقهم ، واستعبادهم ، بالتهام كل من استطاع الى أكله سبيلا!
ففرصته الوحيدة للبقاء هى أن ينسى ،
نسيانا تاما وكاملا ، انه هو أيضا بشر ،
كلا يا سادة ! هذه الحقيقة لا نستطيع التعامى عنها :
الانسان يحيا بشىء واحد ولا شىء سواه : الاعيبه القذرة !

(نشيد من « أوبرا البنسات الثلاثة »)

دكاكين حرف « ب »

فى تلك الايام كان فى لندن عدد كبير من دكاكين متشابهة تباع البضائع فيها بسعر أقل من سعرها فى أى مكان آخـــر . وقد عرفت تلك السلسلة من المحلات بدكاكين حرف « ب » ، والمفروض أن ذلك الحرف الاخير يرمز الى عبارة « برخص التراب » ، ولو أن بعض الناس ، أكثرهم من أصحاب المحلات ، قالوا ان حرف « ب » اختصار لكلمة «بالوعة» ، كناية عن القاذورات التى تكتنف الامر كله . لكن سواء كان الامر كذلك أو لم يكن ، فان المرء كان يجد فى تلك الدكاكين كل شىء ، من شفرة الحلاقة الى الاثاث ، وفى معظم الامر كانت معاملات الدكاكين لا تشوبها شائبة · وقد أقبل الفقراء على تلك المحلات اقبالا متزايدا ، لرخص أسـعارها ، لكن صغار الصناع وأصحاب الدكاكين الاخرى كانوا يتميزون غضبا بسببها ··

كانت تلك الدكاكين مملوكة لمستر ماكهيث · وقد كانت للرجل، فى الحقيقة ، عدة اسماء · لكنه عرف ، بوصفه مالكا لدكاكين حرف « ب » ، باسم ماكهيث .

فى مبدأ الامر كانت هناك فروع قليلة ، فرعان أو ثلاثة فى الاحياء

المحيطة بجسر ووترلو ، ونصف دستة فى احيـــاء آخرى شرقى المدينة . وقد راجت أحوال تلك الفروع جميعا لانها كانت بالفعل رخيصة للغاية ، بحيث لاينافسها اى دكان آخر . لكن الحصول على سلع رخيصة الى ذلك الحد لم يكن أمرا سهلا فى كل الاحوال ، ولذلك فان المستر ماكهيث وجد لزاما عليه أن يؤسس منظمـــة شديدة التعقيد ، تعمل فى ظل ظروف خطرة وبالغة الصعوبة ، قبل أن يستطيع التفكير جديا فى التوسع .

والاهم من ذلك كله أن هذا النشاط المعقد برمته كان يجب أن يتم سرا ، فى خفية شديدة . فلم يكن أحد يعلم من أين يحصـل ماكهيث على بضائعه ،ولا كيف يحصل عليها بتلك الاثمان البخسة .

لكنه لم يهتم لذلك التساؤل المحتمل . فلقد كان بوسعه دائما أن يشبع فضول من يمعن فى اللجاجة بشأن المصادر التى يحصـل منها على بضائعه بالاشارة الى أن لندن وغيرها من الاماكن تحفل دائما بدكاكين صغيرة تفلس باستمرار ، وأن تلك الدكاكين التى تفلس تكون قد اشترت بضائع جيدة بالاسعار العادية ، لـــكن أصحابها يرحبون ـ بعد الافلاس ـ بتصفية تلك البضـائع بأى ثمن . ثم يضيف مستر ماكهيث بعد ذلك ، هذه الحكمة التى لا يمارى فيها أحد :

ـ الحياة صعبة كما تعلم ، ولا يجب أن نضعف أو نتخاذل .

فقد كان الرجل من هواة الاقوال الضخمة الرنانة . غـير أن المتعمق اللحوح كان حريا أن يكتشف أن مستر ماكهيث سيعجز ، فى معظم الاحيان ، عند تقديم أية ايصالات أو مســـتندات تثبت ملكيته المشروعة لتلك البضائع كلها التى يبيعها فى محلاته . فوق أن تلك المصادر العشـــوائية (كالدكاكين التى تفلس فيشترى بضائعها بأبخس الاثمان) لم تكن كافية بحال لتزويد محلاته بذلك السيل من البضائع المكدسة فيها بأثمان لاتعقل ، وهى ـ على أية حال ـ مصادر غير منتظمة ولا يمكن الارتكان اليها .

على غرار دكاكين حرف « ب » هذه ... كانت هناك عدة دكاكين أخرى متناثرة فى أحيـــاء لندن تبيع « الانتيكات » ، والتحف ، والمجوهرات ، والكتب النادرة ، بأثمان أكثر ارتفاعا من المألوف فى محلات مستر ماكهيث ، لكن تلك البضائع كانت جيدة ومنتقـــاة بالفعل ، وتستحق مايدفعه المشترون فيها . ولقد قيل أن تلك الدكاكين هى الاخرى كانت مملوكة للسيد ماكهيث ، وأنه يحقق

من ورائها أرباحا كبيرة يستخدمها فى تمويل دكاكين حرف « ب » .
لكن ذلك ايضا كان أمرا بعيد الاحتمال ، فوق انه ظل هناك تساؤل بغير جواب : كيف ومن أين يحصل ماكهيث على السلع التى يبيعها فى دكاكينه هذه ؟

وفى صيف عام ـ ١٩ وجد مستر ماكهيث نفسه متورطا فى مصاعب خطيرة ، مما اضطره الى التقدم لاحد البنوك ، وهو « بنك الائتمان الاهلى » ، طالبا مساعدته . وقد سر أصحاب الدكاكين الاخرى كثيرا لذلك ، وامتلأوا شماتة .

غير أن استعلامات البنك مالبثت أن أكدت سلامة المركز المالى لشركة ماكهيث . ولقد حبذ البنك كثيرا نظام العمل اللامركزى فى الشركة ، والذى يكاد كل دكان من دكاكين الشركة أن يكون مستقلا فى ظله استقلالا كاملا عن المنشأة الام ، الى الحد الذى يصعب معه اعتبار تلك الدكاكين مملوكة لماكهيث . ولقد أدرك هذا الاخير ، عندما بدأ مشروعه ، أن الاستقلال اعتبار غاية فى الاهمية بالنسبة للسواد الاعظم من صغار التجار ، وأن هؤلاء الناس ينفرون نفورا شديدا من الخضوع خضوعا كاملا لمشروع أكبر كما لو كانوا مستخدمين فيه ويصرون على أن يظل جل اعتمادهم على قدراتهم الخاصة ، رافضين بحزم شديد كل مساواة فارغة بينهم وبين الاخرين . فهم على أتم استعداد لان يعملوا أكثر مما يعمل الاخرون ، لكنهم يريدون أيضا أن يكسبوا أكثر . فوق أنهم لا يريدون أن يكون لاحد الحق فى اصدار الاوامر اليهم أو ازعاجهم بأى كلام فارغ لا وقت عندهم للانصات اليه .

والحقيقة أن مستر ماكهيث تحدث عن ذلك الاكتشاف الهام من جانبه لذلك النزوع نحو الاستقلال الفردى فى أكثر من حديث صحفى .

ولقد اسمى ذلك النزوع بالنزوع الموروث فى الطبيعة الانسانية ، لكنه عبر عن اعتقاده ـ فى الوقت ذاته ـ بأن الانسان الحديث بوجه خاص ، انسان العصر التكنولوجى ، الذى الهب حماسه انتصار البشرية الشامل ، الذى لم يسبق له مثيل ، على الطبيعة ، هو الانسان الذى يتضح لديه ، بأقوى صورة ، ذلك النزوع الى اثبات تفوقه الذى لايبارى ، أمام نفسه ، وأمام الاخرين . وقد اعتبر مستر ماكهيث ذلك الطموح مبررا بشكل مطلق ، على المستوى الاخلاقى ، لانه نافع لكل الناس بما يترتب عليه من منافسة قاطعة

للاسعار (١) . هـذه المعركة الكبرى المستمرة أبداً التى لم يكن يخوضها الا الكبار ، أصبح الرجل الصغير راغبا فى خوض غمارها. ولقد رأى مستر ماكهيث فى ذلك الميل من جانب « رجل الاعمال الصغير » علامة صحة ، واعتبر أن واجب دنيا الاعمال يقضى بتشجيع ذلك الميل ، مجاراة لظروف العصر ،وعملا على الافادةمنها. ولقد أعلن مستر ماكهيث فى أكثر من حديث صحفى له أننا لايجب ان نقف فى وجه الطبيعة الانسانية أو نعمل ضدها ، بل نجاريها ونعمل معها ! ولقد كانت محلات حرف « ب » ـ فيما يتعلق بتنظيمها ـ تطبيقا عمليا لذلك الاكتشاف ،فبدلا من المستخدمين والبائعين بالاجر كانت شركة ماكهيث تعتمد فى تصريف بضائعها على مجموعة كبيرة من التجار الفرديين الذين يتمتعون بالاستقلال الذاتى ، ولا يتقاضون أجورا ، بل يحققون أرباحا . هؤلاء التجار انتقتهم الشركة بعناية فائقة ، ثم هيأت لهم السبل لفتح دكاكينهم ، ثم زودتهم « باستوكات » من البضائع المختلفة ، ومنحتهم الإئتمان الكافى . وانتظمت الامور بينهم وبين الشركة بعد ذلك ، فاستقرت على استلام رسالة اسبوعية من البضائع المنوعة يتعين عليهم تصريفها مع مراعاة ان لهم مطلق الحرية فى التصرف فى تلك البضائع كيف شاءوا . فكل ما تطلبه الشركة منهم أن يسددوا ايجار الدكاكين بانتظام ، وأن يسددوا أثمان ما يحصلون عليه من بضائع ، وهم بعد ذلك أحرار فى دفاترهم ـ بشرط واحد فقط : أن تظل أسعار البضائع رخيصة ، فى مستوى أقل من السوق كثيرا . فالعمليةكلها قامت على خدمة « الرجل الصغير » ، تاجرا ومستهلكا على السواء .

وقد دبر أولئك التجار أمورهم بحيث استغنوا ـ فى معظم الحالات عن استخدام عمال أو موظفين يكلفونهم نفقات اضافية ، فاستعانوا بعائلاتهم . كنت ترى عائلة بأكملها تعمل فى الدكان من تلك الدكاكين، صغارا وكبارا ، وكان ذلك فى الواقع نظاما عمليا للغاية ، اذ اختفت بذلك المشاحنات المألوفة حول ساعات العمل والاجور وما الى ذلك، كما لم يعد هناك مجال أيضا لما يبديه المستخدمون عادة من عدم

---

(١) من الواضح أن برخت يسخر هنا من المذهب « النفعى » فى الاخلاق وهو الذى انبنى عليه فكر الاقتصاد الحر « Laissez-faire » القائم على المنافسة ، والذى يعتبر التطاحن الحر المطلق من القيود خير للجميع . من حيث انه تجسيد ـ على المستوى الاجتماعى الاقتصادى ـ لمقولةالبقاء للاصلح . وبرخت عندما يشير هنا ساخرا الى المنافسة القاطعة للاسعار انما يوحى « بالمنافسة القاطعة للرقاب » «Cut-Throat Competition» !

اكترات تجاه ايرادات مخدوميهم : فقد كان كل من يعمل فى الدكان من أفراد الاسرة صاحب عمل .

ولقد كتب مستر ماكهيث فى مقال صحفى له معلقا على ذلك :

« وبهذه الطريقة توقف تماما نمو ذلك التحلل الوبيل للحياةالعائلية الذى يأسى له كل من يهتم بخير الجنس البشرى . فالعائلة بأكملها تشترك فى العمل . وبالنظر الى أن تلك الاسرة يصبح لها فى ذلكالعمل هدف مشترك ومصلحة واحدة فانها تصبح - من جديد - يداواحدة وقلبا واحدا . فالفصل بين العمل والحياة الخاصة يمكن أن تكون له عواقب وخيمة للغاية ، من وجوه عديدة ، تجعل الافراد ينسون الاسرة فى غمرة انشغالهم بعملهم ، وينسون العمل فىغمرةانشغالهم بأسرهم . والواقع أن دكاكين حرف « ب » قدوة طيبة فى ذلك المجال أيضا ، قدوة تبين مايمكن للمرء تحقيقه متى صدقت نيته فى خدمة المجتمع . »

كان من السهل على مستر ماكهيث أن يقنع البنك بأن مصاعبه لم تكن مصاعب على الاطلاق ، وأن النقود التى يحتاجها سوف توجه الى التوسع . ومع ذلك تردد البنك فى عقد القرض ، لان البنك لم يكن مطمئنا الى مستر ماكهيث ذاته .

والحقيقة أن عددا من الشائعات غير السائغة كان ذائعا حول الرجل فى حى المال والاعمال .وبالرغم من أن تلك الشائعاتلم ترق أبدا الى مستوى الاتهام الصريح المباشر ، الا أنه كان من المتعين أخذها فى الحسبان . ولم تكن الاقاويل والتخرصات منصبة بوجه خاص على وسائله فى الشراء والمصادر التى يحصل منها علىبضائعه ، لكن تلك المسائل لم تكن - فى الوقت ذاته - مغفلة تماما .

قيل أنه تورط مرة أو مرتين فى فضائح معينة . لكن قيل أيضا أنه تمكن - فى كل مرة - من اثبات براءته على الفور . ولم يصل الامر فى أى مرة الى مرحلة الاجراءات القضائية . ومع ذلك فقد وجد دائما أناس عديدون ، لا هم من أصحاب الدكاكين ولا صلة لهم بأصحاب الدكاكين ، عبروا عن ايمانهم القاطع - وان لم يفعلوا ذلك علنا - بأن ماكهيث هذا لم يكن من أفاضل الناس.وقد وجد أيضامن تمنى لو استطاع أن يجر ماكهيث الى ساحات المحاكم ، مفضلا ذلك على التصالح معه ، ولكن وجد ايضا من آثر السلامة وقال : لا قبل لاحد بالمحامين الذين يستخدمهم ماكهيث .

تلكأت المفاوضات مع « بنك الائتمان الاهلى » بشكل لم يتوقعه

ماكهيث اصلا . وقد بدأ - نتيجة لذلك - يحس بالندم لاتصاله بالبنك ، لان هذا التسويف في منحه القرض المطلوب حرى بأن يثير الاقاويل القديمة ضده ، ويشعل جذوتها من جديد . ولو أتيحت له أقل بادرة لانتهزها وانسحب لفوره ، صارفا النظر عن مسألة القرض من أساسها .

كان - لاكثر من سبب - يستخدم أكثر من محام . وقد علم من أحد أولئك المحامين أن شخصا يدعى جوناتان أرميا بيتشام (وهو من أشد عملاء « بنك الائتمان الاهلى » نفوذا) لديه ابنة غير متزوجة. وسرعان ما توصل ماكهيث الى التعرف بتلك الابنة . ولم يكد يجد ترحيبا من الام حتى كرس نفسه تماما للفوز بالفتاة ، بصرف النظر عما قد يكلفه ذلك من وقت وجهد . والسبب الوحيد فى أنه قدم نفسه الى بولى وأمها باسم جيمى بيكيت ،كان حذره الطبيعي لاأكثر.

وبعدها جعل أعمال مستر بيتشام شغله الشاغل. وسرعان ما تبين له أن الرجل يدير منظمة ضخمة من الشحاذين . وقد بدت له الوسائل المتبعة بارعة بحق ، سواء فى ابتكارها أو فى وضعها موضع التنفيذ . كحكاية الشحاذين الذين يمثلون دور « المصور الفقير » مثلا . وقد أوضح له أحد أصدقائه ممن يعرفون بيتشام الفكرة التى قامت عليها، فقال ان الشحاذين لايحملون لوحاتهم معهم مرسومة جاهزة ويعرضونها فى الطرقات ليشحذوا عليها ، بل يرسمون مناظر طبيعية وصورا للمشاهدين على أرصفة الشوارع بالطباشير الملون لاسباب سيكولوجية . فهم اذا أقاموا معارضهم المتنقلة على الارصفة بلوحات مرسومة جاهزة سيوقعون الجمهور فى لبس وحيرة ،لان الجمهور لن يكون لديه اذ ذاك سبيل للتيقن من أن ذلك الشحاذ الذى يتسول هو الفنان الذى رسم اللوحات ، أما فى حالة الرسم على الرصيف بالطباشير فالامر يختلف . فوق أن تلك اللوحات الاخيرة موقوتة ، من حيث أن أقدام السابلة تمحوها ، والمطر يزيل كل أثر لها ، وهى تكاد تمطر فى لندن كل يوم ! وهكذا فان الصور يجب أن ترسم من جديد كل يوم ، وبذلك فان المحسن يجب أن يحسن الى راسمها فى اليوم ذاته . وكلها ألاعيب ، على أية حال ، تنبىء عن معرفة عميقة بالطبيعة الانسانية .

فى منتصف يونيو قرر ماكهيث أن يتغاضى عن عدة شكوك جانبية متباينة ظلت تراوده ، ويسير فى الخطبة قدما ، مدركا أنه يجب أن يعالج أمر هذه الزيجة بطريقة تحوطها هالة من الاحترام الكامل ،

مما يطمئن الاسرة الى أن ابنتهم فى طريقها الى حياة عائلية راسخة لا تشوبها شائبة .
فأرسل خطابا الى مسز بيتشام يستفسر منها عن الموعد الذى يمكن أن يزورها فيه ، فقد فسر اضـــطرابها يوم زيارته الاولى على وجهه الصحيح ، وأدرك انها لم تكن قد ذكرت لزوجها أى شيء عنه .
جاءه الرد بموعد ضربته له فى حانة « الاخطبوط » ، حتى يمكنهما التحدث على راحتهما ، فيتمكنان من مناقشـــة الامــــر على مختلف وجوهه ، والوصول الى رأى حاسم فيه . وعنـــدما قابلته أثارت أعصابه بحديثها عن فساد الشـــباب هذه الايام . ثم قالت وهى تمسح زبد البيرة الابيض من شفتيها :
ـ لكن بعض شباب هذه الايام لايعرفون ماذا يريدون . انهـــم كالاطفال . خذ ابنتى بولى مثلا . أنا أعرفها كما أعرف راحة يدى . لكننى ، مع ذلك ، لا أستطيع أن أجزم الى أى جانب يميل قلبها . ولعل كل مافى الامر أنها مازالت صغيرة . لا خبرة لها بالرجال بعد . نعم قد تعرف الفرق بين كلب ذكر وكلبة أنثى . لكننى لاأظن أنها تعرف حتى ذلك معرفة دقيقة . فهى لاتعرف هـــذه الاشياء . ولا تفكر فيها . أنت تعرف ما أعنى . ولعلك لاتعرف أنها لم تأخذ فى حياتها حماما واحدا وهى عارية . فنحن نجعلها ترتدى قميصا كلمـــا استحمت ، حتى لا ترى جسدها . وفتاة بريئة هذا شأنها عندما ترى رجلا أمامها لايخطر لها ببال فيم يمكن أن يستخدم ذلك الرجل . فوق أن البنات فى مثل سنها يكن رومانتيكيات للغاية ! أنت لاتتصور كيف تلتهم هذه البنت الروايات التهاما . لن تصدق اذا قلت لك . وهى لاتكف طيلة الوقت عن الحديث عن ذلك الولد . مستر سمايلز فعل هذا ، مستر سمايلز قال ذلك . وهو ما يجعلنى موقنة من أنها لا تريد أحدا سواك . قلب الام يامستر بيكيت . قلب الام !
قالت ذلك وهى تحملق فى عينيه بعد أن تأكدت من أنها قدشربت كل مافى كأسها ، ومن أن أحدا سواهما لم يكن فى الحديقة .
وعندما صارحها مستر بيكيت ، فى اللحظة الدرامية الملائمة ، أنه ليس بيكيت ، بل ماكهيث ، صاحب دكاكين حرف « ب » المشهور ، وأن نواياه تجاه ابنتها شريفة تماما ، لم يبد عليها أدنى تأثر ، أو دهشة ، كما لو كانت قررت فيما بينها وبين نفسها أنه رجل يتوقع منه المرء أى شيء ، فأجابته على مصارحته بنظرة خاوية أوشكت أن تكون مراوغة ، ثم تنهدت قائلة :

ـ كذا ؟ طيب . لكن زوجي لايجب أن يعرف شيئا عن كل هذا . فلديه مشروعات اخرى بالنسبة لمستقبل الفتــاة . أنت تقدر ذلك طبعا . انه اب متفان . دائما يقول كله من أجل البنت ، كله من أجل البنت ، وهو يعني مايقول حقا . وقد صحب معه الى البيت ، يوم أول أمس ، دون سابق انذار ، سيدا يدعى مستر كوكس . يقال انه ثرى للغاية . أنت تعرف مستر كوكس ؟

طبعا يعرف مســـتر كوكس . ومنذا الذى لا يعرفه ؟ أســـمه كالطبل فى حى المال والاعمال .

وهو ، شخصيا ، لم يسمع شـــيئا يسر عن مســـتر كوكس هذا . فوق أن الرجل زئر نساء لاخلاق له . كذا ؟ نعم كذا .

(فبصرف النظر عن أية اعتبارات مادية لدى ماكهيث الذى كان رأسه محشوا فى تلك الآونة بمشكلات ومتاعب متعلقة بأعماله ،كان مجرد سماعه لاسم كوكس فى أمر يتعلق ببولى أشــبه بطعنة نفذت الى قلبه . اكتشف أنه متيم بالفتــاة بدرجة تفوق كل ما صارح به نفسه .)

سأل الام بصوت مبحوح من فرط انفعال :

ـ وما الذى يمكن عمله بذلك الشأن ؟

قالت مسز بيتشام وهى تنظر اليه ساهمة :

ـ هذا هو ما أود أن أعرفه .

ثم انقلبت نظرتها المهمومة الى نظرة مثلوجة وهى تحــدجه طولا وعرضا كأنما تزنه حتى سرت قشعريرة فى جسده . قالت له :

ـ بنات هذه الأيام لا يمكن التكهن بمــا قد يفعلنه . فرءوسهن محشوة بالافكار الرومانتيكية .

لكنها ما لبثت أن وضعت يدها الصغيرة البضة على يده ونادت على النادل ليأخذ الحساب .

وبينما هو يصحبها خارجا عبر الممر القصير بين الموائد الحديدية كررت قولها الاول من أن كل شىء يجب أن يتم بمنتهى الحذر ، وبغير علم بيتشام . وفى نفس الامســية قابل الخـــوخة ذاتها ، فتعطفت وسمحت له أن يوصلها .

والغريب أنها سارت من شارع أولد أوك فى اتجاه الحديقة العامة بالرغم من أن تلك كانت من أمسيات دروس التدبير المنزلى . وأخذت تنظر وراءها وحولها عدة مرات أثناء الطريق ، كأنها تبحث عن أحد، لكنها لم تحاول أن تتخلص منه ، وأخيرا جلست على دكة بين الاشجار .

بدت له رائعة الحسن فى ثوبها الهفهاف ، ولم يلحظ عليها أدنى اضطراب أو توتر . أخذ يملأ عينيه من جمالها . لم تكن من ذلك الصنف من الفتيات الذى يبدو كالدمى الخشبية . كانت فتاة ناضجة، مكتملة الانوثة ، وجبة دسمة كاملة لا مجرد « تصبيرة » عابرة .

لم نبد أى استعداد للخوض فى حديث عن كوكس وسمايلز . قالت له :

ــ الامسية أجمل من أن نضيعها فى مثل هذا الحديث .

وقد أضحكها كثيرا أنه على علم بأمـــر كوكس وأن علمه بالامر أزعجه .

عندما عـــادا أدراجهما لم يكن قد وقف على أى شىء منها ، لكن أشياء عديدة كانت قد حدثت . لم تصده تماما . لكنه لم يكن سعيدا لانها ــ عندما قارب الوصول الى لب الموضوع ــ صمدت له بعنـاد لا يحيد فلم تدع يده تصل الى غايتها . وقد أثار حنقه أيضا أنه وجدها لاترتدى شيئا على الاطلاق تحت فستانها . وقد بدا ذلك أمرا مؤسفا للغاية فى عينى مستر ماكهيث ، تماما كما أحزنه أنها هربت بذلك الاستخفاف من درس التدبير المنزلى الذى خرجت من بيت أهلها بحجة حضوره . فقد تبين من ذلك أن تلك المدرسة الليلية لم تكن تراقب حضور طالباتها بدقة ، وأن بولى تستطيع أن تهرب وقتما شاءت !

والحقيقة أنه عاد من ذلك اللقاء الذى لم يكن فى الحسبان بذات الشعور المغيظ المحبط الذى عاد به من رحلته الاولى مع خوخة وأمها، وهو لا يدرى ان كان ــ بما حدث بينه وبينها فى الحديقة ــ قد حقق تقدما أم أصيب بنكسة . وقد أمضه ذلك الشعور المزعزع . لكن هذا الذى حدث بينهما ، لابد أنه يعنى شيئا بالنسبة اليها . فوق أنه كسب ــ بالحقيقة ــ شيئا له أهميته : لم يعد بوسعه أن يتشكك فى طهارتها . فقد دافعت ــ رغم كل شىء ــ عن حصنها .

لم يكن مستر ماكهيث هو الوحيد الذى أخذ يرمق بولى بنظرات فاحصة متفكرة فى تلك الليلة . فمستر بيتشام هو الاخر ، عنـدما رآها تدخل عائدة من درس التدبير المنزلى ، نظرها بامعان ، متفكرا .

لكنه لم يكن فى حال تسمح له بالدخول فى مناقشات عائلية . فأحوال شركة النقل البحرى كانت قد تدهورت من سيىء الى أسوأ حتى صارت كالقطران . فى اليوم السابق فقط انفجرت قنبلة فوق رءوسهم .

القنبلة

كان بيتشام قد عاد لتوه من الفناء بعد أن عنف فيوكومبى واعطاه على رأسه . فذلك العسكرى مقطوع الساق ـ وقد أسعده أن يكون له بيت يلمه ، ويكفيه مئونة التسول ـ كان قد أكب على عمله فى بداية الامر باخلاص ، متبعا التعليمات التى أعطيت له ، فيما يخص تجويع الكلاب ، بكل دقة .

واطعام تلك الكلاب لم يكن أمرا هينا على الاطلاق ، فهى يجب أن تبدو لناظرها جرباء جائعه ، ولذلك فانها ، وان كانت تأكل ـ لئلا تموت ـ يجب أن تظل على حافة المجاعة بصورة مستمرة . فأى ضرير ذلك الذى يستطيع أن يشحذ شحاذة مجزية ومعه كلب مكتنز منتفخ الاوداج من كثرة مايأكل ؟ لن يعطى ذلك الكلب للضرير فرصة لاستدرار الشفقة كما يجب . فالجمهور ، بطبيعة الحال ، يفكــر فى الامــر بالغريزة . فالكلب الاعجف لايكاد يسترعى انتباه أحد ، لكن اذا حدث وكان الكلب سمينا بعض الشيء فان صوتا داخليا قد يوسوس فى أذن المحسن بأن ذلك الشحاذ ينصب عليه وأنه اذا أحسن اليه فكأنه يلقى نقوده فى بالوعة . فمن الثابت فعلا أن أولئك الناس جميعا يبحشــون بطريقة غير واعية عن سبب يبرر لهم الضن بنقودهم . وهكذا فان كلب الشحاذة الجيد يجب أن يكون كلبا جائعا نحيلا لايكاد يقوى على الوقوف من فرط الهزال .

وبالنظر الى ذلك كله ، كانت الكلاب توزن باستمرار ، فاذا زاد وزنها ، بات فيوكومبى محل مؤاخذة شديدة .

وقد ثارت شكوك بيتشام هذه المرة ، فبدأ تحقيقا غايته الوقوف على صحة القيود الخاصة بأوزان الكلاب التى كان فيوكومبى ملزما بكتابتها فى دفتر صغير أعطى له . ولقد راود بيتشام شك فى أن الرجل الاعرج بدأ يتعاطف مع الكلاب ، وذهب فى ذلك الى حد تزوير القيود فى دفتره لكيلا يطرد من عمله . وعندما هم بأن يضيق عليه الخنــاق دلف الشريك صاحب المطعم الى الدكان فسارع بيتشام الى لقائه . فاجأه الرجل بأن كوكس ظهر على سطح « أنا الجميلة » بغتة وأنه أقام الدنيا وأقعــدها ، وأنه مازال هنــاك ، فى حالة عارمة من الغضب والهياج .

سارع الرجلان بالذهاب الى الميناء فورا . وهناك وجدا كوكس بالفعل ، بين السلالم وعمال الطلاء وبجانبه ايستمان ، مهيض الجناح

ممتقع الوجه ، محدقا فى جوانب السفينة الضخمة الداكنة بنظرة مخمورة لا تحيد ، وقد بدا واضحا أنه لم يستطع ان ينظر فى وجهى القادمين الجديدين .

احس بيتشام بالصقيع يسرى فى أوصاله للنظرة المثلوجة التى حياه بها كوكس . قال السمسار بلهجة لاتقل برودا عن نظرته .

ــ هل أحلم ، أم ان هذه السفينة هي احدى السفن الثلاث التى باعتها شركتكم الى الحكومة البريطانية ؟

بدا على بيتشام أنه قد شاخ فجأة فنيف على التسعين .

رغم أن الصدمة لم تكن غير متوقعة تماما . فلقد أحس من بداية الامر ، بطريقة ما ، ان هذه العملية كلها فيها شيء ليس على مايرام. فوق أنه ، فيما يخص كوكس ، كان يتوقع الاسوأ باستمرار .لكنه لم يكن يتوقع شيئا مباغتا وغادرا بهذا الشكل .

دمغ كوكس السفينة بأنها غير صالحة للاستعمال .فاحس بيتشام بأنه لا جدوى من الدخول فى نقاش على ذلك الرصيف بمسمع من انعمال ، أو القول بأن مستر كوكس لاينبغى أن يتظاهر بهذا الغضب الوطنى كله لانه هو الذى استدرج الشركة الى شراء هذه السفن . فلم يكن بيتشام فى حاجة الى الدخول فى أية مناقشات ليدرك أن كوكس سيعلن بمنتهى البســـاطة انه لم يكن قد رأى السفن ــ حتى تلك اللحظة ــ بنفسه، بينما كافة الشركاء قد عاينوها بأنفسهم، وبمحضر من شهود ايضا !

فى صدر بيتشام الذى ضاق بالحياة فجأة تململت شبهة سوداء قوية حول الاتجاه الذى يسير فيه نشاط كوكس (وكان قد خمن، من مبدأ الامر ، أن كوكس يعمل مستقلا ، لحسابه الشخصى) . ولقد أيقن الان أن كوكس لم يوجه نشاطه ضد الحكومة البريطانية ، بل وجه ذلك النشاط كله ، « كوابور زلط » ضخم ، مخيف ،لايقف فى طريقه شيء ، ضد شركة النقل البحرى ولا شيء سواها !

تلك كانت الصورة العامة التى اتضح هيكلها الخارجى لبيتشام ، وان لم تتضح بطبيعة الحال ، تفاصيلها الدقيقة بعد . فلم يكن مستر كوكس قد قرر أن الوقت حان ليضع أوراقه على المنضدة . وقفوا وقد خرسوا كلهم ، فلم ينطق أحد .

وفجأة دار مستر كوكس على عقبيه ، وبنظرة ازدراء لا توصـــف بصقها على الشركاء بصقا، أولاهم ظهره ومضى، دون أن ينبس ببنت شفة. وقفوا يحملقون فى ظهره المتخشب ازدراء لهم ، وقد بدت بذلته من

الوراء جاهزة ورخيصة اكثر من أى وقت مضى . ولم تكن لدى بيتشام هو الاخر ، كلمات تقال . لم تكن لديه أدنى رغبة فى الدخول فى نقاش مع زملائه من الضحايا عما يحتمل أن يحدث لهم بعد ذلك . سمع ايستمان يقول ، وكأن صوته يأتى من بعيد ، انهم يجب أن يكتبوا الى مدير المصنع فورا ليحضر من لانكشاير ، والى مربى الاغنام أيضا . ها !مربى الاغنام ! مربى الاغنام نجا بجلده . بيتشام الحمار اشترى نصيبه ! أستدار بيتشام فذهب دون أن ينبس ببنت شفة .

أصيب فى تلك الليلة بحمى مرتفعة وآوى الى الفراش وفوق رأسه طاقية ثلج. لكنه لم يبرح فراشه اثناء الليل .فلتظل الانوار مضاءة! منذا الذى سيدفع فاتورة الغاز بعد اليوم !

فى صباح اليوم التالى ذهب مترنحا الى رصيف الميناء . لم يجد عمالا هناك . كانت أعمال الترميم والطلاء قد أوقفـــت على « أنا الجميلة » بناء على تعليمات ايستمان . وقد أوضحت تلك التعليمات حقيقة تقديره للموقف .

وعندما عاد الى البيت ظهرا ، فقيـــــل له أن ســــــيدين كانا يسألان عنه ، تصور أن البوليس قد جد فى أعقابه . فالشركة قد قبلت الدفعة الاولى من الحكومة ، وبذلك أصبحت جريمة النصب ، وربما الخيانة ، كاملة الاركان .

لكن الاستجواب الدقيق لاهل بيته كشف عن أن زائريه كانا ايستمان ومدير المصنع الذى جاء الى لندن على عجل . وقد شعر بيتشـــام بالارتياح لانهما لم يعثرا عليه .

لم تكن هناك جدوى من الذهاب الى مكتب كوكس ، فالفتاة الرخوة الشاحبة الجالسة فيه كانت تصاب ببكم الاسماك كلما سئلت عن عنوان مخدومها .

لكنه عندما عاد الى بيته بعد محاولة فاشلة للعثور على ايستمان ، وجد كوكس بالبيت ، فى صحبة ابنته .

قيل له أن مستر كوكس قابل بولى صدفة فى طريق عودتها الى البيت ، فصحبها ، رغم أنه لم يلق منها تشجيعا خاصا . وعندما دخل بيتشام كان كوكس يحدث الفتاة بحماس عن صـــــور مثيرة للاهتمام يريد أن يفرجها عليها . لكن خوخة لم تفهم قصده . لم تكن الفتاة تميل اليه .

عندما دخل بيتشام تصرف كوكس كأنما لم يقع بينهمـــا أدنى خلاف . مد يده ، دون أن يخلع قفازه ، فشد على يد ضـــحيته

بحرارة ، وضربه على كتفه مظهرا عظيم وده ، ثم انصرف مسرعا .
طوال وجبة العشاء كان منشار دائرى يئز داخل جمجمةبيتشام. فلما انتهى الطعام صرف زوجته . وأخذ يستجوب الخوخة .
لم يستخدم الارغام ، ولم يكن بحاجة الى ذلك . فقد أفضت اليه الفتاة بكل ماتعرف . وسرعان ماتبين بيتشام أن كوكس قد أفضى الى بولى بما أخفاه عن شركائه ، فأوقفها على عنوانه . وقد عنى الرجل بألا يسأل البنت عن السبب فى ذلك . ثم تركهافذهب الى غرفه مكتبه الصغيرة الضيفه ، وأخذ يحدق بشرود ذهن من النافذة . وبعد ذلك جلس الى مكتبه ، فكتب خطابا بسرعة فائقة ، وعاد به ، مغلقا ، الى غرفة الجلوس حيث ترك ابنته . وكم كانت دهشة الفتاة عظيمة عندما طلب اليها أن تأخذ الخطاب ، بنفسها ، فورا ، الى منزل المستر كوكس . كانت الساعة قد تخطت التاسعة والنصف . لكن خوخة ارتدت قبعتها فى صمت ، وذهبت الى بيت مستر كوكس .
وجدته بالبيت . وعندما أعلنت الخادم أن فتاة فى مقتبل العمر تقف بالباب ومعها خطاب من أبيها يتطلب ردا ، وضع كوكس فوطة الطعام من يده محرجا ، وخرج من الغرفة بسرعة .
كان يعيش مع أخته ، وهى سيدة ضئيلة الحجم دكتاتوريةالطبع لم يكن رأيها فى أخيها طيبا بالدرجة التى كان يتمناها ذلك الاخ ، بل ولم تكن تخفى شكوكها القوية فى انحطاط خلقه .
والاخت معذورة . فقد اضطرت باستمرار الى تحمل الكثير من تحت رأس ذلك الاخ العربيد .
كان كوكس يتمتع بقدرات تجارية عظيمة ، فوق ان مبادئه ، فيما يخص نظافة حياته الخاصة ، كانت المبادىء السائدة فى بيئته الاجتماعية . فقد كان من رأيه (الذى يشاركه فيه كثيرون) أن هناك فرقا شاسعا بين حياة الاعمال ، والحياة الخاصة . ففى دنيا الاعمال يتعين على المرء أن يسخر كل فرصة من فرص الربح تسنح له فى خدمة مصالحه ، بصرف النظر تماما عن الاخرين وعما قد يلحق بهم من جراء ذلك . تماما كما يجب على المرء الا يلقى بلقمة من العيش أرضا لانها من نعم الله وحرام أن تلقى هكذا . أما فى الحياة الخاصة ، فليس للمرء أدنى حق فى استغلال الاخرين . الى هذا الحد وكانت آراؤه سليمة تماما .
لكن المصيبة أنه لم يكن يتمتع بالقوة التى تمكنه من العيش تبعا

لمبادئه . لم يكن هناك أدنى فرق مثلا بين تصوره لما يجب أن يلتزمه السيد المهذب تجاه الجنس اللطيف وبين تصورات أخته فى ذلك المجـال . لكن ذلك كان على المسـتوى النظرى فقط . فما أكثر زلاته . ومع ذلك فانه كان أول من يدين تلك الزلات المؤسفة العديدة بنفس القدر الذى تدينها به أخته ، وبنفس الالفاظ تقريبـا . وكم من مرة قال آسفا « أنا لست قادرا على التحكم فى نفسى » .

والمصيبة أن ميـوله ، على المسـتوى الاجتمـاعى ، كانت واطئة للغاية . فأشد النسوة انحطاطا وابتذالا كن يجتذبنه كما لا تجتذبه المرأة المحصنة المهذبة . كما أنه لم يكن مستطيعا أن يقاوم سحر الخادمات ومن على شاكلتهن .

نفس السوأة كانت ملحوظة فى ثيابه أيضا . فذوقه فى انتقاءالثياب كان فظيعا . كانت بذلاته الجاهزة بالوانها الغامقة تصيب أخته بغثيان حقيقى . لكنه لم يكن قادرا على التحكم فى نفسـه فى ذلك المجال أيضا .

لم تكن أخته تدع فرصة تمر دون أن تهديه عـددا من ربطات العنق ذات الذوق السليم . فكان يرتديها ، تلك الكرافتـات ذات الالوان الهادئة ، ارضاء لاخته ، لكنه قبل أن يخرج لا يستطيع أن يكف نفسه ، وكأن شيطانا يتقمصه ، على أن يدس فى جيبه خلسة ، ربطة عنق من الصنف الذى يروق له ، فلا يكاد يخرج من البـاب ويغلقه وراءه ، حتى يقف على الدرج فيخلع ربطة العنق المهذبة كمـا لو كانت حبل مشنقة قد التف حول عنقه ، ويتنهد بارتياح وتلك الربطة الاخرى تتدلى على صدره حمراء ، زرية ، فاقعة .

كل هذه أعراض مرضية مافى ذلك شك . وقـد ارجعها هـو الى الاضطرابات المعوية وشخصها بأنها نوبات من الشهوانية التى لا ضابط لها تنجم عن الامساك المزمن .

ساعدته أخته بكل قواها فى نضاله المأساوى ضد شهواته . لكنه كثيرا ماكان ينسى نفسه . فيندمجفى نوبةمن نوبات الانحطاط العديدة التى ينغمس فيها ، ويضيق بمساعدتها التى يعتبرها تدخلا ثقيلا فى أخص شئونه ، ويرفضها بمنتهى الفظاظة .

ولذلك لم تستطع مس كوكس ـ عندما أعلنت الخادم مجىء مس بيتشام ـ أن تفعل شـيئا أكثر من أن ترابـط خارج الغرفـة التى استقبل فيها أخوها زائرته . فتأخذ فى الغـدو والرواح ، والحمحمة والسعال بأعلى صوت مستطاع .

ولسوء الحظ كان كوكس ، فى تلك الليلة ، فى قبضة أزمة من اسوأ أزماته المعنة فى الانحطاط • كان قد قاسى الامرين طوال النهار من محاولة كبح جماح نفسه • وهكذا فانه ، عندما جاءته الفتاة كأنما بعث بها الشيطان اليه عمدا ، لم يجد مهربا من الاستسلام لما ظل يلح عليه من سفالة طبع ، فقرر ان يفـــرج الخوخة ــ وأمره الى الله ــ على مجموعة صوره • وكلها صور فاحشة فيها أناس عرايا ، فى مختلف أوضاع العرى . وقد فعل ذلك بحجة أن تلك الصور كانت قد وصلته لتوها وأنه يريد أن يشاهدها معها .

لم تكد الخوخة تنظر الى تلك الصور حتى اتقدت وجنتاها خجلا.

كانت مجموعة مستر كوكس ، بالحقيقة ، قذرة للغاية •

وفى أثناء ذلك أخذ كوكس يقرأ خطاب بيتشام الذى يرجو فيه الحصول على موعد قريب للقاء خاص مع السيد المبجل .

على منضدة الكتابة، ذات السطح الزجاجى، كان بروش ذهبى كبير الحجم ورثه كوكس عن المرحومة أمه ، فيه كثير من الذهب ، لـكن اهميته ، بالنسبة لمن اشتراه ، كانت كامنة ، فيما يبدو ، فى ثلاثة فصوص زرقاء كبيرة تكاد تكون عديمة القيمة . والظاهر ، بوجه عام ، ان كوكس ورث ذوقه عن المرحومة والدته .

عندما انتهى من قراءة الخطاب ، لاحظ أن بولى كانت قد ضاقت بصوره العارية ذرعا ، فتناول البروش ، وأراه لها ، ملوحا به أمام عينيها ، سائلا اياها ان كان يعجبها .

قالت الفتاة بصوت مختنق بعض الشىء :

ــ لطيف للغاية .

فقال كوكس :

ــ يمكنك أن تأتى يوما فتأخذيه لنفسك .

ثم نظر ، بعيدا عن عينيها ، الى ركن الغرفة .

لم تجب الفتاة بطبيعة الحال . جلست فى مكانها وقد اســتعادت هدوءها الاول ، فابتسمت له ابتسامة مؤدبة وكأنه قال ما قاله على سبيل المزاح . ولقد اضطر الرجل وهو يلتهمها بعينيه ان يسخر كل ارادته وكل خوفه من أخته ــ التى كان يعرف أنهـــا مرابطة أمام الباب ــ للتحكم فى نفسه • ثم بدأ يأمل فى أن يتمكن من اصطحاب زائرته فى عودتها الى بيت أهلها ، لكن أخته وقد أثار مخاوفهــــا الهدوء الذى ساد الغرفة فجأة ، دخلت ، وأخذت تتحدث الى بولى •

ارتبك كوكس بسبب صوره العارية التى كانت ملقاة على المكتب،

لكن الخوخة قلبتها فأخفت ما بها ، بحركة طبيعية غير ملحوظة ، وهي مستمرة فى حديثها مع أختها .

بدا واضحا أن الفتاة لم تكن غشيمة فى التعامل مع الرجال ، وقد أحدث اكتشاف ذلك تأثيرا بالغ العمق فى نفس مستر كوكس .

انصرفت الفتاة بعد ذلك مباشرة ، وعندما عادت الى البيت ، قالت لابيها أن مستر كوكس سيقابله فى اليوم التالى .

لم تحس بكبير ميـــل الى السمسار . لكنها لم تنس الحليـــة الذهبية التى راقت فى عينها كثيرا . وفى الصباح أخبرت جورج ، العسكرى الاعرج ، وهى تحمل اليه كوب اللبن أنها تلقت بروشـــا كبيرا كهدية من سيد متقدم فى السن وأنها سوف تريه له قريبا . ولم تكف عن التفكير فى ذلك البروش ، خاصة فى المساء ، عندما أوت الى فراشها لتنام .

جاء كوكس فعلا فى صـــباح اليوم التالى . لكنه رفض أن يمر من الورش ليذهب الى المكتب . كان مرتديا معطفا أصـــفر زاهى اللون . وقد انخرط ، فور وصوله ، فى حديث جاد للغاية ، مع مستر بيتشام ، بصوت خافت كان فى حد ذاته منبئا بخطورة الامر .

اعترف بأن الذعر انتابه عندما رأى حالة « أنا الجميلة » . فهذه السفن الكهنة التى اشتروها كانت تستعصى على التصديق . حقيقة أنه ذكر لهم شركة بروكلى وبروكلى ، لكنه لم يكن يعرف شيئا عن سفن تلك الشركة . وهو لايستطيع الان بحال أن يعرض هـــذه التوابيت العائمة على صديقه الوزير . وأسوأ ما فى الاعـــر كله ـ فيما بدا له ـ أن الدفعة الاولى كانت قد ســـددت الى الشركة فعلا ، وان الامبرالية تتوقع أن يتم تسلم تلك السفن فى القريب . وهكذا فان الشركة ، التى لم تعد له أدنى صلة بها ، حمدا لله ، عرضت نفسها ، بصورة شبه مؤكدة ، لتهمة الخيـــانة ، لانه من المعروف للجميع أن الشركاء كلهم عاينوا السفن بأنفسهم ورفضـوا الاخذ بنصيحة الخبير البحرى المدعو بايل .

بعد ذلك قال كوكس أن المخرج الوحيد من تلك الورطة القبيحة فى رأيه هو أن تقوم الشركة فورا بشراء سفن أخرى جديدة يمـكن الاعتماد عليها ، ومن السهل تغيير أسماء تلك السفن بعد شرائها ، لتحل محل السفن الثلاث الخردة . بل ويعد هو بالتكفل بذلك . أما فيما خلا ذلك ، فان صديقه المسئول لايستطيع ، مهما حدث ، أن يشترى سفنهم الحالية .

وبدا بيتشام أقل انزعاجا من يوم أمس . كان يدرك ، بطبيعة الحال ، أنه لا يمكن ان يكون ندا لهذا الرجل . فدائرة النشاط التى كان يعتبر فيها من العظماء ، بل وممن يثيرون الرهبة فى النفوس ، كانت دائرة أخرى مختلفة تمام الاختلاف . وقد خرج الى ماوراء حدودها ببلاهة . جرفته موجة الحماس الوطنى التى كانت تتدفق فى طول البلاد وعرضها ، فجعلته يقدم على أشياء جديدة لا قبل له بها . وهاهو الان قد بات أعزل لايخشى منه ، تماما كتمساح يجد نفسه فى ميدان الطرف الأغر . لكن ، بالرغم من ذلك كله ، مازال هناك أمل . فمن الغريب أنه لم يكن يدرك – فى لقائه الاخير مع كوكس – أن الامر كله منحصر فى تعامل مألوف مع السفالة الانسانية . وعندما اكتشف تلك الحقيقة استعاد قدرا من ثقته بنفسه ، وعاوده الامل . فهو ، على أية حال ، قد وجد نفسه بين رجال مثله من جديد . مجرد رجال ، يمكن التفاهم معهم .

ولذلك اخذ يرقب كوكس الثرثار بهدوء ، بل ببرود . ثم قال أنه ، على حد علمه ، لاتوجد اى سفن أخرى . لكن كوكس قال ببطء : أبدا . من قال ذلك ؟ هناك سفن أخرى . هناك واحدة ، على سبيل المثال ، فى ساوثمبتون فأومأ بيتشام برأسه ، ثم قال بجفاء :

–كم تريد لتدعنى أخرج من هذه المعمعة ؟

تظاهر كوكس بأنه لم يفهم ، لكن بيتشام لم يكرر سؤاله . فقد أدرك الان أن كوكس كان قد وقع على صفقة مربحة للغاية .

بعد فترة قصيرة من الصمت ، قضاها كوكس متجولا فى الدكان يتأمل الآلات الموسيقية المتربة ، قال لبيتشام الذى وقف يتابعه ببصره فى برود ، انه من الاهمية بمكان آن تستأنف الترميمات فى السفن الثلاث بنشاط مضاعف ، وأن المعاينة عند التسليم الرسمى ستكون سطحية للغاية ، لكن المظاهر يجب أن تراعى على الاقل ، فتبدو السفن ، من خارجها ، فى حالة جيدة .

وبينما هو يغلق الباب وراءه التفت الى بيتشام فقال له أن لديه موعدا فى ساوثمبتون ، فى يوم الاربعاء القادم .

(٤)

« منذا الذى لايفضل أن يكون مهذبا
بدلا من أن يكون فظا وصعبا مع الآخرين ،
فقط لو كانت الاشياء عموما
أقل فظاظة وصعوبة مع الجميع ! »
(من النشيد الختامى لاوبرا البنسات الثلاثة)
عن : « الزمان الذى لا أمان له ! »

مناقشات خطيرة

كثيرون لايعرفون أن الحروب مثلما تسمو بأرواح الامم ، تستتبع نشاطا لايستهان به فى دنيا التجارة . حقيقة أنها تجلب على الناس شرورا عديدة ، لكن رجال الاعمال عادة لايكون لديهم اى مبرر للشكوى أو التذمر .

كان مستر بيتشام يتوقع الحصول على قدر مجز من الارباح عندما انضم الى شركة النقل البحرى . وقد كان من بين دوافعه الى ذلك أن ابنته بلغت سن الزواج وأن أى زيادة فى الدخل ، فى تلك الظروف ، تعتبر مرغوبا فيها .

لكن التطورات غير المرضية فى ذلك المجال الجديد الذى طرقه مستر بيتشام بلا سابق خبرة ، جعلته يستغرق فى عدد من المناقشات بالغة الخطورة مع مديره ، مستر بيرى .

تتابعت اجتماعاتهما فى المكتب الذى يفضى اليه الباب الحديدى فى مؤخرة الدكان ، فيجلس بيتشام ، وقبعته ، التى لا محيص عنها ، على رأسه ، الى مكتب قديم بحصيرة موضوع لصق الحائط تحت النافذة الوحيدة الصغيرة التى تضىء الغرفة ، بينما يدع بيرى الشحيم جسده يتهدل ، ثقيلا ، جسيما ، فى مقعد حديدى مخلخل .

يجلس بيتشام ، بغير سترته ، مشمرا كمى قميص متسخين ، مسندا ذراعيه الى مكتبه ، متجنبا النظر الى بيرى مواجهة ، بينما

هذا الاخير يلوك بغير انقطاع عقب سيجار لعله ، فى اغلب الظن ، استخرجه من كوم قمامة فى الشارع منذ عدة سنوات .
اذذاك يقول بيتشام :
ـ بيرى . انا غير راض عنك . انك تتطرف فى الشدة ومع ذلك لا تزيد ايرادنا من هؤلاء الشحاذين بنسا واحدا . فأنا ، من جانب ، أتلقى شكاوى عديدة من قله أدبك مع المستخدمين ، ومن جانب آخر لا أجدهم يكسبون ما فيه الكفاية . البنات فى مشغل الخياطة مثلا يقلن أنهن يضطررن الى العمل ساعات اضافية حتى يتمكن من مجابهة الطلب على بزات الجنود العسكرية ، وهناك أربع عشرة بنتا بدلا من تسع فقط ، وهو العدد الذى يحتاجه حجم العمل على أكثر تقدير . وأنت تعرف جيدا أنى لا أسمح بحكاية الساعات الاضافية هذه هنا ، وأنى لن أقبل أيضا الاستمرار ببلاهة فى دفع أجور للعمالة الزائدة . هذه أوقات عصيبة . عصيبة للغاية ياسيد بيرى . ان انجلترا تقاتل فى سبيل البقاء ، ونحن أيضا . حالة الشركة لم تعد تسمح بأى عبث ، وأنت تدير العمل بخيبة تحسد عليها . لكنى أحب أن أجعلك تفيق . عندما تقع الكارثة ـ وهى يمكن أن تقع فى أى يوم ـ فان كل من يأكل عيشا من هذه الشركة وبفضلها سيجد نفسه مشردا فى الطرقات ليشحذ من جديد . نعم . هل عند سيادتك أية اقتراحات ؟
فيقول بيرى بحرونة :
ـ آه ! واذا بدأت فى الوفر ستقول أنى أسىء معاملة المستخدمين .
ـ تماما . هذا ماتفعله . ذلك الرجل الجديد مثلا ، يسمع صراخه على بعد ثلاثة بيوت . هذه أشياء لن أسمح بها .
ـ طبعا . واذا كتمنا أنفاسه بوسادة يختنق ويموت ، واذذاك تقيم الدنيا وتقعدها ! أنت تعلم جيدا أننا لن نكسب من ورائه مليما اذا ماعاملناه كما لو كان قطعة من الزبد . ونحن لانضربه الا ليكون عبرة للاخرين . الملعون لايدفع بانتظام . وقد أفهمناه ذلك . قلنا له أننا نفعل ذلك حتى لايفسد الاخرين . وبعد أن ذهبت أنت عاملناه برفق .
ـ اسمع . أنا لن احذرك كثيرا بعد هذه المرة . لن أسمح بهذه الاشياء . والاتاوة التى يدفعها « العساكر » تتناقص أيضا من يوم الى يوم . اننا على وشك الافلاس يابيرى . وسوف أضطر أن أقفل الدكان ، اذا استمرت الامور على هذه الوتيرة .
ـ نعم . ايرادات العساكر قليلة ، يامستر بيتشام ، هذا

صحيح . لقد استقصيت الامر بنفسى ، بمنتهى الدقة . الجمهور هو السبب . عواطفه بردت من هذه الناحية فيما يبدو . ولا حيلة لاحد فى ذلك . قلت لك من مبدأ الامر أننا يجب أن نبتعد عن كل ماله علاقة بالسياسة .

استغرق بيتشام فى التفكير . جلس محدقا بنظرة ثاقبة فى ركن مكتبه المترب وقد أمحى من وجهه كل تعبير . ثم قال :

ـ أس البلاء أنكم أناس لا أفكار لديكم . لا تستعملون عقولكم . ضع سلسلة من المقالات المكتوبة جيدا عن الحياة العسكرية وجنوب افريقيا فى « غصن الزيتون » وآذ ذاك سترى آن كان العدد الذى عندك من العساكر سيكفى لجمع صدقات الجمهور !

فى أحد أقبية المنزل كانت صحيفة اسمها « غصن الزيتون » تطبع على مطابع مستر بيتشام الخاصة ، وتظهر أسبوعيا حافلة بأخبار الاجتماعيات ، والوفاة ، والزواج ، وحفلات العماد . فمثل تلك المعلومات ذات قيمة لاتقدر بالنسبة للشحاذ النشيط الذى يمتهن الشحاذة من البيوت . فوق أن تلك الصحيفة المهنية كانت تزود قراءها ، وكلهم من « أبناء الكار » ، فى كل عدد من اعدادها ، بذخيرة من الحكايات المبكية التى تستخدم فى تليين القلوب ، وبعض الفقرات المختارة من الكتاب المقدس ، للضرب على وتر العاطفة الدينية ، غير باب اسمه « فكرة الاسبوع » .

استطرد بيتشام قائلا :

ـ فوق هذا وذاك كله فاننا نرتكب أخطاء غاية فى الغباء . يجب أن نكف عن ارسال الرجال للشحاذة فى أزياء عسكرية فى الايام التى تنقطع فيها حملات الاثارة الصحفية وأنباء الجبهة . هذه كلها أخطاء محزنة لا يقع فيها انسان ملم بأصول المهنة . فتلك البلدة التى اسمها ميفكينج محاصرة الان ، والحرب كلها فى حالة ركود . فاذا حاصرنا الجمهور بشحاذين يقومون بدور الجنود الذين فقدوا اذرعهم أو سيقانهم قال الجمهور ، وله الحق فى ذلك : « وماجدوى أن يفقدوا أذرعهم وسيقانهم مادام ذلك لن يوصلهم الى شىء ؟ » انت تعرف الجمهور ، أو يجب أن تعرفه . لن ينفق نقوده أبدا على اعالة حفنة من الفاشلين عديمى الكفاءة . والاهم من ذلك أن أحدا لايحب أن يذكره أحد بالحرب عندما لا تكون تلك الحرب سائرة على ما يرام . وبالاضافة الى هذا فان الجمهور سيقول لنفسه : «هؤلاء الشحاذون الملاعين يجب أن يحمدوا الله على أنهم بمأمن هنا ، فأولئك الذين ظلوا هناك

فى ميدان القتال أسوأ منهم حالا بكثير . » نعم كانت فكرة طيبة أن نلبس بعض صغار السن من رجالنا ثيابا عسكرية ، لكنه ليس من الفطنة فى شيء أن نطلقهم على الجمهور بفشم ، كيفما اتفق ، وفى أى وقت ، خاصة عندما لاتكون هناك أنباء عن انتصارات حققتها جيوشنا . هيا . استدع الرجال !

خرج بيرى فأحضرهم ، أو ، بالاقل ، من كانوا موجودين منهم . توافدوا على الغرفة فى ثياب عسكرية قديمة ، ممزقة ، زرية ، وقد انقلبت سحنتهم ، فلم يكونوا يكسبون فى تلك الايام شيئا .

أخذ بيتشام ينظر اليهم صامتا . لكن نظرته كانت مبهمة ، لاتفصح عن شيء ، ولا تتوقف عند التفاصيل . سنوات طويلة من المران علمته تلك النظرة . ثم قال بغلظة مفاجئة وبيرى يصغى لكل كلمة من كلماته ، شبه كلب أمين يدرك أن سيده لايخطىء أبدا :

ـ طبعا ، لابد أن يحيق بنا الخراب . هذا كلام لا ينفع . ماهذا الذى أراه أمامى ؟ هؤلاء الرجال ليسوا جنودا انجليزا . انهم حفنة من المتشردين . أنت ! (مشيرا على رجل طويل نحيل شكس الوجه) انظر الى نفسك . هذا منظر جندى انجليزى ؟ هـذا منظر رجل متذمر . منظر رجل شيوعى ! مخلوق كهـذا لن يموت من أجل انجلترا أبدا ! وحتى اذا مات ، رغم أنفه ، فانه سيموت بعد أن يكون قد ملأ الدنيا نواحا وأنينا وصدع رءوس الجميع بالمساومة فى ثمن موته ! الجنود فتيان فى مقتبل العمر ، يفيضون جـاذبية ، ورشاقة ، وبشرا حتى فى أحلك الاوقات . وهذه التشوهات المقززة! هل تحب أنت أن يطالعك أحد بأشياء تثير الغثيان كهذه فى الطريق ؟ ذراع مكسورة مغلولة الى العنق تكفى . والبذلة العسكرية يجب أن تكون نظيفة ، حتى يقول من يراها لنفسه : « هذا الولد الشجاع . لم يعد لديه شيء الا بذلته العسكرية ، وهو مازال يحترمها ! » ذلك احساس يجتذب الناس ، يلين قلوبهم ! أنا فى حاجة الى سـادة مهذبين ! بضع كلمات مهذبة ، فى صوت خفيض ، ولكن بغير تذلل أو مسكنة . فوق أن العسكرى الذى يجرح فى الحرب يكون فخورا بما أصابه ، فلا يتمسكن به . هذا الرجل فقط يمكنه أن يسـتمر فى هذا العمل ، وعلى الباقين أن يسلموا ثيابهم .

خرج «العساكر» دون أن يطرف لاى منهم جفن ، لا الرجل الطويل المعروق ولا غيره ، فالامر كله متعلق بحسن سير العمل ، ولا مجال للعواطف فيه .

قال بيتشام بعد انصرافهم :

ـ أولا يابيرى ، يجب أن يكونوا كلهم شبانا فى أتم صحة ، ذوى جاذبية ، يحس من يراهم بالشفقة عليهم لما أصابتهم الحرب به . ثانيا ، التشوهات المقززة ممنوعة . ثالثا ، الثياب نظيفة ومحترمة . ورابعا ، هؤلاء الابطال لايخرجون للشحاذة الا عندما تكون الصحف قد نشرت انباء عن تقدم ما فى الحرب ، سواء كان نصرا أو هزيمة ، لايهم أيهما ، المهم أن يكون هناك تقدم ما ! وذلك يعنى طبعا انك يجب أن تقرأ الصحف وتتابع الاخبار . هذا أقل مايجب أن تفعله . فأنا أتوقع ممن يعملون فى خدمتى أن يكونوا متيقظين لما يجرى فى العالم من حولهم ، وملمين به . وحتى بعد ساعات العمل الرسمية ، يجب أن يستمر العمل بغير انقطاع . لقد أصبحت كسولا يابيرى ، كثير التراخى فى عملك . وهأنا أحذرك المرة تلو المرة .

خرج بيرى وقد احتقن وجهه ، فأظهر نشاطا غير عادى طيلة الايام القليلة التالية . وقعت أحداث كثيرة : فصل البعض من المشغل وضرب كثيرون فى المكتب ، لكن مستر بيتشام كان على يقين من أن التحسينات التى يمكن ادخالها على أعماله فى تلك الناحية كانت محدودة للغاية . فوق أن الخسائر الفظيعة التى كانت تتهدد شركة النقل البحرى لم يكن من المستطاع ، مهما ضوعفت الجهود ، تعويضها من عملية الشحاذة .

وهكذا فان بيتشام انصرف الى محاولة تذكر النظرة التى رأى كوكس يحدج بها ابنته .

١٥ جك

لم تكن أحوال مس بولى بيتشام على مايرام . وجدت نفسها مضطرة ، خشية انكشاف أمرها ، أن تحمل ثيابها الداخلية بنفسها الى حيث تغسل ، وقد حمدت ربها على انشغال أمها عن مراقبة تلك الثياب كسابق عهدها ، بسبب الجو المتوتر الذى اشاعه فى البيت مزاج مستر بيتشام المنحرف الذى كان يزداد سوءا من يوم الى يوم .

ولقد ذهبت الى مستر سمايلز مرة اثر مرة فى طلب النصح ، لكنها لم تكن تجده دائما . وعندما تمكنت من مقابلته قال لها :

ـ سنجد حلا . لكننا يجب أن نكون أكثر حرصا فى المستقبل . مافائدة موانع الحمل اذا كان المرء لايستخدمها ؟

ثم أخذ يتحدث عن مستر بيكيت بتلميحات بذيئة للغايه ، بينما هذه المشكلة لم يكن لمستر بيكيت أى يد فيها على الاطلاق .

لم تجد بولى بدا ، بعد ان خذلها مستر سمايلز بهذه الطريقة ، من اللجوء الى خادم عجوز كانت لديهم ، فصارحتها بسرها ، وطلبت مساعدتها .

وقد تمخضت جهود العجوز عن وعاءين كبيرين من نحاس حملتهما، سرا ، بمساعدة بولى ، الى الغرفة الصغيرة ، وملأتهما بالماء المغلى ، فأخذت بولى تسلق بالحياة فى احدهما ، وهى تئن وتتوجع ، وتأخذ من الوعاء الاخر مزيدا من الماء تسكبه على جسدها المسكين .

ولم تكتف العجوز بذلك الحمام النارى خارجا ، فأجبرتها على شرب أقداح عديدة من الشاى الساخن ، ثم وقفت على باب الغرفة ، لتطل داخلا كل بضع دقائق براسها الذى يشبه رأس دجاجة وهى تنق سائلة بولى عما اذا كانت الوصفة قد نجحت . لكن وصفتها لم تأت بأية نتيجة . وظلت بولى كما هى ، وجنين مستر سمايلز فى أحشائها .

***

كان جورج الاعرج قد اطمأن الى حياته الجديدة بين الكلاب . وفى أوقات فراغه كان يلوذ بعشة صغيرة من الصاج فى آخر الفناء اتخذها بيتا له ، ووضع فيها سريرا سفريا صغيرا وجد له مكانا بصعوبة بين عدد النجارة وركام المخلفات . وفى تلك العشة كانت ملهاته الوحيدة الرقاد على ذلك الفراش ، وقراءة دائرة المعارف البريطانية . كان قد وجد مجلدا من مجلدات الدائرة الشهيرة ملقى فى دورة المياه . ولم يكن المجلد كاملا ، فقد انتزع نصف مابه من أوراق تقريبا ، كما أنه لم يكن المجلد الاول فى المجموعة . لكن المرء كان مستطيعا أن يتعلم الكثير منه رغم ذلك ، حتى وان لم يخرج من قراءته بتعليم كامل . ولكن منذا الذى كان يتاح له ذلك فى تلك الايام ؟

وقد ضبطته الخوخة ذات يوم متلبسا بالقراءة ووعدت بألا تشى به الى مستر بيتشام . فقد أحس جورج من تعامله مع مستر بيتشام أن ذلك السيد لم يكن يطعم رجاله ليضيعوا وقتهم فى التعليم . لكن الفتاة ، وان حافظت على وعدها فلم تش به ، تسللت الى العشة فأخذت كتابه الى غرفتها علها تجد فيه شيئا يرشدها الى مخرج من ورطتها . لكنها لم تكن ملمة بالكلمات التى ينبغى أن تبحث تحتها عما كانت تريد الوقوف عليه . ومن المحتمل ، فوق ذلك ، أن هذا

الفرع الذى كان يعنيها من بين فروع المعرفة الانسانية ، لم يكن من بين موضوعات ذلك المجلد ٠ المهم انها لم تجد شيئا ٠

ارتاع جورج عندما اكتشف ضياع كتابه . فقضى أياما ملقى على فراشه وقد انكسرت نفسه وركبته الكآبة ، بل وعيل صبره مع الكلاب فقسا عليها . وما من شك فى أن الخوخة كانت مخطئة خطأ كبيرا لكونها لم تقم باعادة ذلك الكتاب الى مكانه عندما انتهت من التنقيب فيه ٠ لكن الفتاة كانت غارقة فى مشكلتها الخاصة ٠ ومن دأب الناس عندما يتسلط عليهم هم ، مهما صغر شأنه ، أن يمسوا أقل اهتماما بمشاعر غيرهم التى لايهتمون بها ، فى الاصل ، كثيرا .

بعد بضعة أيام أخذت تتحدث الى جورج عن الكلاب . كانت تساعده فى لف ضمادات مزيفة حول قدم كلب منها ، وفجأة سألته ، دون أن ترفع اليه عينيها ، عما تفعله الفتيات عندما يحسسن أنهن لسن على مايرام . ثم قالت أنها تسأله ذلك السؤال لان زميلة لها فى دروس التدبير المنزلى حدثتها فى ذلك الموضوع .

ظل جورج منهمكا فى تضميد قدم الكلب بصمت ثم أعطاها نصيحة طيبة وان لم تكن مجدية كثيرا فى تلك الظروف . لكنه فى المساء ارتدى ملابس الخروج وذهب فى مهمة ما ، وفى الصباح نادى على بولى فذهبت اليه بين عشش الكلاب .

قال لها أنها تستطيع أن تذهب معه بعد الظهر ، ان أحبت ، الى عيادة طبيب فى كينزينجتون تتردد عليه النساء بكثرة ويقال أنه بارع فى مهنته .

والحقيقة أنه حصل على تلك البيانات من المرأة التى كان يعيش فى بيتها عندما كان زوجها فى الجبهة . فقد زارها فى أصيل اليوم السابق ، وحصل منها على العنوان . بل أنها أعطته عنوانين ، عنوان ذلك الطبيب ، وعنوان داية . هذه الاخيرة كانت للبنات الفقيرات . وقد بدا لفيوكومبى ان الطبيب أليق ببولى لانه يعمل فى ظروف اقل قذارة من الداية .

ولم تجد الخوخة فى نفسها الجرأة على الذهاب بمفردها ، فذهب العسكرى معها .

كان الطبيب يقيم فى شقة بعمارة شعبية تنز بالفقر وتفوح منها رائحته العطنة . اضطرا أن يصعدا درجا ضيقا معتما عفنا الى الطابق الثانى ، مارين فى صعودهما بجحور أبوابها مفتوحة كما لو كانت تلك الابواب قد ضاقت بما وراءها من شقاء فانفجرت خارجا ٠

ولهذا كانت دهشتهما عظيمة عندما وجـدا شـقه الطبيب نظيفة مريحة . بل أن غرفة الانتظار بدت لهما فاخرة . فى الاركان كانت أصص ضخمة فيها زهور ، وعلى الحيطان علقت سـجاجيد بدا واضحا أنها استوردت من بلدان أجنبية . ولقد بدت معاطف المرضى وعظلاتهم على المشجب الحـديدى زريه قميئه بالقيـاس الى ذلك الترف .

فى غرفة الانتظار كانت سبع او ثمان نسـاء ، كلهن من الطبقة المتوسطة . وعندما فتح الطبيب باب غرفة الكشف ليدخل المريضة التالية ، أومأ لبولى أن تتقدم ، فى غير دورها ، لان ثيابها كانت أفضل من ثياب الاخريات ، فتبعته فى وجل ، بينما ظل العسكرى جالسا فى غرفة الانتظار .

كان الطبيب من ذلك الصنف من الرجال الذى يروق للنساء لاول وهلة ، بلحيته الصغيرة المعتنى بها ، وجبينه المرتفع . ولقد بدا من الطريقة التى شبك بها يديه أمامه وهو يتكلم أنه كان فخورا غاية الفخر بجمالها . لكن وجهه كان ينم عن اغـراق فى رذائل عديدة ، ونظراته لم تكن تبعث على الاطمئنان ، فوق ان صوته كان معسولا اكثر مما ينبغى .

نظرت بولى اليه بذعر حقيقى لم تجرؤ على الافصاح عنه وهو يقيد اسمها وعنوانها فى دفتر أمامه . أجالت البصر فى الغرفة ، قرأت الحيطان مغطاة بأنواع عديدة من الاسلحة كالحراب ، والاقواس ، والسهام ، والمدى ، والخناجر ، والغدارات القديمة أيضا . وفى أحد الاركان ، فى دولاب زجاجى كانت أرفف عديدة من الادوات الجراحية التى بدت أشد خطرا من كل تلك الاسلحة . وعلى المكتب الذى جلس اليه كانت طبقة سميكة من التراب .

مال الطبيب الى الوراء فى مقعده وشبك يديه البيضاوين أمامه ، وانفتح قائلا قبل أن تلفظ بولى بكلمة خلا اسمها وعنوانها :

ـ أى نعم . هذا الذى تطلبينه مستحيل تماما يا آنستى العزيزة . هل فكرت لحظة فيما يعنيه طلبك هذا ؟ ان الحياةالانسانية مقدسة، مقدسة تماما ، فوق أن ماتطلبين منى القيام به مناف للقـانون . والطبيب الذى يقدم على شىء كهذا التى تطلبينه منى يحرم من مزاولة المهنة ويذهب الى السجن أيضا . ولعلك سـتقولين لى ـ فنحن الاطباء كثيرا مانسمع هذا الرأى من المرضى ـ أن هذه القوانين متخلفة وأنها من العصور الوسطى . اه ! والله يا آنستى أنا لم أضع هذه

القوانين . ولهذا فاني انصحك أن تذهبي على الفور الى بيت أهلك فتصارحي امك بحقيقة الامر • فهي امرأة مثلك ولن تعجز عن تقدير موقفك • ولعلها ليس لديها المبلغ الكافي لاتعاب عملية كهذه • لكن لا بأس . فضميري لن يسمح لي ، حتى لو كان ذلك المبلغ معها ، بالقيام بشيء كهذا • فلا يوجد طبيب يخاطر بمستقبله واسمه في سبيل عشرة أو عشرين جنيها . نحن الاطباء لسنا جامدي القلوب كما يتصور الناس • نحن نحس بمصائب اخواننا البشر • بل اننا كأطباء نقف على مالايقف عليه غيرنا من البلايا الاجتماعية . والحقيقة ان الامر لو كان مستطاعا من اية سبيل ، لو كان لديك اى نوع من الاعراض ، حتى أعراض السل ، لقلت لك ببساطة « من هذه العين وهذه العين . هذه مسألة سهلة للغاية . سأخلصك من هذه الورطة في خمس دقائق لا أكثر ، ولن تكون هناك بعد ذلك أية مضاعفات» لكنك لاتبدين كما لو كنت مصابة بالسل او بأى شيء من هذا القبيل. أنت نفسك يجب أن تعترفي بذلك • والخطأ خطؤك على أية حال • فانت عندما استسلمت بطيش ونزق للذاتك كان يجب أن تفكري في العواقب • يجب أن يكون المرء بعيد النظر ، ولا يجب أبدا أن يستسلم لمشاعره ، مهما كانت تلك المشاعر ممتعة أو واعدة بالمتعة . فأنت تذهبين بعد ذلك الى الطبيب مهرولة وتقولين له انقذني . تجلبين على رأسك وعلى رأسه متاعب كنتما في غنى عنها . ارحمني يادكتور انقذني يادكتور لاتدع حياتي تتحطم ! لكنك لاتهتمين لما يمكن أن يتعرض له ذلك الدكتور المسكين من مخاطر فظيعة قد تؤدي إلى خراب بيته اذا ما استسلم لطيبة قلبه التي لن تدعه يرفض لك طلبا • يا للانانية ! لكنها ، مهما قيل فيها ، عملية منافية للقانون ، وحتى اذا كان الطبيب لايستخدم المخدرات فيها حرصا على حياة المريضة ، فانها تتكلف ، مع ذلك ، خمسة عشر جنيها ، تدفع مقدما ، والا قلت لي فيما بعد ، بعد أن أكون قد خلصتك من ورطتك : « ماذا ! وهل أنا قلت لك أن تجري لي عمليات يادكتور ؟ » واذذاك يخرج الدكتور المسكين ، الذي يجب عليه هو الاخر أن يكسب رزقه ، صفر اليدين من هذه المخاطرة الفظيعة بسمعته ومستقبله . وهو في العمليات التي من هذا النوع لا يستطيع أن يمسك دفاتر أو يرسل فواتير ـ حرصا على سمعة المريضة بطبيعة الحال . وهو لو كان لديه عقل لنفض يديه من الامر كله • لانه يجازف بضياع مستقبله • بل هو فاعل ذلك في نهاية الامر • حياة الجنين يا آنستي العزيزة مقدسة تماما

كأى حياة أخرى . فالكنيسة لم تعلن ذلك سدى . سيكون لدى وقت لاستقبالك مرة اخرى بعد ظهر السبت . لذن فكرى فى الامر جيدا . فكرى فيما اذا كنت على استعداد لتحمل هذه المسئولية الخطيرة وأخذها على عاتقك . فان لم تقدرى ، فمن الافضل ترك الامور على ماهى عليه . واحضرى النقود معك . والا فلا حاجة بك الى المجىء اطلاقا . تفضلى من هنا يابنيتى العزيزة .

خرجت الخوخة من عيادة ذلك الطبيب كسيرة الخاطر . كيف تحصل على خمسة عشر جنيها استرلينيا ؟

سارت بجوار العسكرى وقد خيمت عليهما الكآبة . ثم قال هذا الاخير بعد تردد :

ـ معى عنوان آخر . تحبين أن نذهب اليه ؟

فذهبا . كانت الداية العجوز امرأة شحيمة ، تتخذ من غرفة الجلوس فى بيتها غرفة استقبال وقاعة عمليات . جلست بولى متوترة على حافة كنبة من القطيفة الحمراء زاعقة اللون ، والمرأة تتفحصها بارتياب لاتحاول أن تخفيه . ثم قالت لها :

ـ ستكلفك العملية جنيها . لن أقوم بها بأقل من ذلك . ويجب أن أحذرك من الان أن تطبقى فمك أثناء العملية . اذا أخذت فى الصراخ سأتوقف على الفور وأطردك . لست على استعداد لوجع القلب فى سبيل أحد . النقود معك ؟ ستستغرق العملية نصف ساعة .

همت بولى واقفة . قالت :

ـ آسفة . لم احضر النقود معى . سأعود فى الغد .

وهما ينزلان الدرج قالت لفيوكومبى :

ـ لم يعجبنى المكان . قذر للغاية .

فقال العسكرى :

ـ نعم . المفروض أن زبائن العجوز كلهن من الخادمات .

كانت بولى مشغولة بالتفكير فى درج النقود بدكان أبيها .

لم تكن بولى لصة بالسليقة . منذ طفولتها أحست مقتا فطريا لحكاية السرقة هذه . وقد ازداد ذلك المقت قوة فى نفسها ، بنفس القدر الذى ازداد به اقبالها على السرقة . ولا يعنى هذا أنها كانت تسرق فتعاقب عقابا صارما فتكره السرقة وتعود لتسرق . فعقابها الوحيد كان تخفيض مصروفها ـ وبالتالى تموينها اليومى من قطع الملبن ـ وقدرا لايستهان به من الوعظ والارشاد . لكن المقت كان طبيعيا . كلما وضعت اصبعا فى وعاء المربى خلسة

أحست بالذنب ، وانبها ضميرها فى غير رحمة . حقيقــة أن طعم المربى ــ كلما اختلست لحسة ــ كان أحلى ، لكن الاحساس بالذنب كان له طعم هو الاخر ، طعم شديد المرارة . فلقد قيل لها أن الله يستطيع أن يرى كل شىء وأنه يكمن متربصــا بالخطاة ليل نهار ليضبطهم ويعاقبهم . ومن الجلى انه كان يرى كل شىء تفعله هى .
ولو انه بدا لها أن هناك أشياء بعينهاليس من اللياقةالتجسس عليها. فوق انهااقتنعت فىنهاية الامرأن الله عندما يأخذ فىمراقبة أحدالناس بهذه الطريقة ، فيرى مافيه الكفاية من أفعاله الشريرة ، انما يقطع خط الرجعة على ذلك الذى يراقبه ، لانه ، جل جلاله ، سيتحبر ضده ، ولن يسمح لاى قدر من السلوك الحميد يسلكه ذلك التعس بعد ذلك ويتحمل فيه مالايطيق، أن يؤثر فى حكمه عليه أويجعله يترفق به .وهكذا أحست بولى ان سجل ذنوبهاقد امتلأوفاض ولم يعد فيه مكان لذنوب جديدة ، ولذا فانها تستطيع أن ترتكب ماشاءت من ذنوب ومعاص بنفس هادئة مطمئنة . اقتنعت بولى أنها فتاة ضائعة، فسمحت لنفسها بالانغماس فى كل الرذائل ، غير دارية أنه الكسل وحده الذى يدفع الـكبار الى تفويض حراســة برطمانات المربى وحصالات النقود الى الله كما لو كان ذلك هو عمله الوحيد .
ومع هذا كله ، فشتان ما بين سرقة دريهمات من حصالة وسرقة خمسة عشر جنيها استرلينيا من درج أبيها .
ما لبثت مصاعب السرقة أن بدت لبولى محبطة للامال ، فقد هولت الامر على نفسها ، رغم أنها ، فى حقيقة الامر ، كانت قادرة ، طيلة الوقت على سرقة المبلغ من ابيها بغير كبير مشــقة . حقيقة أن درج النقود فى الدكان كان موصدا دائما باحكام ، ومن الصعب اغتصابه . لكن مستر بيتشام كان يحمل معه دائما مبالغ كبيرة من المال ، فى جيب بنطلونه . ذلك المال كان يعتصره بغير هوادة ، بنسابنسا ، من شحاذيه ، فيحوله الى فضة ، ويحشو به جيوبه فى اهمال . ولم يكن مرجع ذلك الاهمال الى استصغار لشأن المال ، أو جهل بقيمته ، بل الى اليأس . فقد وصل مستر بيتشام فى تلك الايام الى حال بات موقنا معها أنه لا هذا المال ، ولا أى مال آخر ، مهما عظم ، يمكن أن ينقذه من براثن الخراب المتربص به ، ولولا بقية من احساس بما يمليه الضمير من وجوب الانكباب على العمل ، لالقى بذلك المال فى عرض الطريق .وهو مايبين لنا عمق الهاوية التى كان الرجل قد تردى فيها. لم يعد يجدى شىء . ولا مليون كامل من الجنيهات . فقــد وقر فى

ذهنه أنه لاماله (أوحتى كل مافى العالم من مال) ، ولا فكره الثاقب – أو كل ما فى العالم من فكر ثاقب – يمكن أن ينقذه من الخراب العاجل الشامل • ولعل ذلك هـــو السبب فى أنه لم يعد يعمل بحماس كسابق عهده ، وأنه انقلب كسولا ، لا يفعل طيلة النهار شيئا الا التجول هنا وهناك فى دكانه ، وفنائه ، وورشه ، وبيته ، قبعته على رأسه ، ويداه فى جيبى سرواله ، مراقبا كل صـــغيرة وكبيرة ، خشية أن يتراخى أحد عن أداء عمل يجب أداؤه .

ولقد كانت ابنته مستطيعة أن تختلس من جيبه ، على مدى اسبوع واحد ، مبلغ الخمسة عشر جنيها اســـترلينيا ، بالتسلل الى غرفة نومه ليلا ، وحتى لو ضبطها لما كان الامر قد تمخض عن خطر حقيقى بالنسبة اليها • لان مستر بيتشام لو كان قد اســـتيقظ من نومه بغتة ، فوجد ابنته منهمكة فى تنظيف جيوبه ، لما طرف له جفن ، ولكان قد استغرق فى النوم من جديد • نعم كانت ابنته ستعاقب ، عقابا هينا ، لكنها لم تكن عرضه لان تسقط فى نظره • لم يكن هناك فعل، مهما انحط، يمكن أن يجعل أحدا يسقط فى نظرمستر بيتشام•

ومما يؤسف له حقا أن الناس لا يدرون بحقيقة قدراتهم • وهكذا فان بولى تصورت أنها غير قادرة على الحصول علىجنيهاتها الاسترلينية الخمسة عشر من مال أبيها •

عندما حدثت بولى العسكرى فى شـــأن ذلك المبلـــغ ، أبدى استعداده لكسر رأس السيد الذى أوقعها فى تلك الورطة • لكن بولى لم تكن ترغب فى كسر رأس أحد • كان همهـــا منصرفا الى صناديق النقود التى يمكن كسر أقفالها واخراج النقود منها • ولسوء الحظ لم يكن مستر سمايلز صندوق نقود • وهكذا فان أفكار بولى بدأت تتجه ، بصورة متزايدة ، نحو مستر بيكيت •

لكن العسكرى لم يكن على علم بكل ذلك ، ولذا فانه ، بعد أن اطمأن على كلابه ، عاد الى عشته ، فرقد على سريره السفرى • وفى اعتقادنا أن العسكرى لو كان ممن يفكرون ، لجالت مثل هذه الافكار برأسه :

– هناك من يحتاج الى خمسة عشر جنيها من جديد ! والله لو توفر لديهن المال لما تركن أحدا يولد بالمرة ! ومنذا الذى يلومهن ؟ أى امرأة تلك التى يطاوعها قلبها على أن تلد طفلا فى هذا العالم متى كان لديها المال لتمنع ولادته ؟ فكأن خلاص العالم فى تلك الجنيهات القليلة ! لو توفرت فى كل مرة لما ازدحم العالم بهذا العدد البشع من المخلوقات الانسانية التى تمزق بعضها البعض اربا فى سبيل

بضعة أنفاس من الهواء ، وبضع لقيمات من طعام لا طعم له ، وسقف مثقوب فوق الرءوس لا يقى من مطر او صقيع ! ولما وجد احد يقوم بالقتل في كل هذه الحروب. لانه في سبيل من ستنشب الحروب آنئذ؟ لن يكون هناك من يمكن استغلاله ، لان الام ذاتها ستكون قد نجت من الاستغلال ، وانقذت جنينها منه ، بجنيهاتها الخمسة عشر . كل الاساتذة يقولون أنه ما من سبيل الى اعادة توزيع الثروة . فالملاك لايمكن التخلص منهم . ولكن هل هناك ما يمنع من التخلص من الذين ليسوا بملاك ؟ على الاقل بمنعهم من المجيء الى الدنيا ؟ القانون يحرم الاجهاض ، بينما الفتيات المسكينات يسعدهن جدا أن يسمح لهن بذلك . ولهذا فانهن يقاومن ذلك القانون . لكن ما من سبيل الى تحقيق رغبتهن . كلا ، بطبيعة الحال ! ذلك يكون أمرا مخجلا للغاية ! ألم تعلن الكنيسة المقدسة ان الحياة مقدسة ؟ فكيف يحق لاولاء النسوة أن يرفضن انجاب الاطفال في هذا العالم المكتظ ، النتن ، الذى تمزقه صرخات الجياع ؟ عيب طبعا ، يجب عليهن أن يتماسكن وأن يتذرعن بالشجاعة والايمان ، بدلا من الاستسلام لهذه الانهزامية المنافية للايمان يجب عليهن أن يجرعن بعض الويسكي ويطبقن أسنانهن ، ويلدن ! حتى لا يقول أحد أنهن يخالفن سنة الخالق ويرفضن انجاب مزيد من الاطفال ! لكن ما ذنبهن وكل واحدة منهن تتصور أن ابنها أثمن من أن يولد في هذا العالم ، وأنه يجب أن يستثنى من هذا العذاب العام لانه خير من الآخرين ! والله أحسن أن الاجهاض يكلف نقودا ، والا لما كنا انتهينا ..

ذلك ، بشكل عام ، هو ما كان العسكرى حريا بأن يفكر فيه ، لو كان ممن يفكرون. لكنه لم يكن منهم ، لانه كان مدربا على الطاعة والنظام

سرعان ما نهض من فراشه وصعد الى الخوخة ليقول لها شيئا . سيأخذها الى صديقته ، صاحبة الدكان . لابد أن المرأة ستجد لها مخرجا .

عندما دخل الغرفة المطلية باللون الوردى ، رأى خوخة راقدة على ظهرها في الفراش ، وقد تراخت ذراعاها الى جانبيها ، وعيناها تحدقان في السقف .

كان فيوكومبى يهم بالكلام عندما وقع بصره على كتاب مهلهل ملقى على مقعد خيزران من مقاعد الغرفة . عرف الكتاب على الفور . فهو ذلك المجلد من دائرة المعارف البريطانية ، أو ما تبقى منه . وقد قضى ساعات بأكملها منكبا عليه ، حتى بات بوسعه أن يردد صفحات

بأكملها منه عن ظهر قلب · لكن ما أكثر الصفحات التى لم يقرأها بعد ·
صدم العسكرى اذ وجد كتابه الذى افتقده كثيرا فى غرفة بولى . ولقد بلغ من عنف الصدمة أنه لم يحس السعادة التى كان حريا أن يحس بها لعثوره على الكتاب · فضياع الكتاب كان قد أحزنه كثيرا ، لانه كان ذا قيمة كبرى فى حياته . لكن اكتشاف سارق الكتاب أحزنه أكثر . كان متعلقا بكتابه هذا. نعم كان بوسعه أن يشترى غيره من أحد محلات البضائع القديمة ، اذ وقعت عينه عليه فى نافذة ذلك المحل . لكن من يضمن له أن يعثر على ذلك المجلد عينه ؟ تلك صدفة لا تحدث الا مرة كل عشر سنين مثلا · ونحن نعلم أن ذلك المجلد الممزق لم يكن يعنى شيئا بالنسبة للخوخة · أما بالنسبة للعسكرى ، فلم يكن هناك شىء فى العالم يمكن أن يقبله عوضا عن ذلك الكتاب ، الا المجلد الكامل نفسه ، فيما يحتمل · ومع ذلك فها هو يراه أمامه ولا يستطيع أن يلتقطه فيقول ببساطة : « آه ! ها هو كتابى ! ترى كيف جاء الى هنا ؟ » فمثل ذلك السلوك كان حريا بأن ينهى الامر كله نهاية غير مستحبة · ورغم أنه سكت ، الا أن منظر ذلك المجلد فى غرفة مس بيتشام ، غير رأى العسكرى فيها تماما · وهكذا فانها عندما سألته عما جاء به لم تسمع منه غير غمغمة مبهمة ، لعلها كانت «جئتا طمئنعليك» ، خرج على أثرها مباشرة دون أن ينظر اليها أو الى الكتاب . وقد ضايقها كثيرا سلوكه الغريب هذا .
ولم تدر أنها فقدت بخروجه كائنا ودودا ، كائنا لا غنى عنه ولا قرين له فى هذا العالم الذى لا أصدقاء فيه ، وفقدت معينا من النصح ورجاحة العقل كان حريا بأن يغير مجرى حياتها كله ·
خلال تلك الايام عادت بولى الى التردد على مستر سمايلز من جديد· وبالنظر الى أن صاحبة البيت كانت قد بدأت تشك فى أمرهما ، فانهما اضطرا الى الذهاب الى الحديقة العامة . وهناك أرادت بولى أن تجلس معه على أحد مقاعد الحديقة بمرأى من الناس ، لكنه أصر على الجلوس بين الشجيرات ·
وقد اعتبرت ذلك ضربا خسيسا من الابتزاز من جانبه · لكنها انصاعت له ·
طوق مستر سمايلز ردفيها ثم أخذ يقول لها انه فى الاونة الاخيرة بذل جهودا مضنية للعثور على طريقة لمساعدتها ·
قال وهو يلصق خده بخدها :
– لا يجب أن تتصورى أنى لا أفكر فى الامر ليل نهار · انه مزعج

للغاية بالنسبة الى . فوق انك لم تعودى لطيفة معى منذ أن حدث ذلك . أصبحت سريعة الغضب ، ضيقة الصدر ، خذى هذه الليلة مثلا . بدلا من أن يروق لك الجلوس هنا معى . بين الشجيرات ، بعيدا عن العيون ـ انظرى الى القمر . انه ليس دائما بهـذه الروعة يا حبيبتى . لكنك لا تنظرين اليه كما ينبغى ! ـ آه ، نعم كنت أقول أنك بدلا من أن تحاولى نسيان الموضوع ، وهو ما قد يكون مفيدا فى حالتك الراهنة ، لا تكفين عن العودة الى نفس الحكاية القديمة . ألم تعودى تحبيننى ؟ هل أصبحت لا تحبين أن أضع يدى هنـا على صدرك ؟ أنت لا تثقين بى . ان الواجب يملى على أن أخرجك من هذه المشكلة التى أوقعتك فيها ـ حتى ولو كنت أنت قد أوقعت نفسك أيضا ، وهو ما يجب أن تعترفى به يا حبيبتى . لكن اسمعى . لقد اكتشفت شيئا . وصفة ليس لدى أدنى شك فى أنها ستنجح . وأهم مافى الامر أنك تستطيعين أن تقومى بالامر بمفردك ، فوق أنه لا يكلف ، فى الواقع ، شيئا . تأخذين بصلة ..

نظرت اليه دهشة ، فاستطرد بلهوجة ، وهو يرفع ذراعه من حول ردفها :

ـ تأخذين البصلة . بصلة عادية من ذلك النوع الذى تجدينه فى المطبخ ، و .. و .. ثم ينتهى الامر ، ببساطة . ما رأيك ؟ وصفة سهلة ، أليس كذلك ؟

همت بولى واقفة بغضب . انهمكت فى تنظيف جونلتهـا من الحشائش ، ثم اخذت تعدل من وضع قبعتها ، دون أن تقول شيئا . وعندما لاحظت غيظه قالت باقتضاب :

ـ لو كان ذلك يتم ببصلة ، لما دفع أحد خمسة عشر جنيهـا للطبيب . فوق أن هذه البصلة تكون مؤلمة للغاية .

خرجا من الحديقة على عجل وكأن كلا منهما يريد أن يفترق عن صاحبه بأسرع مايمكن . وعندما افترقا أظهر مستر سمايلز بوضوح أنه يحس بأنه قد قام بكل ما يحق لها أن تتوقعه منه وأكثر .

***

كانت بولى على علم بأن الاسم الاخر لبيكيت هو مستر ماكهيث ، كما كانت على علم بسلسلة محلات حرف «ب» . فقد صارحها الرجل بكل شىء . ولم تجد فى ذلك كله غرابة . فطـالما كان يتعـامل فى الاخشاب أيضا ، فان من حقه أن يصف نفسه بأنه تاجر أخشاب .

قابلته بولى عدة مرات وأخبرته تلميحا بمقابلتها مع السمسار كوكس . لم تقل شيئا عن زيارتها لهذا الاخير فى بيته ، ولا عن

خطاب أبيها اليه ، لكنها ذكرت أنه حدثها عن عدد من الصور المثيرة للاهتمام قال انه يريد أن يفرجهـا عليها . وأضافت انها ستزوره في بيته قريبا ، خاصة بعد أن سمعت أن أخته سيدة لطيفة للغاية .

أنصت اليها مستر بيكيت باكتئاب ، ووجهه يعطى انطباعا بأنه مطالب باتخاذ قرار هام وعاجل .

قرب المساء نزلت بولى فى أعقاب أمها الى الكرار ، حيث كانوا يحتفظون بالتفاح مرصوصا على أرفف . كانت تعلم أن مسز بيتشام لا تحب أن يتبعها أحد الى ذلك المكان ، لانها تحب أن تنفرد بنفسها فيه . لـكنها كانت قد عقدت العزم على التحدث اليها فى ذلك المكان دون غيره .

عندما فتحت الباب ، رأت أمها واقفة بين أرفف التفاح ، ممسكة بكأس من الويسكى فى يدها ، وقد ارتسم تعبير مذعـور على وجهها لهذه المباغتة . كان مما يحز فى نفس مسز بيتشام أن يضطرها زوجها الى اللجوء لهذه المناورات المهينة أمام ابنتها لمجرد أن تشرب كأسا من الويسكى بين الحين والحين . لكن تزمت الرجل كان لا يطاق . ومع ذلك فهى فى السادسة والاربعين من عمرها ، ويجب أن يكون لديها قدر من الحرية الشخصية التى تمكنها من أن تفعل ما تشاء .

تحدثت اليها بولى بعذوبة ، لانها كانت مثقلة بوزر فعلتها المخجلة، ولولا ذلك لاغلظت لها القول كدأبها . قالت لها أنهـا تريد الزواج من بيكيت .

فقالت مسز بيتشام كأنها تفضى بسر لا تريد الكشف عنه :

ـ ليس اسمه بيكيت .

لكن بولى قالت بهدوء :

ـ نعم . أعرف . اسمه ماكهيث ـ أو هو فى الحقيقة .. ربما كان اسمه ماكهيث فعلا .

فقالت مسز بيتشام وهى تضع كأسها من يدها على أقرب رف اليها بخبطة تنبىء عن حنقها :

ـ وبيتشام ؟ ما الذى سيقوله بيتشام عن رجل قد يكون اسمه كذا وقد يكون كيت ؟ هذا رجل يتزوجه أحد ؟ لست عمياء . لدى عينان فى رأسى وأستطيع أن أرى الطريقة التى يراقصك بها . حتى هو يظن أنى لا أراه . لكننى أعرف هذه الاشياء . لا يوجد رجل أعمال محترم يمسـك فتاة فى مقتبـل العمر هذه المسكة التى يطبق بها على خصرك . والادهى من ذلك ان ابن الـ .. يظن أنى لا

أكون فى كامل وعيى بعد أربعة أو خمسة اكواب من تلك الجعة التى يقدمونها فى حانة « الاخطبوط » ! فيطلق لسفالته العنان معك . لا تحاولى أن تخدعينى يا بولى يا عزيزتى ! لا يمكن أن تكون الاسباب التى تدفعك الى الحديث عن مثل هذا الرجل محترمة ! انها دوافع من نوع آخر تماما أفضل الا أتحدث عنها . لقد أدار رأسك بلمساته الوقحه . هذا هو ماحدث لك فى حقيقة الامر .

ـ نعم . الحقيقة أنى منجذبة اليه .

فصاحت مسز بيتشام بانتصار :

ـ طبعا . هذا هو ما قلته . لقد فقدت عقلك . أصبحت متيمة به ، حتى لم يعد بوسعك أن تعرفى لك رأسا من قدمين .

وهنا أحست بولى بالغضب ، فقالت بلهجتها المتعالية التى ألفت أن تحدث بها أمها :

ـ أف ! لا تصدعى رأسى بكثرة كلامك ! كل ما أريده منك هو أن تخبرى أبى . وعليه بعد ذلك أن يتحدث الى مستر بيكيت .

ثم دارت على عقبيها فعادت الى غرفتها .

أما مسز بيتشام فتنهدت وأفرغت كأسها فى جوفها ووجها مكفهر غيظا وكمدا . لكنها فى تلك الليلة عينها تحدثت الى بيتشام كما أمرتها ابنتها . فقد كانت تعرف بولى .

***

كان بيتشام قد شهد أصيلا مروعا بين أنياب كوكس . فى غرفة خلفية بمشرب نبيذ طلب السمسار صراحة أن يقوم الشركاء بشراء سفن جديدة غير السفن الخردة التى حاولوا أن ينصبوا بها على حكومة صاحبة الجلالة . وقع ذلك الطلب على شركة النقل البحرى وقع الصاعقة . انهار ايستمان فى مقعده كأنه أصيب بفالج . كان قد بدأ يتفاءل كثيرا فى الاسابيع الاخيرة ويتوقع أن تتم الصفقة على خير . أما سمسار المراهنات فقفز واقفا وأخذ يجأر بأعلى عقيرته كثور هائج ، ثم انحط جالسا ، واجهش باكيا . لم يعد هناك مخرج ، ولم يعد يجدى شىء . وطبقا لما قاله كوكس كانت الخطوات الاولى قد اتخذت بالفعل لتشكيل لجنة برلمانية تحقق فى الصفقة بأكملها . وهكذا فان الشركاء فوضوا بيتشام ، بوصفه مالكا لـ $2/7$ من أسهم الشركة ، فى مصاحبة كوكس الى ساوثمبتون فى نهاية الاسبوع ، للتفاوض فى شراء سفن « محترمة » جديدة .

ومع ذلك ذهبوا كلهم الى رصيف الميناء ليحضروا حفل التسليم

الرسمى للسفن الثلاث الخردة الى الحكومة • فقد قال كوكس أنهم يجب أن يقوموا بتسليمها فعلا حتى لا يثيروا الشبهات حولهم ، وأنهم يستطيعون بعد ذلك استبدالها بالسفن السليمة • لم تكن العمرة قد تمت بعد ومازال العمل جاريا تحت اشراف شركة النقل البحرى • وقد مثل اللجنة الحكومية القائمة بالاستلام سيدان فى ثياب لا يرتديها أحد عادة فى مثل تلك المناسبات الرسمية • وقد تمت مراسم الحفل بسرعة وعجلة ظاهرتين ، وكأن كل من اشترك فيها يود أن ينجو بجلده بأسرع ما يمكن • وهكذا وقفوا جميعهم على ذلك الرصيف الذى تلفحه الريح ربع ساعة قصيرة بدت فى طول دهر بأكمله ، تحت وابل المطر ، وقد تجمدت أطرافهم . لكنه واجب الوطن .

وهو يوشك أن يغمض عينيه لينام فيضع حدا لعذاب ذلك اليوم الرهيب فاجأته مسز بيتشام باسم الرجل ماكهيث فى أمر له صلة بابنته بولى . فجن جنونه . أصابته لوثة حقيقية .

جأر بأعلى عقيرته :

– من الذى عرفكما به ، ذلك الافاق صاحب محلات حرف «ب» ؟ ما هذا ؟ هو الذى قدم نفسه ؟ أى أماكن هذه التى تترددين عليها حيث يقدم الرجال الغرباء أنفسهم اليك والى ابنتك ؟ هذا الرجل معروف فى كل مكان بأنه محتال ونصاب ! اذن فهذه هى الطريقة التى تعنين بها بابنتك ! هأنا أستعبد نفسى اناء الليل واطراف النهار فى سبيلكما ، وأنت تقدمينها لقمة سائغة الى أفجر الفجار ، الى نصاب ذى سمعة نتنة يقضى سحابة يومه متسولا فى صالات البنوك محاولا أن يحصل على قرض يمول به دكاكينه البالوعية • ماخطبها ابنتك هذه ؟ هل جنت ؟ سأردها الى جادة الصواب لفورى مادامت قد فقدت عقلها . تتبادل النظرات مع ذلك الرجل كوكس تحت بصر أبويها الـ ... لكن خبرينى من أين جاءت بكل هذه البهيمية التى فى عروقها ؟

قالت مسز بيتشام وهى تجذب اغطية الفراش حتى عنقها :

– ليس منك بكل تأكيد !

فقال زوجها وقد ازداد هياجا فى الظلام :

– طبعا ليس منى • انا لا نفع عندى لهذه الاشياء • يجب أن احتفظ بصفاء الذهن فى كل لحظة وآلا مزقتنى هذه الضباع أربا •

ثم توقف بغتة ، قائلا :

– لا أريد أن اسمع كلمة أخرى • وفى المستقبل سأقرر أنا من من الناس ينبغى أن تختلط به بولى •

كان قد حزم أمره فيما يتعلق ببولى ٠

فى صباح اليوم التالى تحدث اليها فى المكتب ٠ استجوبها فى غير رحمة عن زيارتها لمستر كوكس فى بيته ، بل وتوصل الى أن يستخلص منها ، بين الدموع والشهقات ، حكاية الصور البذيئة التى أراها السمسار اياها ٠ قالت انها رأت سيدات عاريات فى تلك الصور فى أوضاع مخجلة .

بعد أن انتهى منها ، قال لها أنه يعتبر أن نصف ما أفضت به من اعترافات لا يخرج عن كونه أكاذيب ، وأن مستر كوكس رجل أعمال محترم للغاية ، وأنها يجب أن تحمد ربها لاهتمامه بها ولكونه لم يسمع شيئا عن الاصناف الوضيعة من البشر التى تختلط بهم . ثم ترك الامر معلقا عند هذا التلميح الاخير ٠

وهكذا فانها عندما قابلت مستر ماكهيث فى المرة التالية ، أخبرته أن أباها لن يوافق بأى حال من الاحوال على زواجها منه ، وأن مستر كوكس قد دعاها الى الذهاب معه فى رحلة خلوية فى نهاية الاسبوع ٠

ولقد صدقت فى الجزء الاول مما قالته له ٠ أما حكاية النزهة الخلوية فكانت كذبة صفيقة أرادت أن تسود بها عيشه .

***

عندما علم مستر ماكهيث من بولى أن مستر كوكس هو الخطيب المفضل عند أبويها ، بدا له واضحا أنه يجب أن يفعل شيئا بخصوص مستر كوكس ٠

ولم يطل به التفكير ٠ سرعان ما قر قراره ، فركب احدى السيارات العامة التى تجرها الخيول فذهب الى مكتب من تلك المكاتب الصحفية القذرة ، المدقعة فى فقرها ، التى تتكون من حجرتين يسكنهما عادة رجال ذوو فضول ، لا يغتسلون أبدا ، ولا يحلقون ذقونهم ، لهم أصوات تفيض لؤما وتلميحا .

تبودلت بعض النقود ثم وضعت أمام مستر ماكهيث بضع مجلدات مزيتة ممزقة من الصحف القديمة ، فقضى بعض الوقت فى تصفحها ، ثم خرج من تلك الدار فركب سيارة اخرى تجرها الخيول ، حملته الى حيث دخل بيتا عتيقا آيلا للسقوط فى ميدان لووربلاكسميث ، فألقى بتعليمات سريعة الى رجل قذر الثياب تنطق هيئته بالشر ٠

ثم ذهب فركب سيارة عامة ثالثة ، عائدا الى بيته ، رغم أن الوقت كان مبكرا ٠

كان يقيم فى بيت صغير فى احدى الضواحى الجنوبية يقع وراء

حديقة متناهية فى الصغر ضمن صف مرصوص من بيوت متماثلة تماما لا يميزها عن بعضها شىء · لم يكن قد طال به مقام فى ذلك البيت ، بل أن البناء ذاته لم يكن معدا للسكنى تماما · فى احدى الغرف العارية كانت بضع قطع قليلة من أثاث ، بينها كنبة جديدة يستخدمها فراشا ، وفى المطبخ موقد يعمل بالغاز وثلاجة بدائية · لم يكن البيت جديدا ، فقد حل فيه محل زميل من زملاء العمل كان قد أفلس ·

وقف على درج البيت ، وأخرج من جيبه حلقة مفاتيح كبيرة فجرب أكثر من مفتاح قبل أن يتمكن من الدخول ، ثم أغلق الباب وراءه وسار ، وهو يصفر ، مخترقا ردهة عارية تماما لم يكن فيها حتى مشجب يعلق عليه قبعته ·

وعندما بلغ غرفته فى الدور الاول ، حيث كان كل شىء مرتبا بنظام دقيق ، خلع حذاءه واستلقى على الاريكة ، فظل ممددا عليها الى أن حل الظلام ·

عندما قاربت الساعة العاشرة ، سمع رنين الجرس من أسفل ، فنزل ، وفتح الباب ، فأدخل رجلا بدينا أخذ منه ما كان معه ثم دفعه خارجا من جديد ، بلا كلمة واحدة · وقد بدا واضحا أن الرجل البدين لم تعجبه هذه المعاملة ، لانه انصرف وهو يبرطم · لكنه لم يحدث أية متاعب ، فوق أن معرفته بالجيرة جعلت من الجلى أن تلك لم تكن المرة الاولى التى يتردد فيها على ذلك البيت .

فتح ماكهيث (الذى كان ، فى واقع الامر ، يقيم فى ذلك البيت تحت اسم مستعار وهو ميلبورن) الربطة التى أتى بهـا الرجل البدين ، فأخرج منها حزمة من الخطابات ، والاوراق والصور جلس يتفحصها زهاء نصف ساعة على ضوء مصباح بترول ، ثم انصرف عنها ، وأعد فراشه ببضعة بطاطين أخرجها من دولاب فى الحائط ، وسرعان ما كان يغط فى النوم ·

وفى صباح اليوم التالى ذهب الى قيادة الشرطة حيث قابل نائب القائد الذى كان صديقا قديما له · وقف الرجلان معا وقد نثرا محتويات ربطة الامس على سطح المكتب العارى وأخذا يدرسانها معا ، خاصة كراسة مدرسية مسطرة ذات غلاف أحمر كان مستر كوكس يكتب فيها يومياته .

كانت تلك اليوميات تحوى معلومات شخصية للغاية عن حيـاة السمسار الخاصة . ولقد رفض نائب القائد الاطلاع على أى ورقـة

من تلك الاوراق حتى أقسم له مستر ماكهيث أنها لا تتضمن أية معلومات من أعمال صاحبها أو نشاطه فى دنيا المال • لانه لو كان الامر كذلك لما وجد مستر براون ، نائب القائد ، فى مكنته الاطلاع عليها ، بالنظر الى ما تتمتع به مثل تلك المعلومات من حصانة لاتهدر .

والحقيقة أن الجانب الاكبر من محتويات الكراسة الحمراء كان من قبيل التفلسف الاخلاقى • نعم كانت اليوميات حافلة بمعلومات أكيدة عن زيارات ووقائع معينة ، لكن الطابع الاخلاقى كان غالبا عليها ، متمثلا فى مواعظ موجهة للذات ، مختلطة بنقد ذاتى صريح وتوبيخ موجه الى الذات أيضا ، كدليل لا يدحض على المعركة التى لا تنقطع التى كان صاحب الكراسة يخوضها ضد شهوانية فائقة بدا واضحا أنها آخذة بخناقه • والواقع أن الجزء الاكبر من تلك الملاحظات كان يفوق قدرات السيدين ماكهيث وبراون العقلية ، ففاتهما مغزاها فى معظم الامر ، وهو ما لا يلام عليه كاتبها ، لانه لم يكن قد كتبها لهما على أية حال .

كانت هناك أسماء أيضا ، ولو أنها بالشفرة ، لانها وردت مرموزا اليها بحروفها الاولى فقط • كما تضمنت اليوميات احصائيات دقيقة ومنتظمة أيضا . فكل يومين أو ثلاثة أيام على الاكثر (ولم يكن صاحب اليوميات يغفل عن كتابتها يوما واحدا) كانت هناك أرقام لافتة للنظر ، مكتوبة بالحبر الاحمر وتحتها ، بعناية فائقة ، خط بنفس الحبر يعززها ، على هذا الوجه : ويوم كذا : مرتان ، أو يوم كذا أربع مرات • لكن « أربع مرات » كانت ، والحق يقال ، نادرة ، بمعنى أنها لم تتردد كثيرا ، كما أن الامر لم يتجاوز فى أى يوم من الايام «خمس مرات» ، فذلك أعلى رقم تضمنته اليوميات • كما أنه كانت هناك أيام عجاف كتب فيها ، مرة واحدة ، فقط ، لكن تلك لم يكن تحتها خط ، بل كانت وسط دائرة حمراء صغيرة كالتى توضع فى شهادات التلاميذ الخائبين علامة الرسوب فى مادة من مواد دراستهم

غير هذه الاحصائية كان هناك أيضا رمزان مختلفان ، وقد وضع مفتاح لهما فى بطن الغلاف ، وبذلك تبين أن أحد الرمزين يعنى التبرز ، والاخر يعنى تعاطى المسهلات • هذه الرموز أيضا كانت مدرجة بعناية وانتظام ، بخط أنيق • فقد كان مستر كوكس صاحب خط حسن ، منمق بعض الشىء ، حروفه كبيرة •

أما بقية محتويات الربطة فمجموعة مشينة للغاية من الصور الفاضحة . والاسوأ من ذلك أن كل تلك الصور كانت لفرط اتساخها

وكثرة ثنياتها ، تنبيء عن افراط حقيقى فى استخدامها !

بعد فترة من المعاينة الصامتة لتلك المستندات ، ضغط مستر براون على زر جرس ، وحرر وريقة رسمية كتب عليها بضع كلمات ثم أعطاها لليد المختصة • وعندما عاد صاحب اليد ، ألقى بأضبورة كبيرة على المنضدة ، تحتوى على عدد من الملفات والوثائق البوليسية •

أخرج براون من الاضبورة ورقة مملوءة كتابة فأخذ يقارن بعض ما فيها من بيانات ببعض البيانات الواردة بيوميات كوكس ، واضعا اصبعا غليظة على الموضع الذى كان يقارنه • غير أنه ما لبث أن قال بطريقته المتئدة التى توحى بأنه يقول أشياء عميقة وحكيمة للغاية :

ـ كلا يا عزيزى ماك ، لا يمكننا أن نوقع بصاحبك استنادا الى مثل هذه الادلة ، نحن لا نعرف شيئا عن العمل الذى يزاوله ، وأنت خير من يعرف أننا لا نزج بأنوفنا فى انشطة الاعمال التى يزاولها السادة رجال الاعمال أمثالكم • لاننا ان فعلنا ، أى نفع سيعود علينا من ذلك ؟ ان الرجل يدفع ما عليه من ضرائب بانتظام ـ ولذا فان الامر على ما يرام فيما يخصه • ومن جانب آخر فان حياة الناس الخاصة ليست من شأننا الا اذا ارتكبوا سرقة أو أى شيء من هذا القبيل • وصاحبك هذا لم يرتكب أية سرقات • التهمة الوحيدة التى يمكن أن توجه اليه ، ان أردنا مضايقته ، هى تهمة زنا بوسعنا أن نوجهها اليه لانه ضبط ، منذ عامين تقريبا ، فى فندق مشبوه ، مع زوجة موظف كبير فى الامبرالية • لكن تهمة كهذه يحسن بك أن تضعها بين يدى الصحافة • وسأعطيك ان أحببت اسماء اشخاص يمكن الاعتماد عليهم فى ذلك الخصوص ، بوسعهم أن يستخلصوا من تلك الواقعة فضيحة لا بأس بها •

وهنا ضغط على زر الجرس ثانية ، وأحضر الرجل أضبورة أخرى مكتوب على غلافها بحروف سوداء كبيرة : الابتزاز بالتهديد •

أخذ براون يدرس محتويات أضبورته بعناية كدأبه فى كل ما يفعله ، ثم قال أخيرا :

ـ اذهب الى جاون • أنه واحد من أبرع المشتغلين بهذه المهنة •

أخذ ماكهيث العنوان ، فضمه الى مستنداته الاخرى ، ثم خبط على ظهر صديقه رجل البوليس تعبيرا عن الود وقال :

ـ عندما أتزوج فى المرة القادمة ـ زواجا شرعيا أعنى ـ سوف تأتى الى الفرح ؟ لقد بدأ القلق يساورنى بشأن هؤلاء الناس الذين أتعامل معهم فى البنك • يبدو لى أنهم ليسوا ميالين الى مساعدتى •

قال براون بغير حماس :

ـ سآتى طبعا ان تمكنت . لكنك لايجب أن تسرف فى زيجاتك المتعاقبة هذه كثيرا بعد الآن .

انصرف ماكهيث وهو غارق فى أفكاره . صاحبه براون لم يعد براون القديم العتيد فيما يتعلق بموقفه من أصدقائه . نعم مازال الرجل محل ثقة ويعتمد عليه ، لكن الظاهر انه قد بات صاحب مسئوليات جديدة فى الآونة الاخيرة وعلا فى دنيا الشرطة قدره .

ولم يكن موقف براون وحده هو الذى يبعث على القنوط . فموقف البنك أيضا لم يكن باعثا على الابتهاج . بدأ أن مديرى البنك يختلقون تحفظات جديدة فى كل مرة ، ويعقدون الامور أكثر فأكثر .

والاسوأ من هذا وذاك كله أن موظفيه هم أيضا كانوا قد بدأوا يصبحون متعبين . والحقيقة انه كان ينوء بادراكه للحمل المبهظ الملقى على عاتقه والمتمثل فى مسئوليته عن مائة وعشرين من هؤلاء الناس، معظمهم أرباب عائلات ، وهى مسئولية كان يأخذها مأخذا جديا للغاية . فما بالك والأمور تسوء ، ماليا ، من يوم الى يوم ، والبنك يقبض يده باصرار متزايد ؟

لابد أن يحدث شيء . لم يكن هناك أدنى شك فى ذلك . يجب أن يحدث شيء فتنفرج تلك الضائقة التى بدا انها لن تنفرج . عندمايتمكن من أموال بيتشام العجوز مثلا ، ويملأ يده منها ، سيستطيع أن يتنفس بارتياح من جديد .

ذهب الى احد محلاته ، على مقربة من جسر ووترلو . لم يكن دكانا من دكاكين حرف «ب» ، بل محل عاديات محترم تديره امرأة اسمها فانى كرايزلر تعرف شيئا عن الفن . كان يذهب الى ذلك المكان دائما ، كلما كان لديه ما يشغل ذهنه ، فيجلس فى غرفة المكتب ، ويقلب صفحات كتاب ليساعده ذلك على التفكير .

لسوء الحظ لم تكن فانى بالدكان ، فقد ذهبت الى أحد المزادات . كان يصر دائما على أن تكون لبعض الأشياء التى تباع فى المحل شهادات ميلاد غير مزورة ، لهذا كانت فانى تتردد على المزادات .

وجد فى مكتبها كومة من الكتب تبين من الكلمات المكتوبة بالقلم الازرق على غطاء الصندوق انها من مكتبة اسقف كينجزهول الخاصة، وعندما بدأ فى تقليب صفحات الكتب تبين أنها تحوى لوحات غاية فى البذاءة . ولم يكن ماك ممن يطيقون هذه الاشياء . فوق انه كان ضد حكاية الفن أصلا بكل أشكاله بذيئا كان أوغير بذىء . فألقى المجلدات

الثمينة من يده متقززا ، ثم ما لبث أن تذكر بولى ، باعتبار أن الشيء بالشيء يذكر ..

كان يفكر فيهـا كثيرا فى تلك الايام ، وكلمـا فعل انتبـابه قلق لا يوصف . لقد تيقن أخيرا من أنها شهوانية بشكل لايعقل .

هم واقفا .فخرج من مكتب فانى ، ذاهبا الى شارع أولد أوك .

دار حول البيت مرتين ، فرأته بولى ونزلت للقائه . سارت معه فدارا عدة مرات حول المكعب السكنى الذى يقع فيه بيتها .

كانت رقيقة للغاية معه ، وقد بدا انها متورطة فى متاعب من نوع ما ، كما أن لونها كان ممتقعا أكثر من المألوف . وقد صدم ماكهيث عندما لاحظ الظلال التى تحت عينيها . وعندما افترقا لم تنظر اليه مواجهة.

قالت أثناء الحديث عرضا انها ستنقطع عن دروس التدبير المنزلى بعض الوقت وانها ، نتيجة لذلك ، لن تستطيع أن تقابله ثانية . وفى يوم الاحد ستتم الرحلة الخلوية التى أخبرته بأمرها ، مع كوكس .

ذهب ماكهيث الى تانبريدج بمزاج منحرف للغاية .. فقد تذكر فجأة ان اليوم يوم خميس .

كان من دأبه أن يقضى مساء كل خميس فى بيت معين بتانبريدج يشرب فيه فنجانا من القهوة مع الفتيات ، ويتحدث قليلا مع جينى. لكنه اليوم ، بسبب الانقباض الذى انتابه ، جعلها تقرأ طالعه ، فى أوراق اللعب . لكنها لم تقل شيئا يثير الاهتمام . والفتيـات أثرن ضجره كالعـادة . كان قد تردد على ذلك البيت طيلة خمس سنين بأكملها ، فبدا يداخله ملل .

فى اليوم التالى زار جاون . الذى أعطاه براون ، نائب القـائد عنوانه . جاون هذا كان صحفيا يكتب فى عدة صحف لها سمعة غير مستساغة . فأعطاه ماكهيث الادلة التى كانت معه ضد ويليم كوكس.

بعد ذلك بأيام معدودة قال مستر ميلر ، أحد مديرى بنك الائتمان الاهلى ، تلميحا ، فى حديث جرى بينه وبين ماكهيث عن مسائل تتعلق بالاعمال ، انه قد يكون من المرغوب فيه أن يضع مستر ماكهيث كافة الاعتبارات الاخرى جانبا ، وان ينصرف جادا ، وبأسرع ما يستطيع ، الى تأسيس حياة عائلية محترمة ، وهو ما اتفق اتفاقا تماما مع رغبات بولى بيتشام .

على ضوء ذلك كله لم يعد للهجوم الذى كان يجرى الاعداد له ضد مستر كوكس أية قيمة حقيقية ، ولذلك فان مستر ماكهيث لم يعد يشغل نفسه بمسألة الادلة التى تدين ذلك الرجل .

(٥)

« وهكذا وجد كل منهما الآخر ، بين السمك والخراف
وأصبح طريقهما على الارض واحدا ،
ولم يكن لديهما فراش ، أو مائدة ، أو صحاف
ولم يكن عندهما لحم خراف أو لحم سمك
ولا حتى أسماء يطلقانها على اطفالهما العجاف
ولكن برغم كل العواصف الثلجية التى تعوى ، وبرغم الامطار
التى تغرق سهول البرارى الباردة ،
بجوار زوجها الغالى ، يا ابنتى ،
ستظل حنه كاش صامدة

« رجل القانون يقول انه لص زنيم
وزوجة بائع اللبن تقول أنه أعرج ووغد لئيم
لكن حنه تقول « وماذا يعنينى أنا
ان كان لصا أو لئيما . انه رجلى أنا
ومن فضلكم ، واحسانكم ، ستظل حنه معه ، رغم كل شيء
أما انه يعرج أو أنه مجنون
أو أنه يضربها حتى يصبح لونها ازرق أسود
فذلك أمر لا يهم حنه كاش كثيرا ، يا ابنتى ،
لانها تعرف أنها تحبه حبا صادقا »

(أغنية حنه كاش)

مشروع صغير برأسمال مكين

كان بنك الائتمان الاهلى مشروعا صغيرا لكنه قائم على رأسمال مكين يتركز نشاطه أساسا فى العقارات وأراضى البناء ، شراء ، وبيعا ، واستغلالا . والبنك صاحبته فتاة صغيرة فى السابعة من عمرها ، يديره نيابة عنها ، رجل متقدم فى السن يمثلها ، اسمه مستر ميلر يعمل ، بدوره ، تحت اشراف محام عجوز اسمه هوثورن . هوثورن هذا كان وصيا على الفتاة الصغيرة .

ولقد اضطر ماكهيث ، أثناء مفاوضاته التى طالت مع البنك ، أن يتعامل ، لا مع مستر ميلر فحسب ، بل ومع مستر هوثورن أيضا ·ولو جمع عمر هذا على عمر ذاك لبلغ عمر السيدين العجوزين معا مائة وخمسين عاما ، مما يبين ان المرء عندما يتعامل معهما يجب عليه أن يأخذ فى حسبانه أنه يتعامل مع قرن ونصف من الزمان .

ولقد كان دافع ماكهيث الاول فى اللجوء اليهما ، وتحميل نفسه نتيجة لذلك بعبء لا يطاق من محنة صبر واحتمال ، انه أراد بتعامله معهما ، أن يخرس الى الابد ألسنة السوء التى لم تكن تكف عن اطلاق الشائعات المسمومة حول دكاكينه حرف «ب» . لانه لم يكن هناك ، فى دنيا المال والاعمال بلندن ، من يستطيع أن يتصور أن مشروعا يهتم بنك الائتمان الاهلى بأمره يمكن أن يكون قد انشىء بعد عام ١٧٨٠ ، والشركات التى بهذا القدم وبهذه الاصالة لا يوجد من يشك فى أنها شركات راسخة ، ومتينة .

لكنه بسبب تلك الظروف عينها ، لم يحرز أى تقدم .

فقد أخذ البنك يراوغه · ينتهى من مراوغة ليدخل فى غيرها ·

فوق أن فضول البنك كان فى الحقيقة لا يطاق . أرادوا أن يعرفوا عنه كل شىء ، من ايجار الدكاكين الى السير الشخصية الحميمة لاصحاب تلك الدكاكين . ولكن ، بالرغم من ذلك التمنع كله ، بدا البنك راغبا فى التعامل معه ، بشكل لافت للنظر . ولم يكن ماكهيث يجهل السبب فى ذلك · فالمجال القديم لنشاط البنك · العقارات وأراضى البناء ، خاصة بالمعنى الذى يفهمه مستر ميلر ، لم يكن قد عاد مربحا كسابق عهده. فقد تضاءلت فرص الاستثمارات الجديدة، والعقارات القديمة كانت قد تعرضت لهزات مخيفة نزلت بقيمتها الى الحضيض ·

نتيجة لتلك الاحوال غير المستقرة كان مستر هوثورن ينظر الى المستقبل بتوجس شديد . وفوق كل شىء لم يكن راضيا عن مديره مستر ميلر .. فرغم أنه أكبر سنا من ذلك الاخير ، أعتبره غير صالح لادارة بنك ، بالنظر الى تقدمه فى السن ! فهو ، رغم كونه قريبا لميلر فى جموده وتحجر عقله ، يعتبره مسئولا عن ضياع صفقات كثيرة مجزية ، من البنك ولطالما فكر فى أن يستبدل به شخصا آخر أصغر سنا وأكثر نشاطا . ولم يكن ميلر غافلا عن كل ذلك .

ولهذا فان الموقف العدائى الذى اتخذه الاثنان من العنصر الحديث كان قد بدأ يضعف منذ فترة لا يستهان بها · بدأت الشكوك

تداخلهما فى سلامة نظرتهما • لعله من غير المرغوب فيه فعـــلا أن يعالج المرء كل ما يعرض عليه من أمور بكل ذلك التشدد الذى يدعى العلم بكل شىء • الشركات الاخرى ليست متشددة بهذا الشكل ، فهى تعقد الصفقة وراء الصفقة ولا يقول أحد أنها شركات موشــكة على الافلاس • فلعل اتجاهات العصر تتطلب قدرا من اتساع الافق، وشيئا من المرونة •

ولهذا فان السيدين هوثورن وميلر ، عندما عرض عليهمـــــــــا موضوع دكاكين حرف « ب » لم يظهرا من النفور حياله ما كان المرء حريا بأن يتوقعه منهما • ولقد لاحظا على الفور أن كل شىء فى تلك الصفقة غريب خارج عن المألوف مناف للاصول المرعية ، ولكن أليست تلك هى الحداثة ؟ لاشك أن كل هذه السمات الغريبة علامة أكيدة على أن أعمال مستر ماكهيث عصرية للغاية . ومن الواضـــح طبعا أنهما ، من وجهة نظرهما ، لم يكن من الســهل عليهما التمييز بين مشروع جديد ومشروع جديد آخر غيره بنفس القدر من الدقة الذى يفرقان به بين مشروع جديد وآخر قديم • ولهذا فان استعلاماتهما عن ماكهيث ونشاطه كانت فى الحقيقة مجرد شكليات . لانهما كانا قد عقدا العزم على قبول العملية ، خاصة مستر هوثورن الذى اعتبر ان الامر مقطوع فيه بالقبول منذ البداية .

ولقد بدرت من مستر ميلر عدة ايماءات لا تخطئها العين مفادها أنه ، فى حالة دعوة ماكهيث له ، سيكون مستعدا لقبول ضيافته ــ وهو ما يعنى الكثير . غير أن ماكهيث لم تكن لديه للاسف ضيافة يقدمها الى أحد • لكنه عندما وجه الدعوة رسميا ، الى مســتر ميلر لحضور حفل زواجه الوشيك ، قبل ذلك الاخير الدعوة بغير ابطاء ، واعتبر مستر هوثورن مدعوا هو الآخر •

ولقد حدس ماكهيث أن تلك الدعوة قد تكون سببا فى تحقيق ما كان يصبو اليه فى مجال تعامله مع البنك بأفضل مما يمكن أن تحققه كل ما فى الدنيا من مستندات . وكان مصيبا فى حدسه .

ولهذا فانه عندما غادر البنك ، اتجه ، بقلب نزق تملؤه الغبطة ، الى حى ووترلو بريدج ، فعقد اجتمـــــاعا فى المكتب الخلفى بدكان العاديات مع فانى كرايزلر ، ثم خرج معها •

ذهبا معا الى كل ما فى الحى من دكاكين العاديات والتحف ،فاختارا العديد من قطع الاثاث ، بصرف النظر عن الاثمان الباهظة .

لكنهما وهما يتناولان الغـداء فى أحـــد المقاهى خيم عليهمـــا

الصمت ، لزمت فانى ذلك الصمت برهة ثم قطعته قائلة وهي تحدث ايقاعا رتيبا بملعقتها على طبق الفنجان .

ـ ولكن هذا سخف بالغ ! لاى شيء تريد هذا الاثاث ؟ هل تريده لنفسك ؟ طبعا لا ! نعم قد تستطيع أن تقسر النفس على العيش مع ذلك الاثاث أذا ما تأزمت الامور · لكنك لست بحاجة الى التظاهر أمامي أنا أيضا · أنا اعرفك جيدا وأعرف أنك تفضل ثلاث غرف خارجة لتوها من المصنع بأربعين جنيها على كل هذه الانتيكات التى انتقيتها لك . ذوقك هكذا ، ولا حيلة لك فيه . ولا داعى للخجل . لكن الاثاث الذى تريد أن تشتريه ليس لك يا ماك · أنت تشتريه لتضحك به على السيدين ميلر وهوثورن · لكن ما الانطباع الذى تظن أنك ستحدثه فى نفس هذين السيدين بأثاث عتيق كهذا ؟ أنت لاتفهم الامر على وجهه الصحيح · يجب أن يكون لك بيت عصرى ، ويجب أن يكون بيتا تفصح كل قطعة أثاث فيه عن أنه قد تكلف الكثير · يجب أن يكون بيت رجل يتحرك مع الزمن · نعم تستطيع أن تحتفظ ببضع قطع قديمة باعتبار أنك ورثتها عن المرحومة والدتك ، مقعد فوتى ، وماكينة خياطة ، وما الى ذلك · هذه أشياء سأدبرها لك · دع الامر لى · وسوف أتكفل بكل شيء ، بحيث لا يبقى فى نفس القرن ونصف قرن أدنى خوف أو قلق فيما يتعلق بالنقود التى سيعهدان بها اليك ·

ضحك ماكهيث لقولها ، ثم مرا بكافة الدكاكين التى زاراها منذ قليل ، فألغى ماك كل طلبياته · وبعد ذلك ذهبت فانى بمفردها فاشترت أثاثا مختلفا تمام الاختلاف ·

كانت بولى قد كذبت عندما تحدثت عن رحلة خلوية أدعت أن مستر كوكس دعاها اليها · فلم تكن حتى قد رأت مستر كوكس ثانية . نعم خطر لها أن تزوره بخصوص البروش ، لكنها لم تفعل رغم أنها قدرت أن ذلك البروش يمكن بيعه ، أو حتى رهنه مقابل الجنيهات الخمسة عشر التى تحتاجها .

وقد ظلت ، رغم أكاذيبها ، على علاقة طيبة للغاية بماك . فالحقيقة أنه بات يجتذبها أكثر من أى وقت مضى . كما أنها لاحظت أنه وضع فى أعقابها من يراقبها . كان هناك دائما بعض المتسكعين أمام دكان الالات · وقد فطنت الى أنهم يتبعونها كظلها حيثما ذهبت . ضايقها ذلك فى مبدأ الامر ، لكن مثل هذا الاهتمام بروحاتها وغدواتها ما لبث أن دغدغ كبرياءها الانثوى . كانت ،

فيما يخص ماك ، تحس أطمئنانا كاملا . فهو ليس ولدا أرعن مثل سمايلز الذى لا احساس لديه بالمسئولية . وهكذا فان ماك عندما حدثها عن الزواج سرا لم يلق كبير معارضة . أخذت تتصور بتلذذ حقيقى كيف يكون وجه أبيها عندما يكتشف أنها تزوجت سرا .

كانت موقنة من أن أكذوبة النزهة الخلوية مع كوكس التى اختلقتها عفو الخاطر هى التى عجلت باتخاذ ماك لهذا القرار . أدركت أنه تصور أن تلك النزهة ـ ما دامت خلوية ـ لابد ستحدث فيها أمور معيبة للغاية ! ضحكت بولى كثيرا وهى تفكر فى ذلك كله .

فى عصر يوم الجمعة أعدت مسز بيتشام لزوجها حقيبته . وضعت له فيها قميصا وعددا من الياقات النظيفة . وبعد قليل أخذ مستر بيتشام حقيبته وذهب الى المحطة . وفى أعقابه بنصف ساعة لا تزيد حزمت بولى حقيبتها ، وخرجت ، من البيت سرا هى الاخرى .

كانت قد اشترت سرا طقمين من الثياب الداخلية الحريرية ، وكورسيهين لونهما موف ، من أحد دكاكين حرف «ب» ، على سبيل المفاجأة لماك . وضعت تلك الاشياء فى حقيبة قديمة ، مع قميص نوم بصدر مقفل ، كان الوحيد من قمصانها الذى بغير رتق .

على ناصية الشارع كانت عربة مقفلة تنتظرها ، وبداخلها ماكهيث ولم يكن مزاج هذا الاخير معتدلا كما يجب ، لانه قضى اليوم على قدميه من طلعة النهار ، ولم يحصل على قيلولته المألوفة .

ذهبا أولا الى مركز قيادة البوليس ، حيث أوقف ماك العربة وصعد الدرج عدوا الى مكتب صديقه براون ، الذى كان قد رقى الى رتبة كبير المفتشين . غير أن هذا الاخير استقبله بأعصاب متوترة ، وبغير حماس . كان قد زاره مرتين من قبل ليذكره بمجيئهما الوشيك لدعوته الى الفرح ، عندما يتم تحديد العنوان الذى سيقام فيه الحفل .

لم يكن رجاله قد وفقوا الى العثور على بيت ملائم يقام فيه حفل الزفاف . فأعطى ماك فى الصباح عنوانا ما لبث أن عدل عنه ، بعد الظهر ، وأعطى عنوانا غيره ، مما زاد من قلق براون وتوجسه من الامر كله . والحقيقة أن كبير المفتشين أبدى فتورا لافتا للنظر ، ولم يظهر أدنى لهفة لحضور الحفل . لكنه وعد بالمجىء على أية حال . مما بعث الطمأنينة فى نفس ماك ، لان نجاح الحفل ، بل والزيجة برمتها ، كان متوقفا على ظهور كبير المفتشين فى الفرح ، لا لاحداث التأثير المطلوب فى السيدين ميلر وهوثورن فحسب ، بل كرسالة غير مكتوبة ونذير الى عدد لا يستهان به من المهنئين ممن كانوا حريين بأن يفطنوا

الى ما ينطوى عليه حضور ذلك الضابط الكبير من مغزى .

ترك ماكهيث عروسه فى مقهى بالقرب من كوفنت جاردن ، ثم ذهب بالعربة الى بيت فى كنسينجتون كان يجرى اعداده لاقامة الحفل. فقد وقعت أحداث مؤسفة فى ذلك البيت الآخر الذى أعطى عنوانه صباحا ، ولم يتم العثور على ذلك البيت الجديد الا مؤخرا . ولم يكن من المستطاع طبعا أن يقام حفل هام كهذا فى بيت ماك فى جنوب لندن ، لانه أصغر من أن يتسع للمدعوين .

لكن ماك عندما وصل الى البيت الذى كان يعد للفرح ، وجد كل شىء فى فوضى لا توصف . فقد وصل الاثاث المعد للدور الارضى قبل ذلك الذى تقرر أن يوضع فى الدور الاول ، فسد الطريق على ذلك الاثاث الاخير عندما وصل . ولم يكن رجال ماكهيث من أهل الخبرة بشئون العزال ، فوق انهم كانوا قد قضوا الصباح والظهيرة يشربون ابتهاجا بتلك المناسبة . وقد حاول أوهارا ، الذى كلفه ماكهيث بالاشراف على العملية ، أن يماحك بقوله أن الرجال نشبت بينهم مشاجرات كثيرة .

كان ذلك البيت مقرا أصغر يقيم فيه دوق ديلووتر أحيانا عندما ينزل بالعاصمة . وللدوق بيت آخر أكبر كان من الممكن استخدامه فى اقامة الحفل ، لان صاحبه كان مقيما ، فى تلك الاونة بالريفييرا لكن ذلك كان حريا أن يلفت الانظار بصورة غير مطلوبة ، فوق أن البيت كان مفروشا ، بينما البيت الاصغر كان خلوآ من الاثاث تماما، عدا غرفة رئيس الخدم . ورئيس الخدم نفسه كان مدينا لمستر ماكهيث بأفضال كثيرة .

أسقط فى يد ماك عندما رأى تلك الفوضى الضارية أطنابها ، وأيقن أنه غير مستطيع أن يفعل حيالها شيئا ، فما كان منه الا أن انصرف ، عائدا الى صاحبه براون ، فى ادارة البوليس . لكن هذا الاخير كان قد اختفى من سكوتلانديارد . ولذا فانه ذهب الى ووترلو بريدج ، فبعث بفانى الى بولى فى المقهى ، ثم اتجه الى بيت مستر براون ، لكنه لم يجده هناك أيضا .

تعرفت فانى لفورها على الخوخة من وصف ماكهيث لها ، فذهبت اليها بغير تردد ، وقدمت نفسها . كانت خوخة قد بدأت تحس بشىء من القلق لان ماك تأخر كثيرا . كانت ، عندما وصلت فانى ، تشرب فنجانها الثالث من الشاى ، ولم تكن معها نقود .

ولهذا فان مجىء فانى أعاد الطمأنينة الى نفسها ، فى أول الامر .

ثم ما لبثت أن أخذت فى التساؤل ، فيما بينها وبين نفسها بطبيعة الحال ، عن نوع العـــلاقة التى تربط فانى بماك . فالمرأة لم تتعد الثلاثين بكثير ، وليست دميمة . وكأنمـــا حدست فانى الحصيفة ما كان يجول بذهن بولى . فضحكت فجأة واخبرتها أنها تدير دكان عاديات من دكاكين ماك قرب جسر ووترلو ، وأنهــــا تعول زوجا مريضا وطفلين . وقد هدأ ذلك القول من روح بولى ، بطريقةملحوظة وان لم يدم أثره طويلا .

أسوأ ما فى الامر أن الوقت كان قد تأخر ، فلم يعد بوسعها أن تذهب فتشترى ثوب زفاف . ومن خشيتها أن تضطر الى قضـــاء الامسية كلها بثياب كل يوم بدلا من أن ترفل فى ثوب عروس ، تملك بولى احساس بأن الحفل كله سيكون ماسخا . ومحرجا أيضا . فقد أخبرها ماك أن الحفل سيضم نخبة من وجهاء الناس .

جاء ماك بعد غياب طويل ، وقد فشل فى العثور على براون ، فألخذ المرأتين فى العربة معه . ولم تسمح له بولى أن يصرف فانى كما كان يزمع . كما أن اعتذاراته المتكررة بشأن ثيابها قوبلت من جانب بولى بصمت لا يبشر بخير .

نظر ماك فى ساعته ، ثم أخذ يسب ويلعن . طبعا أغلقت المحلات كلها الآن . وهو مقدر تماما لرغبة بولى فى ألا تبدأ حياتها الجديدة بثياب كل يوم ، حتى ولو كانت تدخل تلك الحياة من بابها الخلفى . ولذلك فانه ، بغير حاجة الى أى كلمة من جانبهـــا ، جعل الحوذى يتوقف بعربته فى الحديقة العامة ، على بعد بضعة مئات من الياردات من البيت الذى سيتم فيه الزفاف ، وذهب بنفسه ليدبر أمر الحصول على ثياب ملائمة لها .

وقد عهد بتلك المهمة الحساسة الى رجل من رجاله كان خبــــيرا بالموضات ، ولديه من سلامة الذوق ما كان حريا أن يجعله منـــدوب مشتريات فى أكبر المحلات ، كمحل « ورث » مثلا ، فقط لو كان على أى قدر من الامانة ومتانة الخلق . ولا أدل على ذلك من أن مديرة أحد بيوت الازياء الكبرى اكتشفت فى صباح اليوم التالى اختفـــــاء خمسة أثواب زفاف قالت للبوليس أثناء التحقيق أنها أفضل ما فى المحل من أثواب ، ونتيجة لذلك تعرض « بوللى » لمضايقات عديدة طيلة الاسابيع التالية ، لانه كان من المعروف أنه لا يوجـــد فى عالم الجريمة من يتمتع بمثل ذلك الذوق الرفيع فى انتقاء الثياب التى يسرقها . لكن ماك تمكن ـــ بصرف النظر عن تلك الاشياء كلها ـــ من

أن يعود الى العربة فيقدم الى بولى ثوب زفاف من الطراز الاول .
وذلك هو ما يهم .

ارتدت فانى هى الاخرى ثوبا من الثياب الاربعة الباقية ، وبذلك ذهبت الى الحفل هى أيضا فى ثياب عروس .

فى البيت قابلت بولى ما يقرب من خمسين شخصا بدا واضحا أنهم من فئات اجتماعية شديدة التباين فبخـــلاف لورد وأحـــد ، يدعى بلومزيرى ، واثنين من كبار الضباط ، واثنين من اعضاء البرلمان ، ومحامين ذائعى الصيت ، وأسقف واحد ، هو أسقف كنيسة سانت مرجريت (وقد قام بمراسم عقد القران فى غرفة خلفية) تلقت تهانى الزواج من عدد كبير من أصحاب الدكاكين المكتنزين ، وأيضا من بعض أعوان ماك ومندوبى مشترياته ، وكان معظمهم قد جاءوا بزوجاتهم معهم . فاختلط الحابل بالنابل حقا .

بل وقد دعى الى الحفل أيضا بعض اصحاب دكاكين حرب «ب» ، وهم أناس تبدو عليهم التعاسة ، يرتدون ثيابا ممعنة فى التحفظ ، وتكتسى ملامحهم وقارا شديدا ، وقفوا فى أماكن متفرقة ، متخشبين فى أماكنهم ، وكأنهم معروضات رثة فى واجهة زجاجية .

لم تستطع بولى ، فى زحمة الاستقبال ، أن تتفرج على سائر غرف البيت ، لكنها سمعت ماك يقول لفخامة اللورد أنه أستأجره ، خصيصا لاقامة الحفل ، من صديقه دوق ديلووتر .

على يسار العروس جلس هوثورن العجوز . كان يعرف بولى منذ طفولتها ، لانها كثيرا ما جاءت مع أبيها الى البنك وأخـــذت تلعب بالشيكات ريثما ينتهى الكبار من مناقشاتهم . وعندما تســـاءل هوثورن عن السبب فى عدم حضور أبويها الحفل ، قالت له بولى أنها تشاجرت معهما بالامس لانها وقفت فى صف ماك عندما رفض أن يدعو أحدا من العـــاملين فى « الورشـــة » الى الفرح . ولقد بدت الاكذوبة مكشوفة بعض الشىء ، لكن القـــرن ونصف قرن ابتلعاها بسهولة ، فيما بدا .

فى بداية الحفل ظل المقعد المحجوز الى يمين العريس خاليا .

فلم يكن براون قد وصل بعد . ولقد اضطر ماكهيث أن يخرج مرة بعد مرة من القاعة التى أقيمت فيها المأدبة ليبعث بمن يبحث عنه . فالعرس كله ، بل والزيجة برمتها ، لم تكن تعنى شـــيئا بالنسبة اليه بغير براون . فوق أنه كان موقنا من أن وجود ضابط بوليس عظيم كهذا فى الحفل سيكون له أثره الذى لا ينكر لمدى قرن ونصف .

لم يصل براون الا بعد أن وصل المدعوون الى أطباق الدجاج . فوق أنه لم يحاول التظاهر بالابتهاج ، ولم يأت مرتديا بزته الرسمية، فكان لذلك الاهمال الاخير من جانبه أثر بالغ السوء فى نفس ماك ، الذى لم يغفره له أبدا .

لكن براون ، رغم جهامته ، عامل بولى بلطف زائد . فقد وقعت الفتاة من نفسه موقعا طيبا للغاية . فتن بها وقد جلست رافعة الرأس ، ووجنتاها تتوهجان ، وكأن كل من حولها أتباع ورعايا . لم تتناول من الطعام الا أقله ، كما يجب أن تفعل العرائس ، لانه مما يخلف انطباعا سيئا بحق أن يرى المرء مخلوقة رقيقة فى ثوب الزفاف تحشو فمها بالسمك والفراخ .

بدا ترتيب الجلوس الى المائدة الرئيسية غير مقبول بالنسبة لمعظم المدعوين الذين وجدوا أنفسهم فى أماكن دنيا . لكن أحدا منهم لم يحمل العروس وزر ذلك . فقد تألقت بولى حتى أبهجت كل القلوب .

ولقد جاهد ماكهيث فى اخفاء ما كان يحسه من قلق تجاه ما قد يبدر من بعض ضيوفه من تصرفات محرجة . كان أصحاب دكاكين حرف «ب» يتناولون طعامهم فى أدب وتحفظ ، ولا يخشى منهم ، لانهم احسوا احساس المتطفلين بين كل أولئك الناس من ميسورى الحال . لكن أعوان ماكهيث ومندوبى مشترياته كانوا ، بطبيعة الحال ، أقل حساسية من ذلك ، فلم يبد عليهم أى تحفظ أو حرج .. ولقد اضطر ماكهيث الى مجالستهم ، عند تناول الحلوى ، حتى لا يغضبهم فأرغم بذلك على الاصغاء الى تهامس زوجاتهم المشحون بالكراهية المتبادلة ، بل ووجد لزاما عليه أن ينتهر واحدا أو اثنين منهم لما بدر منهما من بذاءات لا مواراة فيها .

لكنه ، فيما خلا ذلك ، كان قد وفق تمام التوفيق فى اختيار من دعاهم الى الحفل من رجاله . فلم يكن بينهم رجل واحد له ملف لدى البوليس ، سواء فى الداخل أو فى الخارج ، اللهم الا جروتش . وحتى هذا الاخير لم يكن بوسع سكوتلانديارد كلها أن تتعرف عليه — بعد جراحته التجميلية الاخيرة — الا اذا أخذت بصمات أصابعه . أما السواد الاعظم من مدعويه الاخرين فكان يتألف من عدد من أصحاب الدكاكين الذين لا تشوب سيرتهم شائبة والذين أضفى عليهم غباؤهم احتراما لا نظير له . النغمة النشاز الوحيدة كانت جينى . ولقد كانت دعوة جينى — بغير علمه — قحة لا تغتفر من جانب أوهارا . لان المومسات لا موضع لهن فى مثل هذه المناسبات العائلية الفاضلة . فوق أن

وجودها كان محرجا لاحد الضابطين العظيمين . غير أنه مما خفف من اثر تلك الهفوة وجود علم مثل ريد بين المدعوين ، باعتبـاره من أشهر شخصيات العـالم السفلى ، فقد ارتفع المستوى الاجتمـاعى للحفلة بوجوده ارتفاعا لا ينكر .

بعد تناول القهوة انفرد ماكهيث بهوثورن وميلر فى غرفة مجاورة لمناقشة متطلبات قيام البنك بتمويل دكاكين حرف«ب»، وسط بقايا الحفل المتناثرة على المقاعد والمناضد .

لم يدخل السيدان العجوزان فى التفاصيل ، ولم ينبس أحدهما بحرف واحد يشير الى ما قد يشتم منه أن تخلف والدى بولى عن حضور الحفل قد أثار قلقهما . لكن ماكهيث لم يكن من السذاجة بحيث يسقط ذلك الاعتبار من حسابه . فقد أدرك من مبدأ الامر أن عدم وجود بيتشام سيضايق الرجلين . لكنه كان موقنـــا من أن مستر بيتشام سيثوب الى رشده ان آجلا وان عاجلا . فيتصرف تصرفا واقعيا لا دخل للعواطف فيه ، وكان فى امتناع القرن ونصف قرن عن الاشارة الى غياب بيتشام بكلمة ما طمأنه الى أنهما يشاركانه ذلك الرأى عينه.

عندما عادوا ثلاثتهم الى الحفل وجدوا الجميع منهمكين فى الرقص. كانت الخوخة ترقص مع أوهارا . والغرفة كلها تضـج بجو مرح ، وقد زينت وفرشت بأثاث على أحدث طراز .

جلس ماك بضع دقائق وحده الى المائدة الخالية ، وقد غاص لغده السمين فى ياقته العالية المنشاة ، واحمرت صلعته بعض الشىء ، بسبب ما شربه من خمر . كان يحاول أن يفكر . وقد نجح فى أن يجمع بضع أشتات أفكار فى وقت قصير نسبيا . قال لنفسه :

ــ من المحزن حقا أن تكون أحلى ساعات العمر مشوبة بالمنغصات التى تفسد مذاقها كما يفسد عصب صعب المضغ قطعة شواء لذيذة . فأحلى اللحظات تعكر صــفوها الهمــوم والمتــاعب . لا يكاد المــرء يحس أنه ممتلىء نشوة فى داخله ويجيش صدره بأنقى المشاعر حتى تدهمه المصاعب المالية . هأنذا ، حتى فى هذه اللحظة التى يندر أن يجود بها الزمان ، لا أستطيع أن أجلس فأهنأ بكأس نبيـــذ . لانى ان فعلت سينطلق ضيوفى الاعزاء ، الخنازير ، ليلوثوا كل ما هو نظيف هنا . لهذا يجب أن أكون يقظا . كما أنى لا أستطيع أن أفك حزامى الذى يخنق وسطى ، خشية أن يسقط سروالى أمامهم . يعنى لا يكفينى .. انى يجب أن أراقبهم ، بل يجب أن أراقب نفسى أيضا ، فأنا خنزير أنا الآخر . كم يصبح كل شىء رائعا لو احترم هــؤلاء

الاقظاظ مشاعر المرء فى أجمل يوم من أيام حياته . أنا أشد الناس تسامحا ، وألطفهم معشرا • لكننى عندما أرى ذلك القذر كلود يتسلل الى غرفة الجلوس مع الفاجرة زوجة شارلى ، يجن جنونى • لن أسمح بهذه المساخر فى بيتى ! وهذه العاهرة جينى هى الاخرى • كان لابد أن تأتى ؟ لا مكان هنا ، وهى تعــلم ذلك . لا أستطيع أن أدع زوجتى تخالط هؤلاء الناس . فهذا يكون تطرفا فى التساهل. واضح من نظرات هؤلاء الخنازير اليها أنها تروق فى عيونهم جميعا • لعلهم يريدون أن يناموا معها ! ترى كيف يكون منظرى اذا ما اضطررت الى أن أخبر واحدا منهم أن يكف يده عن زوجتى • أولاد الزنا ! لم لا يكتفون بقحابهم ؟ لا أعنى طبعا أن زوجتى قحبة • لا يجب أن أقول أشياء كهذه . لا يجب أن أذكرها وأنا أتكلم عنهم. فهى تفضلهم جميعا بل وتفضلنى أنا ، لست محترما بما فيه الكفاية لاستحقها . لست، فى الحقيقة ، رجلا كريم الخلق . لكنى سأفعل كل ما بوسعى . عندما تتم هذه العملية مع البنك سأصبح محترما بحق • من اللطيف حقا أن يكون المــرء محتــرما ، فوق أن ذلك لا يضر به ماديا . أو لعله يضر به لكن قليلا .. أو ، على العكس ، قد يكون الطريق القويم ، فى النهاية ، أفضل • والان يجب أن أقف ثانية • نعم • ان أحلى لحظات العمر تعكر المتاعب والمسئوليات صفوها • انه أمر محزن • محزن للغاية •

هم ماكهيث واقفا ليأمر باحضار العربات • وعندما ذهب لاحضار حقيبته ، ضبط « بوللى » ، وشهرته « يعقوب أبو صباع خطاف » مع زوجة روبرت « المنشار » ، فاضطر الى احداث ضجة قائلا انه لا يسمح بمثل هــذه الامور المقززة فى بيته ، لكن ما أثار غيظه أكثر أنه رأى بولى مستمرة فى الرقص مع ذلك الثرثار أوهارا • فقاطع رقصتهما بشىء من الفظاظة . لكنه ، برغم ذلك كله ، كان لا يستطيع أن يتذمر أو يدعى أن حفله لم ينجح •.

عند انصراف العروسين ، وقف المدعوون ، كما هى العادة ، على الدرج ، وأخذوا يلوحون لهما • لكن أحدا لم يلحظ أن عددا من المدعوين كانوا يعاملون فانى كعروس ثانية سوى ماكهيث الذى أخذ ينظر اليهم من النافذة الخلفية للعربة ، بوصفه من المهتمين اهتماما غير عادى بملاحظة الطبيعة البشرية •

لحقا بقطار ليفربول فى اللحظة الاخيرة .

والحقيقة أن مستر ماكهيث لم يكن ذاهبا لقضاء شهر العسل فى

أحسن ظروف ممكنة ، وباله مستريح .

فمنذ أسبوعين سطا بعضهم على دكانين من الدكاكين التى تبيع السلع الحديدية والفولاذية ، فى الضواحى . آلى هنا والامر ليس فيه ما يزعج أحدا . لكن الازعاج يأتى بعد ذلك . فقد نشرت مجلة « العاكس » الاسبوعية (وقد سميت كذلك لان محرريها يشهرون فى وجوه أخوتهم من بنى البشر مرآة تعكس صورهم على صفحات أعداد المجلة ، وتظل تعكسها حتى يدفعون) مقالا يزعم كاتبه أنه اشترى من أحد دكاكين حرف «ب» عددا من شفرات الحلاقة تبين أنها من متعلقات أحد الدكانين اللذين نهبا منذ أسبوعين . ونتيجة لذلك بدأ أوهارا مفاوضات فورية مع مجلة « العاكس » . لكن ماكهيث لم يكن من أولئك الذين يفقدون أعصابهم بسهولة . فكان من الصعوبة بمكان أن يبتز أحد النقود منه بألاعيب كهذه . وقد بلغ به الامر أنه ألقى فى عرض الطريق بمحرر جاول أن يشهر تلك المرآة ذائعة الصيت فى وجهه . ومنذ تلك اللحظة ومجلة « العاكس » ، تطالب ، فى مقالات من نار ، بأن تقدم دكاكين حرف «ب» الفواتير الدالة على شرائها لشفرات الحلاقة . ومن الواضح طبعا أن مسألة الفواتير هذه من السهل تدبيرها . لكن الامر ، مع ذلك ، لم يتوقف عند ذلك الحد .

ففى معرض الحصول على فضيات المائدة لحفل الزفاف وقع الرجال فى محظور صغير آخر . ولم يكن لهم ذنب فى ذلك ، لان الامر كان يجب أن يتم على عجل ، وبغير أعداد سابق . غير أن العملية نجم عنها موت شخص ما . وقد حاولت العصابة أن تخفى أمر ذلك الحادث عن زعيمها حتى لا تعكر صفوه فى تلك الظروف الحساسة ، لكن ماكهيث ، كدأبه ، علم بالامر بطريقة ما . ولقد كان من الواضح أن قلة التمويل كانت ، هنا أيضا ، السبب فى ذلك الاداء المؤسف .

عندما علم ماك بمسألة الموت هذه ، أراد أن يؤجل شهر العسل . لكن ذلك كان مستحيلا . ولذا فانه قرر أن يتكل ويسافر ، على أن يجمع بين العمل والمتعة ، فيستغل رحلته فى قضاء بعض الاعمال . ولهذا السبب اختار ليفربول .

تألقت الخوخة وبدت فتانة فى ديوان القطار . فأوهارا راقص أكثر من ممتاز . ولقد أحست العروس الصغيرة خلال المسافة القصيرة من الدرج الذى ودعهما منه المدعوون ، وعربة القطار ، والعربة تدرج بهما فى ظل أشجار الكستناء الداكنة كثيفة الاغصان . ان ذلك اليوم ، بغير منازع ، هو أجمل أيام حياتها على الاطلاق . فلم تكن قد وجدت

نفسها قبل اليوم محط مثل ذلك القدر من الاعجاب والتدليل من كل ذلك العدد من الناس . كانت سعيدة بحق . وقد توهجت سعادتها على وجنتيها ، حتى فاض قلب ماكهيث ، فمد يده محاذرا ، حتى لا يراه أحد من المسافرين الاخرين فى الديوان ، وضغط على يدها الصغيرة الدافئة .

فى ليفربول نزلا بفندق صغير كانت به غرفة محجوزة لهما . وقبل أن يذهبا الى الفراش شربا زجاجة أخيرة من نبيذ البرجندى فى قاعة الفندق . لكن تلك كانت غلطة مؤسفة . أحس ماك بالتعب يخدر جسده وهو ما زال على الدرج .

لم يجد فى نفسه القوة لابداء اعجابه بثياب بولى الحريرية التى اشترتها لتلك المناسبة . اما الكورسيه الموف فلم يكن فيه جديد.

كان ماك بخير طبعا . كل مافى الامر أنه كان متعبا بعض الشىء .

سرعان ما استغرقا فى النوم . لكن المنبه ، الذى عنى بضبطه قبل أن ينام ، أيقظهما فى منتصف الليل ، فقضيا ساعة أخرى ممتعة لكن بولى باغتته بسيل من الاسئلة ، فاعترف ، تحت الحاحها ، ببعض غزواته الغرامية السابقة (وان لم يذكر علاقته بفانى ، كما لم يشر الى علاقته بجينى الا عرضا ، وبطريقة منقوصة) . وعندما أخذ يستنطقها بدوره ، اعترفت له الخوخة ، بعد نضال طويل ، ان مستر سمايلز قبلها ذات مرة . قبلة واحدة . وهكذا تم ـ بهذه الاعترافات المتبادلة التى بلغ بها ذلك اليوم المشهود ذروته ـ ارساء أسس حب زوجى طويل ودائم .

كانت بولى سعيدة هى الاخرى ، وقد غفرت لماك ماضيه فى اللصوصية (الذى اعترف لها به وهما يشربان زجاجة البرجندى فى قاعة الفندق) ، وتركها تخرج خنجره العتيد قليلا من غمده فى العصا الغليظة التى لا تفارق يده . كما غفرت له أيضا بعض صفاته الشخصية المنفرة (كميله الى هرش صدره تحت القميص) . وعندما غفرت له كل ذلك أيقنت تماما من أنها تحب زوجها حبا جما .

***

كان مستر جوناثان ارميا بيتشام قد حصل على تفويض كامل بحرية التصرف من البارون ، وسمسار المراهنات ، وصاحب العقارات السكنية ، ومدير مصنع القطن ، وصاحب المطعم ، فأخذ الحقيبة التى أعدتها له مسز بيتشام ، وذهب الى حيث قابل مستر كوكس

على رصيف محطة ووترلو .
وقد انقضت الرحلة الى ساوثمبتون دون ان يتبادل السيدان اكثر من عشر كلمات . جلس كوكس واضعا منظاره ذا المشبك على أنفه النحيل ، مستغرقا فى قراءة التايمز ، بينما جلس بيتشام فى الركن ، بلا حراك وقد شبك يديه أمام بطنه .
رفع السمسار عينيه مرة واحدة ليقول :
ــ مازالت ميفكينج صامدة للحصار ! أولاد أشداء !
فلم يقل بيتشام شيئا . لزم الصمت فى ركنه وهذه الافكار تتوارد على ذهنه :
ــ مصيبة . انجليز يحاربون انجليزا . ليس هذا الرجل الجالس معى فى الديوان فحسب ، بل وأولئك الرجال الذين فى ميفكنج أيضا . كلهم ضدى . ينبغى لهم أن يستسلموا ! واذ ذاك لن تكون بأحد حاجة الى ارسال فرق جديدة تحل محلهم ، او الى سفن ، جديدة كانت أو خردة ، وبذلك تنتهى هذه المصيبة التى يحتمل أن تكلفنى عنقى . ولكن هل ينوون أن يستسلموا أبدا هؤلاء اللاعبين ؟ اطلاقا ! يلبدون فى تلك الجحور الرطبة الحارة وينتظرون ، يوما بعد يوم ، وصول السفن اللعينة التى سأشتريها أنا لهم بدريهماتى التى لم احصل عليها الا بعد ان تخلعت أسنانى . وكأنها مؤامرة ضدى . يلبدون فى تلك الجحور ويهيبون ببعضهم بعضا : اصمدوا ! لاتتخاذلوا أو تضعفوا ! اقلوا فى طعامكم . اثبتوا تحت وابل الرصاص الى أن يشترى لنا جوناثان بيتشام المأفون العجوز بآخر درهم فى جيبه السفن التى ستحمل الينا المدد والخلاص . ولو سارت الامور على ما يحبون لتم شراء السفن اللعينة بسرعة ، حتى أخرب أنا بيتى سريعا وينجون هم بجلودهم سريعا . لكننى لست مأفونا بالقدر الذى يتصورونه ، ولذلك ستسير الامور على مهل ، ما استطعت أن أهدىء من سيرها . وهكذا تتباين مصالحنا أنا وهم ، رغم أننا لا يعرف أحدنا الآخر .
فى الفندق بساوثمبتون افترقا بسرعة ، وكل يريد أن يتخلص من صحبة الآخر لاطول وقت مستطاع ، فلم يفكرا حتى فى تناول العشاء معا . لكن ضجة كبرى قامت فى غرفة كوكس فى منتصف الليل ، ولما كانت غرفة السمسار لصق غرفة بيتشام ، فان هذا الاخير قفز من فراشه ، وارتدى سرواله ، ودلف الى الحجرة المجاورة .
وجد كوكس راقدا فى الفراش وقد جذب الاغطية حتى عنقه ،

بينما وقفت فى وسط الغرفة فتاة في مقتبل العمر ، عارية كما ولدتها أمها ، الا من زوج جوارب حول ساقيها ، وهى تسب وتلعن كنساء سوق السمك .

كان بوسع المرء أن يتبين من سيل السباب المقذع المتدفق من فمها أن العراك بينها وبين كوكس نشب لانها رفضت أن تمتثل لرغباته الشاذة ، ولأنها ليست على استعداد ، مهما حدث ، للاستجابة لمطالبه • ومما قالته أيضا أنها ليست جديدة فى هذا الكار وأنها صاحبة ثروة حقيقية من الخبرات والتجارب والالاعيب ، فوق أنها متحررة تماما من العقد وضيق الافق والتزمت ، كما يشهد بذلك مئات من عمال الموانىء والبحارة ، وكلهم سادة كثيرو الاسفار ذواقون لا سبيل الى ارضائهم بسهولة ، لكن هذه الاشياء التي يطلبها هذا الرجل « كوكس » لا يجرؤ على طلبها ، مقابل عشرة شلنات لا أكثر ، حتى ذلك القاضى العجوز المعروف فى المدينة بأكملها بفسقه الشديد وقلة حيائه .

كانت الفتاة متمرسة بحق ، ومستنيرة • كانت عليمة بكل أصول الفن الحيوى الذى يجب أن تجيده كل من تمتهن مهنتها المتعبة : فن تحقير الزبائن الثقلاء الذين يسرفون فى مطالبهم • ولقد فعلت ذلك بكوكس ، باتقان تحسد عليه ، فوفقت ــ بغير جهد ــ الى مقارنات وتشبيهات استخدمتها فى تحقيره ، لو اتيح لنا أن نطبعها هنا ، لفتحت الطريق أمام هذا الكتاب ــ بقوتها الشاعرية وروعة تصوراتها ــ الى مرتبة تقرب كثيرا من الخلود •

لم يكد بيتشام يدخل الغرفة حتى توالت الطرقات على الباب ، فذهب وفتحه ، ووجد عنتا شديدا فى التخلص من عدد من الندل وخدم الفندق كانوا فى حال من الاهتياج يصعب معها التفاهم واياهم بالتى هى أحسن ، مما اضطره الى طردهم طرداً • ثم ألتفت بعد ذلك الى السيدة وكانت قد اتشحت ــ بطريقة فنية للغاية ــ بمفرش مائدة من القطيفة ، وبدأت ترتدى حذاءها • ولم ينقض وقت طويل قبل أن يتمكن مستر بيتشام من كبح جماح غضبها بما ايقظه فيها من أحاسيس واقعية عملية ذات صلة وثيقة بالنقود .

بعد نقاش ومساومات دست المرأة عدداً من أوراق النقد فى أعلى جوربها ، وانصرفت ، ولكن ليس قبل أن تقول لبيتشام :

ــ تريد نصيحة منى ؟ يجب أن تحضر لصاحبك سيدتين أو ثلاثا ، وبسرعة . اذا كنت تريد أن تجعله فى حالة يتمكن معها من مبارحة

الفندق دون أن يسير على أربع وهو يعوى !

فلم تكد تنصرف حتى اضطر الرجلان الى حزم امتعتهما لان ادارة الفندق أعلنتهما بأنه من غير المرغوب فيه بالمرة أن يظلا بالفندق دقيقة أخرى . وهكذا اضطرا الى الانتقال الى فندق آخر ، فى الساعة الرابعة صباحا .

وجدا من غير المجدى أن يذهبا الى الفراش . فطلبا بعضا من الشاى وجلسا يتحدثان .

أبدى كوكس رغبة حرى فى الحديث . تكلم فأفاض . لم يخف عن بيتشام أن هذا المشهد الذى جرى فى غرفته قد ملأه تقززا لا يقاوم ، من نفسه ، وأخذ ينتقد نفسه صراحة ، بلا رحمة ، لاعنا ذلك الضعف المزرى الذى يدفعه الى مخالطة هذه الاصناف من حثالة الناس

قال محزونا ، بلهجة يقين كامل :

ـ هؤلاء الناس يفقدون كل قدرة على التحكم فى أنفسهم بمجرد أن يخرجهم المرء من بيئتهم المعتادة . وهم فوق كل شىء لا يفهمون سلوك السادة المهذبين أمثالنا . لكن أحدا لا يستطيع أن يلومهم . لانهم خلقوا هكذا ولايعرفون كيف يسلكون سلوكا أفضل . فلايكفون عن استخدام أشد ألفاظ السباب بذاءة . والحقيقة أن اذلال النفس المتواصل الذى يضطرون اليه فى سبيل لقمة العيش يقضى على كل سمو فى مشاعرهم . فوق أنهم يمقتون العمل . لا يريدون أن يعملوا أبدا . بل ولا يريدون حتى أن يقدموا من وقتهم ما يقابل النقود التى يكسبونها . كل ما يريدونه حياة سهلة ميسرة ولا شىء غير ذلك . وذلك هو السبب فى أنى ضد الاشتراكية . هذه المادية الفجة شىء لا يحتمل . فالسعادة الكبرى كما يتصورها هذا الصنف من الناس تتمثل فى حياة من الكسل . هؤلاء المصلحون الاجتماعيون لن يفلحوا أبدا . لانهم لا يدخلون الطبيعة الانسانية فى اعتبارهم ، وينسون أنها ، بالفطرة ، طبيعة منحطة . ولو كان الناس حقا على ما يشتهى المرء من سمو وجدية اذن لاستطاع المرء أن يحقق أمورا كثيرة بهم . لكنهم ، للاسف ليسوا كذلك . وهكذا فانه لا فائدة من أى شىء . ولا يحصل المرء فى النهاية على شىء الا على صداع يشق رأسه نصفين .

عندما بدأ كوكس يتكلم ، اتخذ بيتشام وقفته المعهودة أمام النافذة ناظرا الى الميدان بأسفل ، حيث كان رجل فى عفريتة زرقاء يغسل الارض بخرطوم كبير فى ضوء الصباح الباكر ، وعربات الخضر قد

بدأت تقرقع عجلاتها آتية من الميناء ٠ فلما قال كوكس ما عنده ، فاجأه بقوله :

ـ ينبغى لك أن تتزوج يا كوكس ٠

فتعلق كوكس بتلك النصيحة تعلق الغريق بقشة ٠ قال كمن يحمل هموم الدنيا على قلبه :

ـ لعلك على حق ٠ ولعلى يجب أن أتزوج ٠ انى فى حاجة الى امرأة محبة تكون بجانبى ٠ هلا اعطيتنى يد ابنتك ؟

فقال بيتشام دون أن يستدير اليه :

ـ نعم ٠

ـ هل تأتمنى عليها ؟ حقا ؟

ـ بطبيعة الحال ٠

تنفس كوكس بصوت مسموع . ولو استدار بيتشام ونظر اليه لوجد انه لم يكن على ما يرام . فقد أرهقت الفضيحة أعصابه .

قال لبيتشام بلهجة لا تنبىء عن نفس هادئة مطمئنة :

ـ لن تجدنى زوجا سيئا لابنتك ٠ أنا أعرف عملى جيدا ٠ فوق أنى رجل مبادىء ٠ يجب أن نناقش هذا الموضوع جديا ٠ لقد أدركت طبعا أن هذا العمل الذى أقوم به مجز للغاية ٠ أنه مجز بحق ٠ لا تستطيع أن تتصور كم هو مجز ! وأنت نفسك متورط فيه ، حتى هنا ! لا أظنك تدرك حقا يا بيتشام مقدار الربح الذى يعود على من وراء هذا العمل ٠ لكنك قد كونت فكرة طبعا عن الطريقة التى أدير بها الامور ٠ وأنا الان مستطيع ـ بعد أن تم هذا التفاهم بيننا ـ أن أصارحك ببضعة أشياء ، خاصة وأن الامر قد قضى أو كاد ٠ أنت متورط حسبما أذكر فى حدود ما لا يقل عن سبعة آلاف جنيه ٠ ألا تصدقنى ؟ كم تظن ثمن السفن التى سوف نراها اليوم ؟ أنا ، بينى وبينك ، أعرف ثمنها الحقيقى ٠ انها سفن من الطراز الاول ٠ ونحن أو ، بالاحرى ، أنتم ، لن تحصلوا عليها بأقل من خمسة وثلاثين ألفا من الجنيهات ٠ ولولا أنى كنت بعيد النظر فحصلت على حق أسبقية التعاقد لاصبح ثمنها أكثر بكثير من هذا المبلغ ٠ وسوف يبدو لك لاول وهلة أنه بالرغم من ذلك كله ، سيظل هناك فائض لا يستهان به من التسعة والاربعين ألفا التى ستدفعها الحكومة . لكن الامر يبدو كذلك فى الظاهر فقط ٠ سوف تشترون السفن الجديدة وتبيعون القديمة نعم ٠ لكن الثمن الذى ستحصلون عليه لن يتجاوز القيمة التى قدرها مستشاركم الهندسى ٠ فهى لا تساوى أكثر من ذلك٠

ما زلت تذكر الثمن الذى قدره لها ، وهو مائتا جنيه لا أكثر .

كان بيتشام قد استدار الى محدثه من أمد طويل ، فأصغى اليه جيدا . والان بدأ يتشبث بيدين راعشتين بستائر النافذة . محدقا فى وجه كوكس كما تحدق الفريسة مسحورة فى وجه ثعبان ضخم موشك على أن يبتلعها بعد أن يهشم أضلعها .

ضحك كوكس واستطرد قائلا :

ـ لن تكون تكلفة الاصلاحات ، والرشاوى ، وعمولتى ، كبيرة طالما كانت السفن رخيصة فلم تكلفكم أكثر من أحد عشر الفا . لكن الامر يختلف تماما اذا كلفتكم خمسة وثلاثين ألفـــا ، أضف اليها الرشاوى الجديدة التى سيتعين دفعهـــا حتى تتمـــكن الشركة من استبدال السفن الخردة بالسفن الجديدة لئلا تطير الرقاب ـ ولن تقل تلك الرشاوى بحال عن سبعة آلاف جنيه . ما رأيك فى كل هذا؟!

بدا رأى مستر بيتشام فى غير حاجة الى ايضاح . بدا الرجل فى ضوء الفجر الشاحب كما لو كان قــد قام لتـــوه من مرض طويل مميت . وأسوأ ما فى الامر أنه كان قد حدس كل هذا من مبدأ الامر! لقد وقع فى يدى نصاب خطير ، ولم يقع بغير تحذير ، حدس ذلك منذ البداية ، ولو كان مستر بيتشام رجلا منففا لصاح قائلا :

ـ أين يكون أوديب الملك منى ؟ لقد ظل طيلة قرون بأكملهـــا مستأثرا وحده بلقب أتعس التاعسين فى العالم ، المثل الحى على ما توقعه نقمة الالهة من مصائب بالبشر ، وأشقى من ولدته امرأة على وجه البسيطة . ها ! اذا قورن بى أوديب هذا لتبين أنه انسان مجدود الحظ حقا . فقد تورط فى مسألة شائكة بغير علم منه . بل وقد بدت له تلك المسألة ، فى مبدأ الامر ، مستحبة . نعم كانت مستحبة بالفعل . كان من الممتع حقا أن ينام مع تلك المرأة ، كما كان من المريح أن يكف عن تشرده فى طول البلاد وعرضها ويجد له مستقرا، فى ذلك القصر الملكى ، فيؤسس أسرة سعيدة ، ويظل طيلة سنين بأكملها يقوم بواجباته كملك وزوج وأب دون أن يحمل هما ، أو ينغص صفوه منغص ، متمتعا باحترام الجميع واخلاصهم . ثم فوجىء ذات يوم بأن رابطة ذلك الزواج لم يكن من المستطاع أن تظل قائمة ، وانها يجب أن تنفصم ، فبات أعزب من جديد ، وحرم عليه فراش الزوجية من الآن فصاعدا وهنا ـ كما هى العـــادة ـ تكاثر عليه الحمقى والحاسدون . ولقد كان الجانب الاكبر من تلك الاحداث مزعجا ، أو لنقل أن تلك الاحداث كلها كانت مزعجة . ومع ذلك كانت هناك بلاد أخرى . كانت هناك دائما بلاد أخــرى للمشردين

أمثاله فوق أنه لم يكن لديه ما يلوم عليه نفسه ، فلم يكن قد فعل أى شىء كان بوسعه أن يتجنبه . اما أنا ! أنا كنت أعرف منذ البداية، كنت أعرف ! أنا وحدى الاحمق والمأفون ، ولذلك لا استحق أن اعيش . من الواضح تماما الان أن أى طفل يستطيع أن يضحك على ذقنى ويجردنى من نقودى ، وانى انسان أبله لا ينبغى له أن يعبر الشارع وحده خشية أن يخطىء فيعتبر مركبة الامنيبوس ورقة شجر تطيرها الريح ! وأنا من أولئك الذين يدفعون ثمنا باهظا فى الاسلحة التى يتم الاجهاز بها عليهم ، ويتبرعون أيضا بثمن قبورهم سلفا !

وفى أثناء ذلك كان منظر العجوز قد أثار ضجر مستر كوكس . فقال له بهدوء :

ـ من هذا كله ترى أنى زوج مثالى لابنتك .

تناولا الافطار معا بوصفهما أقارب . نطق بيتشام ببضع كلمات حذرة عن دكانة الآلات التى يديرها ، واستسلم السمسار الشهوانى لصورة عابرة خطرت بذهنه فتمثل فيها بشرة الخوخة الفاتنة . ثم ذهبا معا لمعاينة السفن .

وجدا سفينتين للبيع ، فى حالة جيدة جدا ، ولكن بثمن باهظ للغاية . قال كوكس أنه يعرف مكان سفينة ثالثة ، فى بلايموث ، وأن السفن الثلاث ستكلف الشركة ، على وجه التحديد ، ثمانية وثلاثين ألفا وخمسمائة جنيه ، وستبلغ عمولته من ذلك المبلغ مالا يقل عن ثمانية آلاف جنيه . ولما كان بيتشام قد نجا بعنقه من قطيع الاغنام الذى يساق الى الذبح ، وانضم الى الجزار ، فانه لم يثر أية اعتراضات ، كل ما فى الامر أنه ابدى لهفة ملحوظة للعودة الى بيته . فقد اختبأ فى دورة المياه لحظة وأجرى بضع عمليات حسابية على قطعة ورق ، تبين منها مقدار الخسارة الباهظة التى كان سيتحملها بغير بولى . ثم اجرى عملية أخرى ليتبين ما كان حريا أن يتحمله من أرباح كوكس التى سينتصب على الشركاء بقيمتها ، فهالته تلك الخسارة النظرية الى الحد الذى جعله يتوجع داخل دورة المياه بصوت مرتفع اجتذب انتباه أحد المارة فسأله ان كان بخير .

لكن بيتشام ، بعد تلك الزوبعة النظـــرية التى أثارها لنفسه بحساباته الافتراضية ، ثاب الى رشده ، فكف عن التفكير فى الخراب الذى كان معرضا له ، والخسائر الماحقة التى أوشكت أن تجتاحه ، الى التفكير فى الارباح الضخمة التى سيحققها من مال الشركاء باعتباره قريبا للسمسار .

أهم شيء الآن هو تهيئة الخوخة لفكرة الزواج من كوكس ولو كانت الفتاة عندها عقل لحمدت ربها على تلك الزيجة • لانه من أين لها أن تحصل على زوج كهذا • ان الرجل عبقرى ما فى ذلك شك •

***

لم يضيع ماكهيث وقتا فى القيام بالعمل الذى جاء من أجله الى ليفربول • ولاول مرة صحبته بولى الى دكان من دكاكينه الشهيرة •

طلع عليهما رجل ضخم الجثة نامى اللحية من غرفة داخلية مظلمة • كانت حوائط الدكان مطلية بالجير وقد رصت على الارفف بالات ضخمة من البضائع من كل صنف ولون : شباشب منزلية صفراء ، وكارتونات من أمشاط الثقاب ، وساعات جيب ، وفرش أسنان ، وولاعات سجائر، وأكوام من المصابيح ، وكراريس ، وغلايين •• قرابة عشرين صنفا •

عندما وقف الرجل على هوية زائريه ، فتح بابا واطئا فى مؤخرة الدكان ، ونادى على زوجته ، فظهرت الزوجة حاملة طفلا رضيعا بين ذراعيها ، والباب الذى دخلت منه يكشف عن غرفة بدروم صغيرة ذات نافذة واحدة ، استطاعت بولى أن تلمح فيها كومة مختلطة من الاثاث والاطفال •

كان منظر الزوجين قميئا بحق ، يعطى انطباعا غير سار بالمرة •

لكنهما كانا ممتلئين أملا • فالزوج واثق من أنه سينجح فى عمله ، مسرور لهذه الفرصة التى واتته ليستقل ويقف على قدميه ، وهو من أولئك الناس الذين لا يتراجعون بسهولة عن شيء بدأوا فيه •

وقد عززت الزوجة ذلك بقولها

— ان زوجى من أولئك الناس الذين لا يستسلمون أبدا •

كان وجهها منبئا عن جوع مزمن ونقص دائم فى التغذية •

لكن أحوال الزوجين ، فيما تبينت بولى من حديثهما ، لم تكن على ما يرام ، رغم اصرارهما على التفاؤل ، وتظاهرهما بروح معنوية عالية• نعم الايجار ليس مرتفعا ، لكن محصلى الشركة لا يسمحون بأى تأخير فى السداد • وشحنات البضائع ، التى تصل من مخـــازن ماكهيث الرئيسية ، لا ترد بانتظام ، كما انها تأتى دائما بكميات متفاوتة ، وباختيار عشوائى لاصناف البضائع ، ولا تسترد الكميات غير المباعة منها فتظل متراكمة فى الدكان حتى تحوله الى دكان مخلفات قديمة • وتلك هى المشكلة الرئيسية : ورود الصنف بكمية أكبر مما يجب ، أو أقل مما يجب • فالمشترى الذى يبحث عن حذاء ضد المطر لا وقت عنده لكى يعرض عليه صاحب الدكان ساعة جيب بدلا من الحذاء الذى

يريده ، ولو انه قد يفكر فعلا فى شراء مظلة ، ان كانت لدى صاحب الدكان مظلات • ولهذه الاسباب كلها تفوقت الدكاكين الاخـــرى فى المنافسة ، رغم أسعارها المرتفعة •

قال الرجل أنه، فى الحقيقة ،يجد صعوبة فى سداد ماعليه للشركة فى نهاية الشهر •

وهنا أوضح له ماكهيث ، بجلاء وهدوء ، أن منافسة تلك الدكاكين الاخرى الاكبر حجما منافسة غير أخلاقية ألبتة • لان أصـــــحابها يستخدمون اليد العاملة الاجنبية ، ويتعاملون مع أصحاب البنوك من اليهود ، فيتآمرون معهم على احداث ذبذبة فى الاسعار ، وارتباك دائم فى السوق • أما المحلات الكبرى ، فقد طمأنه ماكهيث الى أنها رغم ظاهرها الذى ينم عن ازدهار ، ينخر فيها الكساد ويتهددها الافلاس ، خاصة تلك المحلات التى يملكها شخص يدعى «أ•هارون»، فهى منهارة تماما من داخلها ، رغم بريقها الخارجى المزيف • ولذلك فان هذا هو الوقت الذى يجب أن تهب فيه دكاكين حرف «ب» بكل قواها لتخوض النزال الحاسم والاخير مع محلات هارون المتهـــاوية وسواها وتجهز عليها جميعا بغير رحمة ، وبغير هوادة • نعم ، لا يجب أن نظهر لهم أدنى رحمة •

أما فيما يتعلق بالايجار ، فقد وعده ماكهيث بتســهيلات معينة . كما وعد بأن تكون شحنات البضائع أصغر حجما ، وأكثر تنوعا • كما وافق أيضا على انتظام مواعيد التسليم • ولم يطلب فى مقابل ذلك كله الا مزيدا من الاعلان • فالزوجان يستطيعان أن يحـــررا الاعلانات التى توزع باليد ، والاطفال يستطيعون أن يقوموا بتوزيعها على العمال عند خروجهم من المصانع ، وسوف تزود الشركة الزوجين بالكميات اللازمة من الورق •

كان واضحا أن هذا الدكان لا تنقصه اليد العاملة من الاطفال • دخلت بولى الغرفة الخلفية لحظة ، على سبيل المجـاملة . نعم كان المكان نظيفا • لكن قطع الاثاث كانت رمزية للغاية ، ومحطمة • على كنبة مخلخلة بدت موشكة على التفكك رقدت امرأة عجوز تبين أنها أم صاحب الدكان • ظلت العجوز محملقة فى الحائط بنظرة عنيدة لا تحيد •

أحس الاثنان بالارتياح عندما خرجا الى الهواء الطلق ثانية • وقد لخص ماك رأيه فى هذه الحكمة العملية :

ـ أماأن يكونالمرء صاحبا لدكان حرف «ب»،أو أبا لقطيعمنالاطفال

فى زيارتهما للدكان الاخر ، (فلم يكن عدد دكاكين حرف «ب»
قد تجاوز اثنين في ليفربول بعد) ، فضلت بولى الانتظار خارجا حت
ينتهى ماك من أداء العمل الذى جاء لاجله • وقفت تنظر داخلا م
واجهة الدكان الزجاجية التى علقت فيها عدة «بذلات» أنيقة زهيـ
الثمن بشكل يدعو الى الدهشة ، قرأت ماك آخذا فى الحديث ،
شـــاب فى مقتبل العمر ، بدا من نحوله وامتقاع لونه أنه مريض
بالسل ، كان منهمكا فى قص مزيد من الحلل فوق منضدة خشبية
لم يتوقف عن العمل عليها طيلة الحديث لحظة •
وقد علمت بولى فيما بعد أن الشركة تزود ذلك الرجل بالاقمشة
كذا ياردة مقابل كذا بذلة يجب أن يكون سعرها زهيدا بطبيعة الح
هذا الرجل مثلا كان من المحتمل أن تتحسن أحواله لو كان أبا لاسـ
جسيمة العدد كأسرة ذلك الرجل الآخر ، لان كل أولئك الاطفال كـ
بوسعهم أن يساعدوه فى أعمال الحياكة ، والكى ، والتشطيب
لكن ذلك أمر يخصه هو • فطبقا لقواعد التعامل مع شركة حرف «ب
لم يكن صاحب الدكان مرغما على الخضوع لاية قيـود أو لوائح
سوى اداء مستحقات الشركة فى مواعيدها •
وقد أخبرها ماكهيث باعجاب كيف أن الرجل ألصق على المنضـ
التى يستخدمها فى العمل شعارا من احدى الصحف يقول « لا مكسـ
بغير شقاء » •
ذهبا بعد ذلك الى أحد تجار الجملة ، حيث اشترى ماكهيث رسا
كبيرة من شفرات الحلاقة وحصل من التاجر على فاتورة مؤرخة بتار
سابق • وبذلك انتهى عملهما فى ليفربول وبات بوسعهما أن يعودا الى لند
كانا قد اتفقا على ابقاء زواجهما سرا فى مبدأ الامر ، حتى لايزعـ
مستر بيتشام بغير داع • ولذلك رتبت بولى أمورها بحيث تعود ا
بيت أهلها بمفردها ، حيث تعمل على اسكات أمها (وكانت تحمل لـ
زجاجة من البراندى فى حقيبتها) ، ثم تكاشف أباها بالامر على مهل
عند عودته من ساوثمبتون •
لكنها لم تكد تخطو الى الدكان حتى وجدت مستر بيتشام فـ
انتظارها ، وقد عاد ، قبل مجيئها ، من ساوثمبتون ، فأشعل حر
حقيقيا فى البيت بسبب غيابها طوال الليل •
انتزعت أمها الحقيبة من يدها ، فأخرجت منها زجاجة البراندى
وقميص نوم اشترى فى ليفربول ، وثوب زفاف •
كان لظهور تلك الاشياء البسيطة التى لا ضر فيها وقع الصاعـ

فى الدكان ، حدث زلـــزال حقيقى مدمر . قيلت أشـــياء مخيفة ، ووقعت اشياء أفظع . ولكن منذأ الذى يحب مثل تلك المشاجرات العائلية ، ومن منا لا يفضل أن يمر مر الكرام بما قاله العجوزان لابنتهما الفتية ، ثمرة أحشائهما ؟ كل ما خفى انكشف فى ذلك اليوم المشهود ، وخرج كل شيء الى ضوء النهار ، ابتداء من حانة «الاخطبوط» وانتهاء بغرفة الفندق ذات الفراش المزدوج فى ليفربول . ولقد بدا واضحا ان اقتران اســم ماكهيث باســم ابنته كان ضربة قاضـية لمستر بيتشام . فعالم الجريمة السفلى على طول الجزر البريطـانية وعرضها ، وممتلكات ما وراء البحار ، كان كتابا مفتوحا بالنسبة اليه، وهو الذى اسماه الجميع (باحترام بالغ) فى سوهو ، ووايتشابل « بملك الشحاذين » . باختصار ، كان مستر بيتشام يعرف جيدا من هو ماكهيث .

لكن العار الذى لحق به نتيجة لتلك الزيجة التى ربطته بعـالم الجريمة لم يكن شيئا بجانب الخراب الذى بات موقنا منه على يدى مستر كوكس . فى لحظة واحدة ضاع شقاء العمر كله . لم يعد أى بيت من البيوت الثلاثة التى تلقى تحت سقفها ذلك النبأ الرهيب ، ملكا له . حتى المنضدة العتيقة النخرة التى استند اليها بعد أن تلقى تلك الطعنة الغادرة (المجردة من كل رحمة) من يد القدر ، لم تعد منضدته . لقد عاين هذا الصباح سفنا فى ساوثمبتون ، من المحتوم أن يسدد ثمن واحدة منها على الاقل من حر ماله . وابنته ، أمله الوحيد والاخير ، قد ضيعت جسدها الثمين ، متفضلة به على لص منازل حقير ، فوق فراش فندق رخيص فى ليفربول .

أخذ الرجل يجأر بأعلى عقيرته :

ــ ستكون نهايتى فى مستشفى المجاذيب . ابنتى ستودى بى الى عنبر المجانين ! أول شيء فعلته صباح اليوم عنـــدما استيقظت فى ساوثمبتون، بعد ليلة لم أذق فيها للنوم طعما ، انى ذهبت فاشتريت لها فستانا جديدا . ها هو ملقى فى مكبى . ثمنه جنيهان ! قلت لنفسى : « سآخذ لها هدية صغيرة تفرح بهـــا ، حتى تدرك حقيقة مقدارها عندى . غيرها من الاطفال يضطرون الى أعالة أنفسهم من سن مبكرة ، وتعوج أرجلهم من قلة اللبن . وأرواحهم يصـــيبها التشويه لانهم يضطرون الى رؤية الجانب البشع من الحياة قبـــل الاوان . أما ابنتى أنا فشربت اللبن باللتر ، دون أن تنزع قشدته . ولم تعرف منذ أن وعت الحياة الا الحب والحنان والتفانى فى رعايتها

وبدلا من أن تذهب لتشحذ لقمتها كغـــيرها ، تعلمت العزف على البيانو ! والآن ، لاول مرة فى حياتى ، أطلب منها شيئا ، أطلب منها أن تتزوج رجل أعمال محترم ، أهديها رجلا له مبادىء ، يعنى بهـا ويرعاها بقية حياتها . سوف تودى بى الى مستشفى المجاذيب ، لانى من اجلها غامرت بالدخول فى صفقة لا أفهم فيها شيئا . لمجرد أن أحصل لها على بائنة محترمة ! ماذا تظن هـذه المخلوقة المنحطة نفسها ؟ أنا ان ضبطت فتاة من فتيات المشغل مع المدير أطردها على الفور . الى هذا الحد أحرص على الاخلاق فى بيتى . فتذهب ابنتى وتتورط مع رجل أفاق له أكثر من زوجة ، همه الوحيد الحصول على بائنتها . والان يجب أن أفكر فى الطريقة التى أدبر بها أمر طلاقها من ذلك النصاب . ولكن ما الفائدة ؟ حتى اذا طلقتها ستكون قد ضيعت مستقبلها ، لان كوكس لن يغفر لها فعلتها أبدا . فهو رجل صاحب مبادىء ، ولديه أفكار لا يحيد عنها فيما يخص طهارة النسـاء ، فوق أنه ، فى الظروف الحالية ، صاحب اليد العليا ، ولديه كل الحق فى أن يتدلل ويدقق !

انكفأت خوخة على فراشها فى غرفتها الوردية منتحبة ، لا تجرؤ حتى على ارسال كلمة الى ماك ، الذى كان فى تلك اللحظة جالسا فى حانة الاخطبوط (أس المصائب كلها) فى انتظار اشارة منها ليقوم بالزيارة الحاسمة لابيها . وقد انتظر ماكهيث صابرا طوال الليل . وفى صباح اليوم التالى ذهب الى دكان الآلات .

وهناك قابله رجل ضخم الجثة ، جهم الوجه ، ذو هيئة تشـــير الفزع حقا ، فلم يكد ماك يفصح عن اسمه حتى أمسكه الرجل من قفاه ، فألقاه خارجا ، بغير كلام .

وبعد يومين تلقى رسالة مختصرة من الخوخة تحذره فيها من المجىء الى بيت أبيها تحت أى ظرف من الظروف . لكنها فى المســاء قابلته عند ناصية الشارع ، بعينين محمرتين قرحهما البكاء ، وأخبرته أن أباها يصر على بقائها فى البيت . وانه هددها ، فى حالة عصـــيان أوامره ، بأن يحرمها من الميراث ، وبأن يطلق الشرطة فى أعقاب ماك الذى قال لها أنه يعرف عنه ما فيه الكفاية .

أصغى ماكهيث اليها بهدوء ، ولم يقترح عليها الهرب أو أية حماقات من ذلك القبيل . فقط قال لها أنه يريدها لمدة خمس دقائق لا أكثر بين شجيرات الحديقة . لكنها لم تذهب معه .

وخلال الاسبوعين التاليين لم ير أحدهما الآخر الا مرة أو مرتين .

(٦)

« قد ذبت . لا الى الابد أحيا . كف عنى لان أيامى نفحة .
« ماهو الانسان حتى تعتبره وحتى تضع عليه قلبك ؟
« وتتعهده كل صباح ، وكل لحظة تمتحنه ؟
« حتى متى لا تلتفت عني ولا ترخيني ريثما أبلع ريقى ؟
« أخطأت . ماذا أفعل لك يارقيب الناس ؟ لماذا جعلتنى عاثورا
« لنفسك حتى أكون على نفسى حملا ؟
« ولماذا لا تغفر ذنبى ، ولا تزيل أثمى ، لانى الان اضطجع فى
« التراب ، تطلبنى صباحا فلا أكون . »

(سفر أيوب)
(٧ : ١٦ / ٢١)

حمام تركى

فى باترسى ، على ناصية شارعى فورنى ودين كانت تقوم منشأة قديمة بها حمامات للرجال فقط ، معظم المترددين عليها من السادة كبار السن . وهى منشأة بدائية بعض الشىء . فحماماتها براميل خشبية ، معظم ألواحها نخرة يتسرب منها الماء ، ومناضدها التى يتم تدليك الزبائن عليها مخلخلة ، موشكة دائما على السقوط ، ومناشفها قديمة ، تملؤها الثقوب من كثرة الاستعمال . لكن تلك المآخذ جميعا كانت تتضاءل أمام ميزة تتفرد بها هذه الحمامات . فهى تقدم لزبائنها حمامات طبية معينة ـ بالطلب طبعا ـ تستخدم فى اعدادها أعشاب خاصة لا يمكن الحصول عليها فى أى مكان آخر . ولم تكن تلك الحمامات الطبية مما يوصى به الاطباء ، بل كان الزبائن يقولون عنها الواحد للاخر ، ويوصون بها بعضهم بعضا . كانت تلك المنشأة تدعى « حمامات أبو ريشة » . وأسعارها متهاودة للغاية . والقائمات بالعمل فيها كلهن بنات .

كان مستر كوكس من زبائن ذلك المكان ، وقــد ألف أن يتردد عليه مرة كل أسبوع على الاقل . وقد اكتشف أصحاب شركةالنقل

البحرى ذلك ، فعودوا أنفسهم على الذهاب الى تلك الحمامات كلما ارادوا الاجتماع به .

كان الاستحمام يجرى فى أماكن صغيرة مسورة بالخشب يتم فى داخلها أيضا تدليك العميل بعد خروجه من الماء . لكن حمامات البخار والارائك التى يتمدد عليها المستحمون للراحة كانت كلها فى عنبر واحد كبير . فكان بالوسع أن يجتمع عدد من الناس ليناقشوا أمرا ما دون أن يزعجهم أحد ، خاصة اذا ما احتاوا كل حمامات البخار . وقد أصبح ذلك أمرا مألوفا فى المنشأة ، فأعدت لافتة مكتوب عليها « كامل العدد » لترفع أمام الخزينة فى مثل تلك المناسبات .

كان لقاء الشركاء يتم عادة فى يوم الاثنين . فالمنشأة تغلق أبوابها فى نهاية الاسبوع ، ولذلك فان العاملات يكن فى ذروة نشاطهن فى مطلع الاسبوع الجديد . والحقيقة أن كوكس بارع للغاية فى حساب هذه الاشياء ، واغتنامها .

فى بداية الامر اعترض معظم الشركاء على اختيار مكان كهذا لتعقد فيه اجتماعات الشركة . لكنهم - بعد أن جربوه - لم يكن من المستطاع منعهم من الاجتماع فيه ، ولو باستخدام القوة . فوق أن الجميع كانوا يراعون مواعيد الاجتماعات بكل دقة ، خاصة فى الاوقات العصيبة التى يبدو فيها أن أمور شركة النقل البحرى لا تبشر بخير .

حتى فينى العجوز المجفف لم يعد يتخلف عن الاجتماعات ، رغم مقته لكل أشكال الترف . قال ان حمامات الاعشاب الطبية تريح معدته أكثر من أى دواء جربه حتى ذلك الوقت . كان فينى يعتقد أنه مصاب بالسرطان ، وقد باتت لذته الوحيدة التحدث عن أعراض مرضه ، حتى أصبحت الفتاة ، عاملة الحمام رقم ٦ ، تعرفها عن ظهر قلب .

وقد انتظم بيتشام هو الآخر فى التردد على الحمامات ، مع اجراء تعديل واحد ، هو أنه احتجز لنفسه العامل الوحيد الذكر فى المنشأة ، وهو رجل بدين ضخم الجثة ، كان الزبائن كلهم يخشون بأسه ، لخشونته البالغة فى التدليك . ولم يكن بيتشام مدفوعا فى ذلك بأية خلاعة أزعجته لدى الفتيات ، لكنهن ، عندما يقمن بعملهن كن لا يرتدين ، بطبيعة الحال ، الا أقل قدر ممكن من الثياب ، وهو مالم يطمئن اليه بيتشام ، ففضل صحبة الرجال .

لم يكد بيتشام يعود من ساوثمبتون حتى اتصل بايستمان وأخبره بثمن السفن الجديدة ، وأفهمه فى الوقت ذاته ، أن الشراء يجب أن يتم ، وبغير ابطاء . كما قال ــ تعزيزا لهذا الراى الاخير ــ أن كوكس ، فى رأيه ، وغد ، ونصاب ، وقاطع رقاب لايتورع عن أى شيء ، وانه ــ دون أدنى شك ــ سيذيع أن الشركة جاهدة فى النصب على الحكومة بغية التخلص من السفن العتيقة النخرة ، وأنه ، منذ بداية الامر ، قد فعل كل مافى وسعه ، وناور ، وتآمر ، لتوريطهم جميعا فى تصرف يوقعهم تحت طائلة قانون العقوبات حتى يتمكن من ابتزاز أموالهم بالتهديد . والاسوأ من ذلك أن ربح عمليات التوريد فى الحرب لا تتجاوز ٣٠٠٪ ، لكن الشركة ، بتأثير كوكس ومناوراته ، وتحت توجيهه الذى لايستطيعون اثباته ، تعمل على تحقيق ربح لايقل عن ٤٥٠٪ ، مما سيزيد موقفهم سوءا ، ويثير ضجة كبرى . وقد وافقه ايستمان الرأى على أنهم لن يستطيعوا تسوية حساباتهم مع السمسار الا بعد أن يكونوا قد اشترواالسفن الجديدة . ثم قررا ان يتركا بقية الشركاء « على نار » ، لبضعة أيام أخرى ، والا يذكرا شيئا عن الاسعار الجديدة الباهظة الا فى يوم الاجتماع الاسبوعى بحمامات « أبى ريشة » ، الاثنين القادم . واذ ذاك يكون لوجود كوكس بينهم تأثير طيب ، لا العكس ، لانه سيعطيهم أملا فى رفع الثمن الذى ستشترى به الحكومة .

برغم تلك التوقعات ، لم تمر المناقشات التى دارت بين السادة الشركاء السبعة ، فى الحمام التركى ، صباح يوم الاثنين التالى ، بغير توتر أو شحان .

عندما بدأ ايستمان كلمته ، التى ألقاها وهو يأخذ حمام البخار ، كان مون مدير مصنع النسيج ، وفينى والبارون ، قد تمددوا على ارائكهم يستريحون ، وبيتشام مازال تحت التدليك ، بينما جلس كراول صاحب المطعم على مقعد بكامل ثيابه ، رافضا الاستحمام ، أما كوكس فكان يقوم بتمرينات رياضية .

بدأ ايستمان كلمته بحث الشركاء على أن يصرفوا نظرا عن أى أمل فى بيع السفن القديمة . قال نعم ، كانت خطة عظيمة ، لكن ها قد تبين أنها مستحيلة ، وقال ان الشركة تستطيع انتتوقع من صديق كوكس الذى فى الاميرالية مساندة نشطة وبناءة لقاء الخمسة آلاف جنيه التى تم تزبيت بده بها عن طريق كوكس ، لكنها لايمكن طبعا أن تتوقع من ذلك المسئول أى تواطؤ فى عملية

نصب واحتيال كهذه . ثم ان ذلك ليس كل ما فى الامر . فالخمسة الاف جنيه كانت عن العملية الاولى ، لكن تكتم الفضيحة التى يمكن أن تثار بسبب محاولة الشركة أن تبيع أنا الجميلة ، والولد البحار ، والمتفائل ، الى الحكومة ، والعمل على احلال سفن جديدة محلها مع نقل تلك الاسماء اليها تجنبا للمساءلة الجنائية وتهمة الخيانة ، كل ذلك سيكلف الشركة سبعة الاف وخمسمائة جنيه أخرى ، تدفع أربعة الاف منها فورا ، وثلاثة الاف وخمسمائة عند اتمام العملية ووفاء كل طرف من الاطراف بتعهداته كاملة . وما على السادة الشركاء ، لئلا يصيبهم فالج ، الا أن يعتبروا تلك المبالغ جميعها ثمنا لدرس ثمين قد تعلموه ، فلا أحد يتعلم مقابل لا شيء فى هذه الدنيا .

رقد بيتشام على وجهه طيلة تلك الخطبة ، مستسلما للتدليك العنيف ، مشاهدا باهتمام بالغ مباراة صامتة ومخيفة فى التصبب عرقا كانت ناشبة بين ايستمان البدين فى حمام بخاره ، وكراول الجالس على مقعده الخشبى بكامل ثيابه محملقا فى وجه ايستمان بنظرة هلع لا توصف . والواقع أنه بعد خروج مربى الاغنام من الشركة ، وحلول بيتشام ــ بنصيب ثان ــ محله ، بات صاحب المطعم أضعف لبنة فى بنيان شركة النقل البحرى . كان منذ البداية يشكو مر الشكوى من تدهور أعماله وسوء حالته عموما ، ولا يكف عن الاشارة الى سيف ما كان يراه دائما معلقا فوق رقبته. وكان ذلك ــ فى واقع الامر ــ هو دافعه الى الدخول ، بحماس زائد ، فى مشروع شركة النقل البحرى الذى بدا واعدا بأرباح طيبة . ولقد أقترض أول اسهام له فى رأسمال تلك الشركة من حمبه . والان هاهو قد دخل فى تلك المباراة الغريبة مع صاحب العقارات. عندما بدأ ايستمان ، الذى لم يكن قد بدأ يتصبب عرقا بعد ، فى الحديث عن الصعوبات المحيطة بالعثور على سفن للنقل فى ذلك الوقت ، بدأت قطرات كبيرة من العرق تتفصد من جبين كراول وتسيل على وجهه . وعندما وصل ايستمان الى لب الموضوع كله وبدأ يتكلم عن الارقام (٣٨٫٥٠٠ جك) ، ٧٫٥٠٠ جك ، وما الى ذلك ، وتفصدت من جبينه ، بدوره ، القطرات الاولى الصغيرة من العرق ، كان صاحب المطعم قد وصل الى مرحلة بات يسبح خلالها فى عرقه .

وهو ما جعل بيتشام يقلب فى ذهنه افكارا كهذه :

ـ الى هذا الحد العظيم يفوق تأثير العوامل الروحية كل تأثير للعمليات الجسدية البحتة . حقا ان الجسد الانسانى كله فى قبضة الذهن والروح معا !

والحقيقة أن التأثير المخيف لذلك الشقاء الداخلى الطاحن لم يقتصر على هذين السيدين وحدهما بل تخطاهما الى السادة الآخرين أيضا ، فانعكس على مظهرهم وسلوكهم . فينى مثلا ، الذى كان ، فى أفضل حالاته ، جبانا رعديدا ، أخذ يلطم كالنساء ، ومون أخذ ينهنه كأمراة عجوز . لو شهدت عاملات المغطس ذلك المشهد المحزن ، لعجبن كثيرا لذلك الضعف من جانب أولئك الرجال الفحول الاقوياء . لكن المرأة مهيأة ، بطبيعة الحال (على النحو الذى ثبته البحث العلمى) لتحمل الالم أكثر من الرجل .

حتى مستر بيتشام ، رغم استمتاعه بمشاهدة وجوه شركائه فى تلك اللحظة الحاسمة ، لم يستطع أن ينسى الكارثة المخيفة التى أصابته بزواج ابنته على غير مايهوى .

عندما انتهى ايستمان من كلمته ، وخرج من حمام البخار ، كان أول المتكلمين صاحب المطعم ، فقال بصوت أجوف شبحى أنه قد أفلس اذن وحل به الخراب الكامل الشامل ، ويجد لزاما عليه ، لذلك ، أن يرجو السادة الشركاء الا يعتمدوا عليه بعد اليوم ، وأن أية أسئلة أو استفسارات قد يرغب أحد فى توجيهها اليه يجب أن توجه الى محاميه .

وأضاف أن حماه رجل مسكين طاعن فى السن ، قد بلغ السابعة والثمانين ، وانه اقترض النقود التى أسهم بها فى الشركة من تأمين الشيخوخة الذى يعيش منه ذلك العجوز المسكين ، بأمل تهيئة مستقبل أفضل ، متحرر من الحاجة ، لابنته . وأن أطفاله الصغار (أطفال كراول) فى الثامنة والثانية عشرة من العمر . وهنا قال ايستمان ، وهو يجفف ساقيه السمينتين ، أن الامور لم تبلغ ذلك كله من السوء ، لكن مون عارضه محتدا ، مما ضايقه كثيرا .

اذ ذاك وجه فينى انتباههم الى مرضه الخطير (الذى يحتمل كثيرا أن يكون مميتا) ، وأعلن عن شكه فى أن يتمكن من الحصول على المبلغ المطلوب . فأجاب ايستمان غاضبا أنه هو أيضا يستطيع ان يفكر فى أوجه أخرى ، أفضل بكثير ، ينفق فيها الثلاثة آلاف جنيه المطلوبة . أما البارون فلم ينبس بكلمة . فقد أنفق أهله الكثير على تربيته .

بينما تلك المعمعة دائرة ، كان كوكس قد أنتهى من تمريناته الرياضية وبات بوسعه أن يستدير الىأغنامه فيوجه اليها طعنة الموت. كان مرتديا لباس استحمام وردى اللون ، وحذاء أسود من المطاط .

قال لهم :

ـ سادتى ، نحن لم ننته بعد . لقد سمعتم الثمن الذى تستطيع شركتكم ان تحصل فى مقابله على سفن حقيقية تصلح لان تبيعها شركة محترمة الى حكومة صاحبة الجلالة . ولا أظنكم ستدهشون اذا علمتم أن النقود وحدها لاتستطيع أن تصلح مافسد وتخرجكم من هذه الورطة . فهذه السفن الجديدة ، مثلا ، لايمكن الحصول عليها مقابل النقود فحسب .

فى تلك اللحظة بدأ كراول يضحك بغير صوت . جلس فى مقعده الخشبى ، عائما فى عرقه ، وقد حل به الخراب الكامل ، فأخذ يهز رأسه الشحيم ويضحك بغير صوت .

تلك الضربة الثانية لم تصبه بشىء ، لان الضربة الاولى كانت قد أجهزت عليه . رمقه كوكس بارتياب ثم استطرد قائلا :

ـ ليس لدى شك فى أنكم ، بعد كل هذه الخيبة ، قد فقدتم كل ثقة فى أنفسكم. لكن المصيبةأن ذلك الشعور ليس مقصورا عليكم. فلستم الوحيدين الذين فقدوا كل ثقة فى شركة النقل البحرى . نحن أيضا فقدنا ثقتنا فيها . وصديقى زميل الدراسة الذى فى الاميرالية لا يقبل أن يستمر فى التعامل مع شركتكم الا اذا أدرت أنا بنفسى شخصيا كل أعمالها .

وهنا ازداد انهيار السادة الشركاء الذين كانوا جميعهم ـ باستثناء صاحب المطعم ـ عرايا ، وبالتالى فى تلك الحالة المحرجة التى يقال ـ طبقا للتعاليم الدينية ـ أنهم سيقفون بها ، فى خاتمة المطاف ، أمام عرش الله . دفع بيتشام مدلكه السمين جانبا ، وهم جالسا على منضدة التدليك المخلخلة . فذلك الذى يقوله اللعين كوكس كان جديدا عليه مثلما كان جديدا على الاخرين .

لكن كوكس لم يلتفت الى أى منهم ، فاستمر فى قوله غير عابىء ، باعتبار أن مايقوله لهم أمر مقضى به ومنته :

ـ وفى رأينا أنه قد يكون بالوسع تسوية هذه المسألة المؤسفة على الوجه التالى : فشركتكم قد دفعت حتى الان ٨٢٠٠ جك ، ثمنا لاشياء معينة ، لا علم لنا بها ، ونفضل ألا نتحدث عنها .

وحسبما سمعت ، يبدو أنكم أنفقتم مبلغ ٥٠٠٠ جك على اصلاحات معينة قصد بها تحسين تلك الاشياء التى اشتريت . وفى الوقت ذاته قبضتم من الحكومة مبلغ ٥٠٠٠ جك . وطبقا للاتفاق المبرم بيننا ، تلتزمون قبلى بدفع سمسمرة قيمتها ٢٥٪ من ثمن البيع ، أى قرابة ١٢٢٥٠ جك ، ولصديقى الذى دفعتم له حتى الان ٥٠٠٠ جك ، مبلغ اضافى قدره ٧٥٠٠ جك على دفعتين ، كما أوضح لكم شريككم السيد ايستمان منذ قليل . وبالاضافة الى تلك المدفوعات سيكون هناك طبعا مبلغ ٣٨٠٠٠ جك ، لشراء السفن الجديدة . فيكون حاصل جمع ذلك كله قرابة ٧٥٠٠٠ جك ، ويصل اجمالى ماتقبضونه من الحكومة ٤٩٠٠٠ جك ، بالاضافة الى مبلغ ٢٠٠٠ جك اصرح من الان بأنى على استعداد لدفعه مقابل تخليصكم من الاشياء الثلاثة التى اشترتها شركتكم ولا أود أن أحددها ، فلست محاميا . ولا تنسوا أن مستشاركم الهندسى قدر قيمتها بما لا يزيد على ٢٠٠ جك ، لكنكم أنفقتم على اصلاحها حتى الان ٥٠٠٠ جك ، وأنا أحب دائما ان اتوخى العدل فى تقديراتى . فاذا ماخصمتم هذه المقبوضات الاخيرة من اجمالى مدفوعاتكم لوجدتم أن خسارتكم فى جملتها لن تتجاوز ٢٦٠٠٠ جك . ولست بحاجة طبعا الى ان أذكركم بأن البديل الوحيد لذلك هو السجن عشرين عاما ، وهو مصير اعتقد أنكم توافقوننى الرأى على أنه رحيم للغاية بعد ما حاولتم اتمامه من صفقات مريبة فى هذه الآونة الحرجة . أيها السادة . ان الطريق الوحيد والاخير للخلاص مازال مفتوحا أمامكم . وطريق الهلاك أيضا . فاذا شئتم السير فى الطريق الاخير فانى على استعداد لان أعيد اليكم الشيكات التى يبلغ مجموعها ٥٠٠٠ جك والتى أعطيتموها لى لحساب صديقى الذى فى الاميرالية فهى مازالت معى .

لم يشك من باتوا يعرفون كوكس جيدا من الشركاء فى أن تلك الشيكات كانت لا تزال معه ، كما لم يشكوا لحظة فى تصويره للموقف كله . بدا الان واضحا أن العملية كلها رتبت بدهاء شديد من جانب كوكس ، منذ أول خطوة فيها . وأن كافة الاطراف متورطة فيها حتى العنق ، باستثناء كوكس وحده . فذلك المسئول الذى فى الاميرالية سيجد نفسه فى ورطة خطيرة ، حتى بعد اعادة شيكات الرشوة وبعد حلف اليمين كذبا والشهادة زورا ، لان شيئا لن يجدى فى تغيير الواقع الماثل فى أنه اشترى للحكومة سفنا لم يرها

او يعاينها . أما الشركة فان ورطتها أفظع ، ولن يجديها فى شىء أن تطير رقبة ذلك المسئول ـ الذى فى الامبرالية ـ أو لا تطير . لان الشركة ، بعلم من أصحابها جميعا ، وبقصد مبيت ، اشترت سفنا نخرة لا تصلح لركوب البحر ، رغم تحذيرات الخبراء ، لكى تنصب بها على حكومة صاحبة الجلالة فى زمن الحرب .

تركهم كوكس ينضجون على مهل . ثم طلب أن يفوضه الشركاء السلطة كاملة ، حتى يتمكن من انهاء العملية على أتم وجه ، خطوة بخطوة . ولكن بشرط : أن يقوم الشركاء بكل شىء حتى لحظة التسليم النهائى للسفن الجديدة الى الحكومة واذذاك فقط ، بعد أن تصبح العملية نظيفة وقانونية مائة فى المائة ، يدخل هو فى العقد مع الحكومة : أى فى اللحظة التى تكون السفن الجديدة السليمة قد باتت معدة فيها للحلول محل التوابيت العائمة القديمة .

والى أن يتم ذلك يجب أن تستمر عمليات الطلاء والترميم على السفن القديمة على قدم وساق ، خشية أن يقع تفتيش مفاجىء . وهكذا فان السيف يظل معلقا فوق عنق شركة النقل البحرى حتى اللحظة الاخيرة .

ولم تكن الشركة قد عادت بها قدرة على الاحتجاج .

وهكذا فانه عندما دعاهم كوكس الى حفل غداء صغير فى مطعم مجاور ، احتفاء بتلك المناسبة ، لم يجد أحد منهم فى نفسه القدرة على الرد عليه . فقال السمسار بسرعة من لاوقت لديه أنه لايستطيع بأى حال من الاحوال أن يمهلهم أكثر من ثمانية أسابيع لتسليم السفن الجديدة ، ثم انصرف مسرعا قبل أن يخرج أحد من الاخرين .

***

قرر الشركاء أن يكلوا حساب كافة النفقات الجديدة الى ايستمان وبيتشام ، وأن يجتمعوا ثانية ، بمجرد أن يكون هذان الاثنان قد أتما حساباتهما ، فى يوم الاثنين المقبل على أكثر تقدير . فقد بلغت أحوال الشركة مرحلة بات من المستحسن فيها تجنب أية اجتماعات رسمية ، والتظاهر بأن اللقاء صدفة فى أحد المطاعم يكفى .

أما بيتشام فكان فى حال يرثى لها من القلق .

كان يحاول الان جاهدا أن ينضم الى جانب كوكس . ولكن كيف ، وابنته ذاتها لم تعد ملك يمينه يستخدمها كيف شاء ؟ من يدرى ما الذى سيحدث له الان .

فى صباح كل يوم كان يذهب الى رصيف الميناء حيث كانت

السفن الثلاث تموج بالحركة كخلايا نحل . فى كل مكان كان رجال يعملون المناشير والمطارق ويضعون طبقة من الطلاء ، وقد وقفوا معلقين على سقالات متأرجحة ، أو فى أقفاص هشة معلقةمن السلك.
فيقف بيتشام ضائعا وسط ذلك النشاط وجسده كله ينتفض .
كانت الشركة تقتصد الى أقصى حد فى المواد : الخشب ، والحديد، وحتى الطلاء ، وتشترى ماتشتريه منها من أرخص الاصناف .
ومع ذلك فان هذه العملية المهولة كلها كانت خسارة كاملة ومالا يتبخر فى الهواء .

بعد ذلك كان بيتشام يسارع بالعودة الى ورشته . وهنا أيضا كان العمل على قدم وساق ، والشحاذون يتوافدون على المكتب ليدفعوا أتاواتهم الى بيرى الذى يحصل النقود منهم وهو يقارن حصيلة كل منهم بأرقام مسجلة فى قائمة بيده ، ويستمع الى ما يقدمونه من أعذار لانخفاض ايراداتهم باذن خبيرة متشككة ، ثم يفصل فى المشاجرات التى تنشب بينهم بسبب التعدى على المناطق ، ويرتب ماتتخذ من اجراءات ضد الدخلاء . وفى حجرات المشغل تتراص الفتيات ، محنيات الظهور على المناضد الطويلة . فالعمل هنا لاينتهى . طلبيات ورشة الشحاذة عندما يتم تنفيذها ، تعقبها طلبيات أخرى تورد الى دكاكين الملابس القديمة وتجار الروبابيكيا.
وفى غرفة أخرى يجلس صناع الالات الموسيقية مكبين على اصلاح الات النفخ ، والقرب الاسكتلندية ، والات البيانولا ، بينما عدد من الشحاذين يستمعون الى الحان جديدة ، ويأخذون وقتا طويلاقبل أن يقر قرارهم على لحن بعينه . أما الفصول المدرسية فالتعليم فيها لاينقطع ، فى مختلف فروع المعرفة . فى أحد الاركان وقفت عجوز مفضنة تعمل فى المساء حارسة فى أحد مراحيض السيدات تعلم فتاة فى مقتبل العمر كيف تبيع الزهور .

وقف بيتشام وسط ذلك النشاط يتنهد . ما جدوى هذا كله وسمع المرء مشدود فى كل لحظة الى وقع أقدام على الدرج تأتى خاملة النبأ المخوف بأن البوليس ينتظره بأسفل ؟

ابنته هى الملومة فى كل هذا .

فنتيجة لشهوانيتها المفرطة التى لا تعرف حدودا ، والتى ورثتها بغير شك عن أمها ، وبسبب ما سهلته لها أمها أيضا من تجارب آثمة ، ذهبت البنت فسلمت جسدها الى شخص أكثر من مشئوم .
ثم انذلك الزواج الفورى يثير ريبا شديدة، ويبدومحوطا بالغموض.

لابد أن شيئا مخيفا قد وقع . لكن مبادئه فيما يخص التباعد الواجب بين ذوى القربى كانت تمنعه من أن يخوض مع ابنته فى أحاديث حميمة مخجلة حول أخص شئونها . فوق أن الحديث عن هذه الاشياء لاينجم عنه الا الضرر ، لانها أشياء لايجب أن تحدث ، والكلام عنها يجعلها فى حيز الممكن ، وبذلك يفقد المرء سلاحه الرئيسى قبلها ، وهو رفضه أن يصدق أن شيئا كهذا يمكن أن يقع .

والمهم فى ذلك كله أن بيتشام فى مسيس الحاجة الى ابنته . وان زواجها المشئوم ذاك يجب أن يلغى . فهو لا يشك لحظة فى أن كوكس لن يتردد فى قبول بولى زوجة له حتى بعد ما حدث لها . فقد لاحظ لهفة السمسار العمياء فى ساوثمبتون ، وبات موقنا من أن ذلك الفاجر عبد لشهواته الجسدية .

ومن جانب اخر فان ماكهيث يبدو متساهلا بشكل لافت للنظر فيما يخص بقاء زوجته بعيدة عنه تحت سقف أبويها ، ولا يحدث أية متاعب حقيقية ، بل ويدع نفسه يلقى خارجا فى عرض الطريق دون أن يتخذ أى اجراء مضاد ، فوق أنه ، على حد علم بيتشام ، لم يصرح باسم زوجته لاحد حتى آلان . لا شك أن تهديده بحرمان بولى من الميراث قد أحدث الاثر المطلوب . من الواضح للغاية أن الرجل متلهف الى النقود . ولعله فى حاجة ماسة اليها . والفتاة نفسها تبدو راضية ببقائها فى بيت أبويها ، ولا يبدو أنها تخرج للقاء زوجها الا فيما ندر .

ليس من شك فى أن دكاكينه حرف « ب » هذه فكرة بارعة ، وهى تستدرج الفقراء الى انفاق مدخراتهم فيها بطريقة تنم عن ذكاء . لكنها فى الوقت ذاته ، بدائية للغاية ، فهى فى حقيقة امرها لاتزيد عن كونها جحورا مظلمة ، مطلية حيطانها بالجير ، وقد كومت فيها ، كيفما اتفق ، أكوام من البضائع على أرفف خشبية عارية ، وأصحابها أناس ينضحون بالفقر والقذارة ، لايفارق العبوس وجوههم . لكن من أين تأتى كل هذه البضائع الرخيصة ؟ مازال مصدرها سرا غامضا .

ولقد حاول بيتشام بالفعل — عن طريق شحاذيه — أن يتصل ببعض دكاكين حرف « ب » . لكنه لم ينجح فى ذلك ، لان أصحاب الدكاكين تشبثوا بصمت مطبق ، وأظهروا عداء شديداً تجاه الشحاذين الذين يكرههم كل التجار عادة ، فوق أن أحدا منهم لم

يكن في حقيقة الامر ، يعرف شيئا عن مصدر تلك البضائع .

لكن بيتشام حقق نجاحا افضل من ذلك فيما قام به من تحريات حول ماضي ماكهيث . فقد كشفت تلك التحريات عن فترة بأكملها من عمر الرجل ، طالت بضع سنين ، بدت مغلفة بذلك الغموض الذى يجعل سير الكثيرين من كبار رجال الاعمال مفتقرة عادة الى البيانات الدقيقة . « فعمالقة الصناعة والمال » يظهرون عادة ، فيما يبدو ، بطريقة مفاجئة ومباغتة للغاية ، من قلب الظلام ، بعد كذا وكذا من السنين التى يكونون قد عانوا « شظف العيش » فيها ، والتى لا تتضمن سيرهم أى بيانات عنها .

اتجه بيتشام فى تحرياته الى منافسى ماكهيث . فادعى صغار المنافسين أن الرجل فى شبابه غير البعيد أدين فى أكثر من زيجة زائفة ، واطلقوا على الفتيات اسم « عرائس حرف ب » ، لكنهم لم يستطيعوا أن يقدموا أية بيانات أو عناوين تؤدى الى الاتصال بهن . ولم تكن فى ذلك كله جدوى . لان مثل هذه الشائعات المبهمة لايمكن أن يفعل المرء بها شيئا . لكن شيئا واحداً بدأ مؤكدا: أن حياة الرجل يمكن تعقبها ، رجوعا وهبوطا ، بشكل أو بآخر ، الى العالم السفلى : عالم الجريمة المنظمة ، وأن أساليبه كمجرم ناجح كانت ، الى عهد قريب ، أكثر جرأة ، وقسوة ، وأشد صراحة فى خروجها على القانون ، مما هى الان .

من بين المصادر التى لجأ اليها بيتشام فى تحرياته ، مجلة « العاكس » ، التى ادعت فى وقت ما أن تحت يدها أدلة تثبت اتهامات معينة فى حق صاحب محلات حرف « ب » . لكن محررى المجلة ــ عندما ذهب اليهم بيتشام ــ كانوا يعانون من فقدان ذاكرة جزئى فيما يبدو ، لانهم قالوا أنهم لا يذكرون من تلك المسألة الا أشتاتا مبهمة ، ثم غمغموا شيئا عن عدم كفاية الادلة . وهكذا فان بيتشام اضطر أن ينصرف دون أن يكتشف شيئا . لكنه أحس أن أولئك الناس يعرفون وقائع معينة ، وأن تحت أيديهم بالاضافة الى ذلك ، أدلة مادية . لكنه ليس لديه وقت . لم يبق أمامه الا ثمانية أسابيع : فاما ابنته واما الدفع .

***

لم يكذب كراول ، صاحب المطعم . فقد تبين أنه لم يكن يملك مالا يدفعه فحسب ، بل وأنه كان ينتظر أرباح شركة النقل

البحرى على أحر من الجمر · فلما ضاعت الصفقة أفلس افلاساتاما ·
وبالاضافة الى ذلك ظهر البارون ـ وكان شابا فى مقتبل العمر ـ بوجه مكفهر فى أحد اجتماعات الشركاء ، وأعلن أنه عاجـز عن الدفع . قال انه يملك اقطاعية مرهونة فى اسكتلندا ، وأنه موشك على أن يوضع تحت الوصاية . جرت تلك المقابلة فى مكتب بيتشام، وحضرها ايستمان · عامل الرجلان الفتى كما لو كان حيوانا مريضا · لكنه صارحهما بأنه مازال هناك احتمال واحد : أن يتزوج فتاة ثرية ، وأن هناك بالفعل امرأة اميركية مطلقة ، فاحشة الثراء ، على استعداد لشراء اسمه العريق ، وثقافته الاوربية ، وأنها منجذبة بوجه خاص الى الاثاث العتيق الذى شاهدته فى بيته الريفى ، والى الكراسى فوق كل شىء .
لم يكد يتبين للرجلين من استجواب الفتى أن تلك المرأة الاميركية ، رغم قبحها ، ابنة أحد ملوك اللحم على الشاطىء الاخر من الاطلنطى، حتى هدداه بالفضيحة الكبرى التى ستلوث اسم عائلته اذا ما لحق بهم الخراب وافلست شركة النقل البحرى وألقى بأصحابها فى السجون · فخرج الفتى مذعورا بعد أن وعدهما بأن يحسن معاملة تلك الثرية الاميركية ، بصرف النظر عن ساقيها اللتين تشبهان ساقى حصان · لكن البارون ظل ـ رغم ذلك ـ من اللبنات الضعيفة فى صرح شركة النقل البحرى الذى كان موشكا على الانهيار .
سبق اجتماع الشركاء الذى حدد لعقده يوم الاثنين ، اجتماع جانبى بين كوكس وبيتشام . استمع كوكس بهدوء بارد الى نبأ الانهيار النهائى لكراولى ، ونبأ الضائقة التى يمر بها البارون ، ولم يزد تعليقه على النبأين عن قوله أنه لايملك الا أن يتعامل مع شركة النقل البحرى ككل ، وانه ينصح بتقليم الفروع الفاسدة من جذع الشركة الام ، محذرا فى الوقت ذاته من أن الشركاء المطرودين يجب أن يكون هناك ضمان كاف لصمتهم المطبق·
ثم أخذ بعد ذلك يتحدث عن بولى · اعترف لبيتشام بأنه لا يستطيع أن يكف عن التفكير فيها · قال ان تلك التجربة المخيفة التى مر بها فى ساوثمبتون وشهدها بيتشام قد غيرته تماما من داخله . بمعنى أن خصالا حميدة كانت كامنة فيه ظهرت على السطح بغتة . وأنه بات يحس فى نفسه الان ظمأ غريبا الى الطهر والنقاء . وان بولى الان أصبحت وثنه المعبود حقيقة . وانها

تتراءى لعينيه كنبع ماء سلسبيل فى صحراء قيظ محرقة . وأن بضع دقائق يقضيها فى الحديث معها تسبغ قداسة على الاسبوع كله ، بجده ولهوه . قال ذلك كله ببساطة ، وهو ينظر الى بيتشام مواجهة ، دون أن تطرف له عين . فأصغى بيتشام بانتباه شديد والطمأنينة تشيع فى نفسه مع كل كلمة . أدرك الان أن تسوية مسألة السفن بينهما لن تصطدم بأية صعوبات . وفى قرارة نفسه كان محبذا بكل قوة لتعبيرات كوكس الحذرة . أعجب بالسمسار حقيقة لبراعته فى اللف والدوران .

ذهب بيتشام الى الحمام التركى بمفرده . وجد الآخرين قد سبقوه وجلسوا فى انتظاره . كانوا كلهم جلوسا على مقاعد خشبية ، فى كامل ثيابهم ، رغم أن جو المغطس كان حارا ورطبا بدرجة لا تطاق .

أخبرهم بيتشام أولا بتوقف كراول والبارون عن الدفع .

جلس كل من هذين المحترمين فى مكانه ناظرا أمامه نظرة لاتحيد ، ولو أن ابتسامة ما أرتسمت على شفتى البارون .

استطرد بيتشام قائلا أن الخسارة الاجمالية ، كما قدرهاكوكس تماما ، ستكون قرابة ٢٦٠٠٠ جك . أى أن كل شريك سيتحمل بمبلغ ٣٨٠٠ جك يجب أن يؤديه الى الشركة . فمن مصلحة الجميع أن تجرى الامور بيسر وهدوء ، وبغير فضائح ، ما أمكن .

ثم عرض عليهم أن يحصل لهم على معاونة البنك الذى يتعامل معه ، وهو بنك الائتمان الاهلى ، بشرط أن يفوضوا اليه سلطة ادارة الشركة والتصرف فى شئونها كاملة .

تمددوا كلهم فى مقاعدهم يتصببون عرقا ويومئون برءوسهم علامة التسليم . حتى كراول والبارون هزا رأسيهما ببلاهة .

نظر بيتشام الى هذين الاخيرين بصرامة ثم أخذ يتكلم ثانية . فطالب صراحة بأن يوقع كل من كراول والبارون على سندات اذنية بحصة كل منهما فى الخسائر وأن يوقعا فى الوقت ذاته على اعتراف تفصيلى من جانبهما بمسئوليتهما التضامنية فى كل ماحدث فيقرران أنهما باعا الى الحكومة السفن الخربة القديمة ، بعد أن عايناها ، وسمعا رأى خبير بحرى فى مدى صلاحيتها للابحار ، وتبينا أنها لا تصلح البتة ، وأنهما رغم ذلك لم يتورعا عن قبض

مقدم ثمنها من حكومة صاحبة الجلالة فى زمن حرب وبلاء ، مؤكدا أن هذا المستند الضار للغاية لن يستخدم طبعا ، وسوف يعاد الى موقعيه بعد أن بسددا حصتهما فى التزامات الشركة، لانه لايمكن ان يستخدم استخداما فعالا فى حقهما دون أن يسىء الى سائر الشركاء ايضا ، ألا أنه سيضمن للشركاء أن يقفل كل من كراول والبارون فمه جيدا فلا يأخذا فى الثرثرة وافشاء اسرار الشركة .
وقع البارون الوثيقة والسندات الاذنية باستسلام واضح ، دون أن يفهم من أمره شيئا الا أنه بات مقضيا عليه الان ان يتزوج « العنزة العجوز » بلا أدنى تأخير أو مماطلة . أما صاحب المطعم فوقع نعم ، لكنه وقع توقيع انسان أصابته لوثة .
أخذ يهذى قائلا أنه لايستطيع أن يلحق مثل هذا العار بزوجته وأبيها العجوز البالغ من العمر سبعة وثمانين عاما . كيف ، كيف بالله يعترف على نفسه بأنه باع سفنا خربة نخرة غير صالحة للابحار للحكومة بلاده فى زمن حرب وبلاء ؟ لايمكن . حموه كان ضابطا فى الجيش ، كان كولونيلا . ثم انه لن يجرؤ ، بعد توقيع وثيقة كهذه ، على النظر فى عيون أطفاله الصافية البريئة ، لايجب أن يكون لهؤلاء الملائكة أب مجرم . لقد قاوم الاغراء دائما وامتنع عن الانغماس فى أى عمل غير شريف بغية الحصول على المال ، وذلك هو السبب فى أنه وصل الى تلك الحالة من الافلاس . فالشرف عنده أغلى من كل خسارة مادية . قال والدموع تسح على خديه وهو يوقع وانفه فى الرغام :
ــ خربتم بيتى أنا الآن رجل محطم .
واجهش باكيا ، فأحدث أثرا بالغ السوء فى نفوس الآخرين ، وسبب لهم غيظا شديدا .
قال آيستمان لشريكه وهما ينصرفان :
ــ هذا الرجل كراول . انه ليس انجليزيا بالمرة . فوق أنه سوقى . انظر الى البارون مثلا . لقد وقع كما يجب أن يوقع الرجال . وسوف يتزوج مخلوقة بشعة بحق، دون أن يشكو أو يعول، كرجل .. الحقيقة أن المرء قبل ان يدخل فى شركة مع أحد يجب أن يتأكد من أصل شركائه وفصلهم .

***

أما بيتشام فركبته التعاسة بعد ذلك الاجتماع . فالعقد مع الحكومة سيسلم الى كوكس بمجرد أن تكون شركة النقل البحرى

قد أوفت بتعهداتها قبل الحكومة على أكمل وجه وباعتها سـفنا تستطيع حقا أن تركب البحر ، وهو ـ حتى الآن ـ لم يتوصل الى أى اتفاق ملزم مع كوكس يضمن له نصيبا فى الارباح الهائلة التى سيحققها السمسار من هذه الصفقة اللولبية ، بل ولم يحصل منه حتى على وعد بتعويض خسائره . ولم يكن بيتشام من السذاجة بحيث يتصور أن اتفاقا كهذا يمكن أن يتم بينه وبين كوكس ، دون أن تكون بولى قد أدخلت فى الصفقة .

وقد تجنب بيتشام التفكير فيما يمكن أن يحدث اذا مافشل فى التوصل الى اتفاق مع كوكس . فالشركة الآن أصبحت قائمة على ثلاثة فقط يمكن تحميلهم بخسارتها الفادحة هم ايستمان ، وفينى ، ومون . فاذا لم يتسن احتلاب المال اللازم لشراء السفن الجديدة من هؤلاء الثلاثة وحدهم ، سينتهى الامر بكارثة فظيعة .

فهو الآن محتاج الى كوكس أكثر من أى وقت مضى .

جلس ذات مساء الى بولى فحدثها عن السمسار ، وقال لها أنها يجب أن تكون لطيفة معه . ولا يجب ـ تحت أى ظرف من الظروف ـ أن تدعه يكتشف شيئا عن حكاية زواجها . ثم أوضح لها أنه متورط مع كوكس فى عملية متعلقة بتوريد عدد من السفن ، وأنه متورط فى الحقيقة حتى عنقه ، بحيث « أن البيت والورشة وكل شىء نملكه يمكن أن يباع ونجد أنفسنا مشردين فى الطريق » .

فلم تكد بولى تسمع هذه الانباء المفزعة حتى نظرت حولها بذعر ، وكأنها تودع الغرفة الودود المألوفة ، بأرضها العارية النظيفة ، وموقدها ، وستائرها الموسلين ، وأثاثها الموجانو العتيق . كانت تحب البيت القديم الذى نشأت فيه حبا شديدا ، خاصة أفنيته وشرفاته الخشبية . وفى تلك الليلة ، لان حديث أبيها دار حول السفن ، حلمت أن البيت ، الذى يتألف فى الواقع من ثلاثة بيوت ، كان يغرق فى البحر ، وأن الامواج أخذت تدخل من أبوابه .

فى صباح اليوم التالى كانت قد أوشكت أن تحزم أمرها على التضحية المطلوبة منها . قالت لنفسها :

ـ والله أنا لا أريد أن يحملنى أحد بوزر ما قد يحدث لنا ، ولا أريد أن أدع أحدا يقول انى تخاذلت عن التضحية . نعم ليس من السهل على البنت منا أن تعطى نفسها لرجل لاتحبه ، خاصة متى كان شكله مثل شكل مستر كوكس . لكن الاسرة هى الاسرة ، والانانية خصلة سيئة . لايجب أن يفكر الناس فى أنفسهم فقط .

ظلت فى فراشها ، فأخذت تفكر فى البروش الذهبى الذى رأته فى بيت كوكس والذى كان قد بات لاينفصل فى ذهنها عن السمسار ثقيل الظل ، عندما أرادت الحصول على ذلك البروش أرادت ذلك لتبيعه وتحصل على الخمسة عشر جنيها استرلينيا التى كانت تحتاجها آنذاك على وجه السرعة ٠ وهى الآن ليست بحاجة الى تلك النقود ٠ لكنها مازالت تود أن تحصل على ذلك البروش ٠

بعد الغداء ذهبت الى كوكس بخطاب من أبيها . تكلفت البرود والتباعد مع أبيها وهو يعطيها الخطاب . فقد انتهت الى ان أباها لم يكن معرضا للخراب كما قال ، وان كل ما فى الامر انه لا يطيق ماك ويريد أن يخلصها منه بأية طريقة . ولقد تكلفت نفس البرود مع كوكس ، ولم تكد تنظر الى البروش الذى كان لايزال ملقى على المكتب ، حتى أدركت أنها لاتزال واقعة تحت تأثيره ٠

أجلسها كوكس فى مقعد هزاز ، بعيدا عن المكتب ، وأعطاها عددا من الكتب مجلدة تجليدا أنيقا . لكنها لم تنظر الى تلك الكتب وهو جالس يقرأ الخطاب ، فهم واقفا ، وخرج من الغرفة . وعندما عاد كان وجهها ملتهبا .

ولم يكن التهاب وجنتيها لما رأته فى كتبه ، ولكن لانها كانت قد عقدت العزم على الحصول على ذلك البروش . قالت لنفسها :

ـ والله ان كان على استعداد لان يعطينى اياه حقا فان الامر لن يستغرق خمس دقائق . وربما اقل من ذلك . لانه لايمكن أن يعطى شيئا مقابل لاشىء ، بمثل هذه السحنة . والبروش يساوى ٢٠ جك على الاقل ، وسيكون شكله جميلا على ثوب مفتوح . طبعا لن أدعه يحصل على شىء أكثر من قبلة . أو ، على الاكثر ، يضع ذراعه حول خصرى . هذا ثمن غير باهظ فى سبيل الحصول على حلية كهذه . هناك فتيات فى مثل سنى يضطرون الى ماهو أسوأ ليحصلن على لقمة العيش أو ايجار المسكن . الحقيقة أن الرجال مجانين اذ يعطون بسخاء هكذا مقابل هذه الاشياء . لكنهم خلقوا هكذا !

وتنهدت ، وبطبيعة الحال اتقدت وجنتاها ، بحيث تصور السمسار عندما عاد الى الغرفة أنها رأت ما أرادها أن تراه فى تلك الكتب المؤذية ، وأنها واقعة تحت تأثير مارأته . فعبر الغرفة بثبات ، وهو يلوح بالرد ، الذى كتبه على خطاب أبيها ، حتى يجف حبره ، وانحنى عليها . همت الفتاة واقفة عندما رأت وجهه .

كان قد اطمأن الى أن أخته ليست فى البيت . وضع الخطاب على

المكتب ، واستدار فجأة فعانق بولى . ولم تقاومه هـــذه الاخيرة بشدة ، وان كانت قد أحست بالاسف لكونها لم تحصل على البروش أولا وتطمئن عليه فى جيبها ، لكنها استسلمت على أى حال لان الرجل بدا كالمجنون من فرط مابه . ومع ذلك فانها لم تســـتمتع بالامر كثيرا ، لانها فى منتصف الطريق تذكرت ماك ، وأحست أنه حرى بألا يوافق على أى شىء من هذا كله .

وعندما انصرفت من بيت كوكس ، كان مداد رده قد جف . عادت الى البيت فوضعت الخطاب على مكتب أبيها ، ثم صعدت الى غرفتها حيث أخذت تحزم حقيبتها . وبعد نصف ساعة لا أكثر كانت قـد غادرت البيت من الباب الامامى ، فى غير خفية .

كانت قد سمعت أن ماكهيث يقضى معظم وقته مع امرأة أخرى هى تلك المرأة فانى كرايزلر التى تدير محل العاديات قرب جسر ووترلو .

سرعان ما اكتشف غياب بولى . فسهر الاب والام فى انتظارها الى مابعد منتصف الليل . وقف بيتشام الى النافذة كدأبه ، فأخذ يقول :

ــ اذن فقد جاء وأخذها رغم كل شىء . يظن أنه يستطيع أن يفعل ذلك بغير عقاب . طبعا . ان أمثاله لايعرفون معنى القانون . كلما أراد شيئا مد يده فأخذه ببساطة . ومتى احس رغبة فى قضـــاء الليلة مع ابنتى جاء فأخذها من بيتى غير عابىء وذهب فقضى الليلة معها . بشرتها اللعينة هى السبب فى كل هذا . جعلته يجن بها . وأنا الذى دفعت ثمن كل شىء . لكن ماحيلتى فى شهوانية أمها البليدة وبلاهتها هى التى عادت عليها من قراءة الروايات ؟ هذه هى النتيجة . ولكن ماهذا الذى أقوله ، كما لو كان الامر يتعلق بالحب حقا ! كما لو كان رجل مثل هذا يشتهى امرأة لشىء الا لبائنتها ! انه يريد أن يحصل على مالى ، فيأتى ويأخذه . وأنا الذى أفنيت عمـرى فى سبيلها . ما الذى يجعلنى أقضى العمر كله مع حثالة الانسانية ؟ هذا الرجل ماكهيث أشبه بحيوان القرش ! وأنا اذا تنازلت له عن ابنتى الوحيدة التى هى عضدى فى شيخوختى وسندى الوحيد ، سيسقط البيت كله على رأسى . والجوع يتهددنى . والخراب أيضا .

لكن بولى لم تعد ، لا تلك الليلة ، ولا بعدها ، الى أن ألقى القبض على زوجها .

وفى الوقت ذاته لم يكتشف مستر بيتشام أن ابنته ، بدلا من أن

تثير شهية السمسار ، كما أرادها أن تفعل ، ذهبت فأشبعتها .
طيلة الايام القليلة التى أعقبت ذهاب بولى ، أخذت مسز بيتشام تشرب الخمر أكثر من أى وقت مضى ، ودأبت على الذهاب الى العسكرى السابق فيوكومبى ، وهى فى تلك الحالة من السكر ، لتحدثه عن متاعبها .
لم يكن العسكرى الاعرج قد غفر لبولى سرقة كتابه ، حتى بعد أن استعاد الكتاب . فى بداية الامر أحجم عن استرداده ، على سبيل الكبرياء . لكنه مالبث أن خسر معركته مع نفسه ، فاستسلم لرغبته التى لاتقاوم فى استعادة كتابه ، وصعد الى غرفة بولى ذات يوم ، ساعة الغداء ، فأخذه .
لكن حبل دراساته الهادئة فى دائرة المعارف مالبث أن انقطع بسبب الاشياء التى أخذت مسز بيتشام تحدثه عنها .
عندما أخبرته الام الملتاعة بأن ابنتها التعسة بولى قد ذهبت فتزوجت ذلك الرجل ماكهيث ، تذكر تلك الفترة السوداء من حياته ، عندما فقد ساقه ، وسرح ، وسرقت منه نقود التعويض : فآوته زوجة عسكرى آخر فى بيتها . صاحبته هذه كانت تدعى مارى سوير ، وتدير دكانا من دكاكين حرف « ب » . ولسوء الحظ لم يلزم العسكرى فيوكومبى الحذر ، فأفلتت منه بمسمع من مسز بيتشام ، بضع كلمات تشير الى هذا كله . فكان أن استدعاه مستر بيتشام فى المساء الى المكتب ، وكلفه بمهمة يقوم بها .
ففى الميناء كانت ثلاث سفن نخرة ، وعدد من العمال يطببون هياكلها المتآكلة دون جدوى . تلك التوابيت الثلاثة الخربة ، قبل أن تتحلل تماما وتغوص فى قاع البحر الى الابد ، كان متعينا أن تلعب دورا أخيرا رسمه لها ذهن ملتو فى رأس رجل اسمه كوكس . ذلك الدور سيتمخض عن احتلاب مبالغ جسيمة من المال من عدد من الجيوب ونقلها الى جيب مستر كوكس البارع . بين تلك الجيوب المهددة بالخراب العاجل الناجز جيب يتمثل فى منشأة كبرى لبيع الالات الموسيقية النصف عمر فى شارع أولد أوك . ومن المتعين انقاذ هذه المنشأة من ذلك الخراب ، بأية طريقة ، وبأى ثمن .

الفصل الثانى

قصة مقتل صاحبة الدكان

مارى سوير

فالقرش له أنياب فى وجهه
تستطيع أن تراها
أما ماكهيث فلديه بدل الانياب مدية
فى مكان لاتراه .

من شاطىء التيمز الطويل يسقط
انسان تبتلعه مياهه الخضراء فجأة
لم يقتله طاعون أو يأخذه وباء ، ولكن
زاره ماكهيث فانتهت أيامه .

سام ماير مازال مفقودا
وكم من رجل ثرى قد تم ترحيله
للعالم الآخر ، والى جيب ماكهيث انتقل ماله
ولا أحد يستطيع أن يثبت شيئا .

وعندما وجدوها ، جينى تاولر ،
والمدية مغمدة فى صدرها ،
كان ماكى العظيم على الرصيف يتمشى ،
لا يعلم من أمرها شيئا .

وأين هو الفونس جليت ، الرجل الجوذى ؟
وهل سيرى ضوء النهار ثانية ؟
لعل هناك قلة من الناس تعرف ...
لكن ماكى لا يعلم من أمره شيئا .

سبعة اطفال ورجل عجوز
احترقوا أحياء فى حى سوهو ...
ووسط الحشد يقف ماكى ليتفرج
لايسأله أحد ، ولا يعلم هو من الامر شيئا .

فالقرش تصطبغ زعانفه بلون قرمزى
عندما يسيل دم ضحيته ، ويحمر خطمه ،
لكن ماكى العظيم لايخلع قفازه أبدا
فلا يستطيع أحد أن يرى الدم على يديه .

(جرائم ماكى السكين)

(٧)

مستر ماكهيث

لو سألت أحد اللندنيين ـ خاصة من انطبق عليه وصف « رجل الشارع » منهم ـ رأيه فى خطورة الدور الذى يلعبه فى حياة العاصمة مشاهير الرجال من أمثال « جاك السفاح » ، أو ذلك القاتل المجهول الذى اشتهر باسم « السكين » ـ لبراعته فى استخدام المدية ـ لقال لك اللندنى أن دور هؤلاء السادة ، رغم الصيت الذائع ، ليس خطيرا ، من منهم يستطيع أن يطمع ، بمجهوداته الفردية المحدودة ، فى منافسة الجنرالات الكبار الذين يديرون دفة الحرب فى الترنسفال ؟ فوق أن هؤلاء الاواخر يمثلون تهديدا أعظم لأعداد من الناس أكبر ، بما لايمكن أن يقاس اليه جهد أشد أبطال السكاكين الفرديين نشاطا واستماتة فى أداء الواجب . ومع ذلك كله ، فان شهرة السفاح ، المعروف باسم « السكين » ، أطفأت بريق كثيرين من أولئك الجنرالات الذين يخوضون بجيوشهم حرب البوير ، لدى الاهالى ، فى أحياء شعبية كحى لايمهاوس وحى وايتشابل . ولا غرو ، فأولئك الناس المكدسون فى مساكن وايتشابل الشعبية بضخامتها الحجرية التى تعطى ايحاء بالكهوف ، خير من يدرك الفرق بين انجازات أولئك الجنرالات المرفهين وانجازات أبطالهم المحليين . بطل مثل ماكى السكين مثلا ، كانوا يدركون بجلاء أنه ينفذ جرائمه ـ التى يخططها ببراعة ـ معرضا نفسه لمخاطر شخصية أعظم من أى خطر يمكن أن يتعرض له أى جنرال من أولئك الابطال الرسميين الذين تكرسهم الكتب والصحف والمجلات .

فلايمهاوس ووايتشابل يتفردان بتاريخهما الخاص وبمنهجهما فى تلقينه . ذلك التلقين يبدأ منذ الطفولة المبكرة ويقوم به أناس فى مختلف الاعمار . لكن أفضل أولئك المعلمين جميعا الاطفال أنفسهم ، لانهم ـ بفضول الطفولة الذى لايشبع ، وقدرتها على الاستيعاب ـ يلمون بكل كبيرة وصغيرة عن الاسر المحلية الحاكمة ، فى مختلف مجالات الحياة ، فى أحيائهم .

بين الدروس الاولى ، المتعلقة بتكنيك البقاء ، التى يتعلمها أهل تلك الاحياء منذ الصغر ، أن السادة الحاكمين ـ فى أحيائهم ـ يعرفون

جيدا ، مثل قرنائهم من السادة الحاكمين الرسميين الذين تظهر صورهم فى الكتب المدرسية - كيف يعاقبون رعاياهم الذين يرفضون أن يدينوا بالولاء الكافى وأن يؤدوا ما يفرض عليهم آداؤه من جزية . وهم - كغيرهم من الناس - يتبعون فى ذلك كله تقنينا غير مكتوب يحدد ماهو صواب وماهو خطأ ، مايمكن أن يفعل ومالاسبيل الى فعله ، لكن صفوفهم - بالضرورة - تضم عددا من الضعفاء أقل ، لأن البوليس دائما فى أعقابهم ، وهو مالايحدث للاخرين . ومن الطبيعى أنهم - مثل الاخرين تماما - يحاولون أن يظهروا على غير حقيقتهم ، فيزيفون التاريخ ويصنعون الاساطير فيلقنونها لرعاياهم .

ومن المعروف طبعا أنه فى كل زمان ومكان تظهر من بين ظلمات الكتل البشرية المغمورة شخصيات متفردة مسيطرة تندفع الى أعلى وتحلق فى السماك كالشهب . وتتفاوت تلك الشخصيات . فالعوائق والصعوبات التى قد بذلها البعض - ممن لايقلون موهبة - فى حقب بأكملها ، يكتسحها أولئك اكتساحا فيزيلونها من طريقهم فى أسابيع ، بضع جرائم جريئة يرتكبونها من مبدأ الامر بثبات ومهارة الصانع الخبير المتمكن - فاذا بهم فوق القمة . لكن الرجل الذى أطلقت عليه أحياء لندن الفقيرة اسم « السكين » لم يكن ممن يحق لهم أن يدعوا لانفسهم مثل ذلك الصعود المبهر السريع . غير أنه حاول على اى حال أن يدعى ذلك ، بصرف النظر عن مدى أحقيته . وقد عاونه فى ذلك معاونوه المقربون ، أو أفراد عصابته ، فحاولوا ، ماوسعهم ، أن يتكتموا بداياته الوضيعة ، وفترة تلمذته ، التى لاتشرف ، فى عالم الجريمة .

ورغم أنه لم يكن من المؤكد أن الرجل الذى كون العصابة كان هو « السكين » فعلا ، فانه أصر ، بالحاح شديد ، أمام أعوانه ، أنه القاتل ستانفورد سيلز بلحمه وعظمه ، وكانت تلك هى الطريقة الوحيدة التى توصل بها الى الابقاء على تماسك عصابته . رغم أن الرجل الذى أعدم فى سجن دارتمور ، عام ١٨٩٥ ، قيل عنه - على لسان البوليس لا على لسانه هو - أنه ستانفورد سيلز الحقيقى .

كانت الاعمال العظيمة التى قامت عليها شهرة « السكين » سلسلة من جرائم القتل ، تتابعت بسرعة ، واحدة وراء الاخرى ، ارتكبت كلها فى عرض الطريق . تلك الجرائم هى التى دفع الرجل الذى اعدم فى دارتمور حياته ثمنا لها .. لكنه من المعروف ان الناس يرفضون أن يصدقوا موت أبطالهم الشعبيين ، تشهد بذلك فى الازمنة

الحديثة حالات عديدة كحالة كتشنر وكروجر . وهكذا فان عددا من جرائم القتل التى ارتكبت فى شتاء عام ١٨٩٥ نسبت على الفور الى البطل الشعبى الذى اشتهر باسم « السكين » ، رغم كل استحالة عملية . فلا الرجل المشنوق الراقد فى جبانة سجن دارتمور ، ولا ذلك الآخر الذى اتخذ لنفسه اسم شهرته كانا بقادرين على ارتكاب تلك الجرائم .

لكن ذلك لاينتقص من قدر الاخير ، لان القسوة ،وانعدام الرحمة، والمكر التى استخدمها فى ارغام غيره من المجرمين على التنازل له عما يستحقونه من شهرة بسبب جرائمهم ، كانت أشد فظاعة من معاملتهم لضحاياهم ، وليس هناك مايفوقها صفاقة الا الطريقة التى يضع بها بعض أساتذة الجامعات أسماءهم على مؤلفات مساعديهم .

من المحتمل أن تكون تلك الجرائم قد ارتكبت بدافع الجوع ، لان ذلك الشتاء كان قاسيا ، والبطالة كانت عظيمة . لكن هذا الرجل الذى اتخذ لنفسه اسم « السكين » بغية تنظيم عصابته ، كان يعانى من ضعف شائع بين أولئك الذين يتحركون فى أوساط مألوفة لدينا — نحن الذين نشترى الكتب — أكثر من غيرها . فهومثل الناجحين من رجال الصناعة والمال ، والمؤلفين ، والعلماء ، والسياسيين ،الخ ،كان مولعا بقراءة أنباء جرائمه فى الصحف ، بشرط ألا يتصور أحد أنه يرتكبها بأى دافع مادى ، أو بغية الكسب ، بل كرياضة تشبع عنده شهوة خلاقة ، أو — على الاقل — يدفعه اليها حافز شيطانى لا تفسير له .

وهكذا فان المقالات فى الصحف الصفراء كثرت واجمعت على تعزيز الطابع الرياضى كعنصر أساسى فى جرائم « السكين » .

ومن المحتمل أيضا أن هذا الشيطان ، شأنه فى ذلك شأن أصحابنا المشاهير الآخرين ، كان مولعا، فوق ولعه بمتابعة أخباره فى الصحف ، بمتابعة أرقام حساباته فى البنوك . وأيا كانت الحال ، فانه سرعان مافطن الى أن الانسان عندما يستغل غيره يحصل على أعظم الربح وأسهله ، وهى حقيقة كافية بذاتها ، متى فطن اليها المرء ، لضمان مستقبل ناجح مزدهر .

فى مبدأ الامر كانت العصابة صغيرة ونشاطاتها محدودة ومتواضعة . وفجة . فقد ظلت ترتكب جرائم السرقة بالاكراه ، وجرائم السطو المسلح المتسم بالوحشية ، وان كان ذلك النوع الاخير من الجرائم أقل حدوثا — فى سجل العصابة — من سابقه . لكن البراعة الحقة

ظهرت مبكرة فى بعض الوسائل التى اتبعت فى تصريف البضـــائع المسروقة ، أو ، بالاحرى الاسلاب والغنائم • وقد ملأت أنباء احدى تلك الوسائل صحافة العالم أجمع .

فذات يوم دخل سيدأن يتصفان ببنية قوية قاعة الطعام فى احد المطاعم الانيقة بهامبستد . وقفا لحظات يجيلان البصر فى الغرفة ثم تقدما فى حزم من سيد أنيق الملبس كان جالسا يأكل بمفرده ، فقال أحدهما بصوت مرتفع سمعه كل من فى المطعم :

ـ هاهوذا ! جالس ينفق نقودى ! اسمى كوبر واسمه هوك•هاك يا سيدى المحضر • هذا أمر البيع وهذا هو الحجز • والحكم مشمول بالنفاذ المعجل • هذا الخاتم الذى فى اصبعه يساوى مائتى جنيه على الاقل ، والعربة التى تنتظره فى الخارج تساوى مبلغا لايستهان به . سترى عندما نبيعها فى المزاد !

وفى هذه المرحلة من الاجراءات اضطر النذل ـ كما هي العادة ـ الى كف السيد المدين عن مهاجمة دائنيه عديمى الكياســـة ، فما لبث المدين أن هدأ ، وأعلن أنه لاينكر دينـــه ، لكنه معترض على الطريقة الفظة التى يحاول بها هذان السيدان الاستيلاء على مقتنياته • وانتهى المشهد بخروج الرجال الثلاثة مع بعض رواد المطعم ، الذين اجتذبتهم الضجة ، لمعاينة العربة • تم المزاد بسرعة فى حانة مجاورة فانتقلت ملكية العربة ، والخاتم ، الى مشتر اعتبر نفسه مجدود الحظ حقا •

وفى أعقاب المزاد اختفى المدين ، والدائن والمحضر ،معا ، حاملين الى « السكين » غنيمتهم • وبهذه الطريقة المبتكرة التى تكررت اكثر من مرة كان يحصل من بيـــع العربات والمجـــوهرات المسروقة على أضعاف الثمن الذى كان حريا بأن يحصل عليه لـــو قام بتصريفها بالطرق التقليدية ، عن طريق تاجر من تجار المسروقات •

تلك كانت طريقة • لكنها ـ بطبيعتها ـ لم تكن تحتمل التكرار الى مالا نهاية • لذلك كان من المتعين ابتكار غيرها ، للتخلص من تاجر البضائع المسروقة • فذلك الصنف من التجار هو السرطان الحقيقى لمهنة السرقة • لان عملية الحصـــول على البضاعة نفســـها لم تكن بالصعوبة التى تواجه تصريفها • لذلك ظلت عملية تحويل الغنيمة الى مال سائل هى أضعف حلقة فى العملية كلها • وعلى صخرة هـــذه العقبة الكئود تحطمت كل المحاولات المخلصة التى بذلت لتوســيع نشاط العصابة •

فى اخريات عام ٩٦ اختفى « السكين » اختفاء يكاد يكون تاما عن أنظار العالم السفلى ، وفى نفس الوقت تقريبا ظهر رجل مســـالم

يدعى جيمى بيكيت افتتح دكانا فى حى سوهو لبيع البلاط ، ثم مالبث أن الحق بدكانه شادر احشاب صغير فى قطعه أرض فضاء مجاورة .

وقد انحصر نشاط مستر بيكيت فى مبدأ الامر فى تتبع أخبار البيوت القديمة الموشكة على أن تهــدم ، ليشترى من أنقاضـــها البلاط والاخشــاب ، مع حرص بالغ وتدقيق فى الحصول على الفواتير .

ويبدو أن مستر بيكيت كان على حق فى حرصه ، لأن وباء حقيقيا مالبث أن انتشر فى وايتشابل ، انحصر فى سرقة البلاط لا من أنقاض البيوت ، بل من شوادر التجار . أسطول صغير منظم من العربات ظهر فجأة ، وأخذ ينقل كميات من ذلك البلاط الى جهة غير معلومة ، بينما عمال الشوادر فى الحانات ساعة الغداء ، فى وضح النهار .

ولم يفكر أحد بطبيعة الحال أن فى الامر سطوا ، فلم يحاول أحد ان يعترض طريق اللصوص . وعندما اكتشفت السرقات أمــكن تتبع البضائع الى دكانة السيد بيكيت . لكن السيد بيكيت استطاع أن يخرس البوليس بفواتير لا مطعن فيها تثبت ملكيته القــانونية لكل بلاطة وجدت عنده .

لكن الامر لم يتوقف عند ذلك الحد . فقد سرق شارع بأكمله فى حى الميناء ، عيانا جهارا تحت أبصار المئات . كان ذلك الشـــارع مرصوفا بكتل خشبية . وقرب المســـاء ، بينما حركة المرور على أشدها ، ظهر عدد من عمال البلدية ومعهم عربة فأقفلوا الشــارع بالحواجز فى أوله وآخره ، وبمنتهى الهدوء انتزعوا الكتل الخشبية فحملوها على عربتهم ، ورفعوا حواجزهم ، وذهبوا الى حال سبيلهم .

ولم ينشر أى شىء عن تلك الفضيحة فى الصـــحف لان المجلس البلدى كان غارقا حتى أذنيه فى ذلك الوقت فى تحقيق طويل عريض حول شركة من الشركات الكبيرة استطاعت ــ بطريقة قانونية للغاية ــ أن تضع يدها على عدد من الشوارع كان قد تم رصفها بمعرفة عدد من الشركات الصغيرة ، وادعت أنها هى التى رصفتها ، ثم طالبت البلدية بالسداد ، وكان للشركة ما أرادت ، رغم أنها لم تمد الى تلك الشوارع يدا . ولذلك فان السلطات تكتمت أخبار ذلك الســـطو الجرىء حتى لايأخذ الناس كدأبهم فى عقد المقارنات بين هذه الحكاية وتلك .

ومن محاسن الصدف أن انتشر وباء من القتل فى تلك الآونة . فنسبت تلك الجرائم جميعها الى عصابة « السكين » ، مما زاد من قدر العصابة كثيرا . ولو أن تلك الجرائم لم تكد تحظى الا بأقل اهتمام

من الصحف ، لان ضحاياها كانوا جميعا من احط طبقات الانسانية . فمعظم الضحايا كانوا من المجرمين الذين قتلوا فى مشاجرات دموية منظمة ومدبرة سلفا .

الحقيقة أن شكوكا لها ما يبررها ثارت حول نسبة هذه الجرائم الى العصابة . وفى تلك الآونة ذاتها ، كفت العصابة عن سرقة البلاط والشوارع ، ووجهت نشـــاطها الى السرقة على نطاق واسع من المحلات التجارية .

كانت العصابة قد أصبحت تضم ــ فى عام ١٨٩٧ ــ أكثر من مائة وعشرين عضوا ، وقد تم تنظيمها بحرص وعناية ، بحيث لم يكن هناك أكثر من عضوين أو ثلاثة يعرفون « الزعيم » بالنظر . وقد ضمت المنظمة بين صفوفها تخصصات عديدة شـــملت عددا من المهربين ، وتجار المسروقات ، والمحامين . والغريب أن « السكين » (أو الرجل الذى اتخذ لنفسه ذلك الاسم) كان لصا لايقام له وزن فى عالم اللصوص ، وكان هو أول من يعترف بذلك . لكنه كان منظما عظيما . والكل يعرف أن أكاليل الغار توضع كلهـــا فوق رءوس المنظمين ، فى هذا العصر ، اذ يبدو أنهم لا غنى لاحد عنهم .

والواقع أن عصابة السكين نجحت ، فى وقت قصير لايصدق ، فى فرض سيطرتها الكاملة على كل ماله صلة بالسطو على المحـــلات التجارية ، الى حد أن بات من الخطر المتزايد أن يقحم أى لص يعمل لحسابه الخاص نفسه على ذلك المجال من نشاطات العالم السفلى . بل ولم تجد العصابة أى مأخذ فى ادخال البوليس شريكا معها ، علنا. فالكل كان يعلم أن لمستر بيكيت أصدقاء أقوياء فى سكوتلانديارد .

ومن تلك المشاركة الخلاقة ، استنبطت العصابة وسيلة فعـــالة لتقوية نظامها الداخلى والضرب على أيدى المنحرفين من أفرادها . فأى عضو من أعضائها يخرج عن الحدود المرسومة له أو يفشل فى القيام بما كلف به ، سرعان مايجــد البوليس فى أعقابه ، ثم يقــدم للمحاكمة ويحكم عليه بعد أن يقدم البوليس أدلة دامغة ضده تزود العصابة بها أعوان بيكيت من رجال سكوتلانديارد . بل وذهب الامر الى أبعد من ذلك ، فلم يكد يهل عام ٩٨ حتى كان كل أعضاء العصابة من قدامى المؤسسين الذين يعرفون زعيمها معرفة وثيقة قد باتوا كلهم ــ أو كادوا ــ وراء قضبان السجون ، محكوما عليهم ، بمــدد طويلة .

وذات يوم باع مستر بيكيت أعماله لشخص يدعى مستر ماكهيث

كان قد افتتح لتوه سلسلة من الدكاكين فى حى المال والاعمال ، أطلق عليها اسم دكاكين حرف « ب » ، وأعلن عن رغبتـه فى تزويدها بكميات كبيرة من البضائع رخيصة الثمن ، خدمة للجمهور . وهكذا فان جيمى بيكيت تاجر الاخشاب اختفى من انجلترا — ويقال أنه ذهب الى كندا . ولم يكد مستر بيكيت يختفى حتى ظهر مكانه فى العالم السفلى شخص اسمه أوهارا ، وهو شاب ايرلندى موهوب للغاية ، أصبح الرئيس الرسمى المعترف به للمنظمة التى أنشـأها بيكيت قبل اختفائه .

ويبدو أن مستر بيكيت كان قد أوصى بمستر أوهارا لدى مستر ماكهيث ، لان هذا الاخير فتح صدره تماما لاوهارا ، وبدأ يتسلم منه شحنات ضخمة من البضائع لبيعها فى محلات حرف « ب » . خلاصة القول أن المنظمة توصلت — بهذه الطريقة اللولبية — الى القضاء على مشكلة تجار المسروقات . وفوق ذلك وجدت المنظمة عميلا مستديما ، وازدهرت أعمالها بدرجة مذهلة .

وبتلك الطريقة توصل مستر ماكهيث الى أن يجعل أسعار البضائع التى تبيعها دكاكينه حرف « ب » رخيصة بدرجة غير معقولة . لكنه عانى من مشكلة واحدة ، هى أنه لم يكن مستطيعا أن يتنبأ فى أى وقت بنوع البضائع التى ستتسلمها دكاكينه فى الشحنة المقبلة . لكن ذكاء الرجل مالبث أن هداه الى أنه من الحكمة أن يتم التركيز على سلع بعينها يمكن تغيير شكلها الخارجى الى حد ما بمعرفة أصحاب دكاكين حرف « ب » قبـــل عرضها للبيع — منعا للحرج — وهكذا تحولت الدكاكين من مجرد مراكز للتسويق الرخيص ، الى مراكز لاعادة التصنيع والبيع .

لكن ذلك التطور استتبع مطلبا جديدا : الحصول على رأســمال للمشروع . فالتوسعات المزمعة فى نشاطات العصابة فى السطو على المحلات والمخازن تطلبت تمويلا لم يكن فى طاقة ماكهيث القيام به . وهكذا وصل مشروعه الى المأزق الخطر الذى يخشاه كل رجل أعمال .

فالتوسع ، آن بدأ بمنظمة التوريد ، سيغرق الدكاكين بطـوفان من البضائع تعجز — بعددها الحالى — عن تصريفه ، وان بدأ بالدكاكين ، فانه سيتطلب طوفانا من البضائع تعجز منظمة التوريد — بحجمها الحالى — عن تزويد الدكاكين به . وهكذا فانه من المتحتم أن يشمل التوسع كلتا المنظمتين فى وقت معا ، فى نفس اللحظة التى يتم فيها مشروع الزيادة فى العرض والطلب .

كانت فى السوق سلاسل اخرى من الدكاكين ــ وكلها مشروعات كبيرة ناجحة ذات اتصالات بنكية جيدة ، والمنافسة مستعرة فيما بينها . فما بالنا بسلسلة حرف « ب » الهزيلة نسبيا اذ تنزل الحلبة فى وجه هذه المشروعات العملاقة ؟ بدا واضحا أن مجموعة حرف « ب » فى حاجة الى تمويل اضخم من أن تهيئه امكانيات ماكهيث ، ان كان لها أن تخوض تلك المعركة بنجاح .

كان ذلك هوالموقف عندما تزوج مسترماكهيث الفتاةبولى بيتشام.

***

فى أصيل يوم من ايام الصيف ، ذهب مستر ماكهيث فى عربة هانسوم قديمة الى احدى ضواحى لندن الغربية ، حيث يقيم مستر ميللر ، مدير بنك الائتمان الاهلى .

كان مرتديا حلة رمادية فاتحة ، والطريق الذى تقطعه العربة حافل بالمشاهد المسلية . لكنه لم يكن سعيدا . فزيجته التى بدت واعدة بالكثير فى مبدأ الامر ، تكشفت عن خيبة أمل مرة .

نعم كانت زوجة أحلى من أى زوجة أخرى ممن سبقنها . بل وكان ــ بطريقته الخاصة ــ مغرما بها . لكنه لم يكن فتى فى العشرين تملأ الاحلام رأسه ، ولم يكن فى تكوينه أدنى شعور يمكن أن يوصف بالرومانسية . ولذا فانه وجد نفسه مضطرا ــ بشكل متزايد ــ أن يكف نفسه عن الشعور بالمرارة فى شأن بولى والاحساس بأنه قد « انضحك على ذقنه » .

استقبله مستر ميللر على درج بيته الصغير ، ووقفت وراءه زوجته ، سيدة ثرثارة لطيفة المعشر ، تخطت الخمسين ، أخذت فى معاملة ماكهيث لفورها كما لو كان ابنا لها . تناولوا الشاى وأخذ ميللر يتغنى بالزمن الخالى ، ويسرد بعض أحداث من تاريخ بنك الائتمان الاهلى المجيد .

أصغى ماكهيث لثرثرة مدير البنك بنصف ذهن ، وهو يرشف الشاى بصوت منفر ، وبنصف ذهنه الاخر يقلب الامور على وجوهها. أحس من حديث مضيفه أن البنك مازال قليل الثقة بأفكاره وأساليبه ، وأن حكايات ميللر كلها وذكرياته عن جهابذة أصحاب البنوك قصد منها تلقينه درسا فى كيف يكون الحذق فى دنيا المال والاعمال . وهكذا فانه اجتهد ، عندما قال ميللر كل ماعنده ، فى عرض بعض خططه ومشروعاته على وجهها الصحيح .

لكنه قبل أن يأخذ فى ذلك أخرج من جيب سترته الداخلى

قصاصتى صحف مطويتين تتضمنان مقالين كتبهما عن نظرية دكاكين حرف « ب » ، واستقلال المساهم الصغير ، وما الى ذلك من الامور ، وقد احيطت كل مقالة باطار رسمه بالقلم الاحمر ، زيادة فى التأكيد. غير انه تبين أن ميللر كان قد قراهمـــا من قبل وألم بكل ما جاء فيهما من آراء .

بعد ذلك أخرج ماكهيث من جيب سترته الداخلى سيجارا قضم طرفه بأسنانه ثم ألقى ماقضمه باصبعين سمينتين ، خارجا على أرض الممر المرصوف بالحصباء ، واشعل سيجاره بحفلطة فائقة . ثم قال ان لديه بعض أفكار أخرى لم تنشر فى الصحف بعد .

أوضح لضيفه ان نشاطه الاساسى ينصب حاليا على دراسة الزبائن.

قال أن الزبون يبدو لصاحب الدكان دائما فى صـــورة شخص مذبذب لايستقر على رأى ، بخيل شديد التقتير ، عديم الثقـــة بالناس ، ومملوء شرا ونوايا خبيثة . أى « باختصار ، يبدو عدائيا للغاية . فهو لايرى فى البائع صديقه وناصـــحه الذى لاهم له الا خدمته ، بل مخلوقا شريرا سيىء النوايا يستميت فى غشـــه وخديعته وتجريده من نقوده . ونتيجة لذلك الموقف العدائى فان البائع يتردد ، بسبب تجربته المرة ، فى أن يأمل أى أمل حقيقى فى كسب المشترى الى صفه ، واقامة اتصال شخصى معه ، وتحسينه ، أى باختصار تحويله الى مشتر جيد من الطـــراز الاول . ولذلك فانه يضع بضائعه باستسلام تحت أنظار الزبون ، واضعا كل أمله فى الحاجة العمياء التى ترغم المشترى ، بين الحين والحين ، على أن يشترى شيئا والسلام .

لكن المشترى فى حقيقة الامر مظلوم تماما ، وضحية ســوء فهم فاحش من جانب من يرى فيه هذا الرأى . فهو فى أعمـــاقه (١) الدفينة أفضل بكثير مما يبدو فى ظاهره . وكل مافى الامر أن بعض الخبرات المحزنة فى محيط العمل أو الاسرة تجعله متشككا ، سيىء الظن ، لايبوح بذات نفسه الى أحد .. لكنه فى دخيلة نفسه يظل يأمل أن يتعرف عليه أحد ويكتشفه على حقيقته فيدرك أنه مشـــترى محتمل أو طاقة شرائية كامنة تنتظر من يستثيرها . لانه يريد أن

(١) الواقع ان برخت — فى معـــرض سخريته هذه بما يعرف باسم عـــلاقات العملاء يعرض «Customer Relqtions» على لسان ماكهيث منهجا كاملا من مناهج تطبيق العلوم الاجتماعية فى مجـــال التسويق يعرف حاليا باسم اســـلوب العمق «Depth approach» ويقوم على بحوث الدوافع «Research» Jativational

يشترى . وما أكثر حاجاته . فوق أنه متى أحس أنه لم يعـــد يحتاج الى شيء ركبته التعاسة • ولذلك فانه فى حاجة دائما الى من يقنعه بأنه فى حاجة الى شيء ما ، ليكون سعيدا ! وهو فوق هــذا! وذاك كله لايعرف عن حاجاته وعن نفسه الا اقل القليل .

استطرد ماكهيث قائلا وهو يحدث ايقاعا رتيبا بملعقة الشاى على سطح المنضـــدة :

ـ ولكي يكون المرء بائعا بحق ، يجب أن يكون معلما . فما البيع الا محاربة جهل الجمهور ، جهله الفاحش . ما اقــل من يدركون فظاعة الحياة التى يحيونها ! انهم يناموون على اسرة غير مريحة تقصم ظهورهم وتزيق الليل طوله ، ويجلسون نهارا على مقــاعد قبيحة تشوه أجسامهم ، فلا يفطنون الى ذلك الا عندما يرون سريرا أو مقعدا جديدا ، وحتى اذ ذاك يكون احساسهم مبهما . فالمرء مضطر أن يخبرهم ــ كالاطفال تماما ــ أنهم بحاجة الى هــذا أو ذاك من الاشياء ، وأنهم يجب أن يشتروا ماهم فى حاجة اليه ، لا مايتصورون أنه يجب أن يكون فى حوزتهم والسلام . ولكى ينجح المرء فى ذلك يجب أن يكون صــديقا لهم . مهما كانت الظروف يجب ان يكون ودودا معهم ، ومجاملا ، وخدوما . نعم ان ذلك الشــخص الذى يدخل ويخرج دون أن يشترى شيئا يبدو للبائع مخلوقا بغيضــا جديرا بكل احتقار . يقول المرء فى نفسه : « البخيل ابن الـ ..! » ويمتلىء ــ بغير ارادة منه ــ احتقارا له وتقززا منــه . لكن المرء متى كان بائعا لايجب أن يحس أو يفكر هكذا أبدا • يجب أن يظــل المرء ودودا ومجاملا حتى ولو كسر الزبون قلبه .

عندما انتهى ماكهيث من خطبته القصيرة كان قد بلغ درجة من الاهتياج لم يفطن اليها . فقد كانت تلك مشكلة تحــز فى نفســه دائما فيما يتعلق بدكاكينه • لم يكن أصــحاب الدكاكين ردودين بما فيه الكفاية • ولقد اضطر فعلا أن يفرض عليهم رقابة مستمرة من جانب « مندوبى مشــترياته » ، ووقـــع جزاءات على من ثبت أنهم يسيئون معاملة الزبائن منهم • لكن ذلك كله لم يجــده كثيرا • لان الامر كانت له سيكولوجية معقدة • فحكاية الرقابة على البــائعين هذه ومعاقبتهم عندما يسيئون الى الزبائن قد تجدى فى المحــلات الكبيرة ، لان المستخدمين لكى يظلوا ـ رغم كل شيء ـ باسمى الوجوه، يجب أن يحسوا بالسوط على ظهورهم فى كل لحظة • أما صــاحب المحل الصغير فانه يحمل همومه معه طــوال النهار ، ولا يجــد من

بسوطه طيلة الوقت ليبعده عنها · فلا يكاد المشترى يطيل في تقليب البضائع واختيار ما يريد حتى يبدأ صاحب المحل في تذكر الايجار الذى لم يدفعه · أما اذا خرج المشترى دون أن يشترى شيئا فتلك تكون الطامة الكبرى · تنقلب سحنة صاحب الدكان كما لو كان يوم القيامة قد أزف · ومن الطبيعى جدا أن يرى المشترى كل ذلك ويحسه · ومن الطبيعى أيضا أن يضيق بالاحساس الذى يشيعه ذلك فى نفسه بمسئوليته عن شقاء صاحب الدكان وربما عن جوع عياله · وهكذا فانه يستشيط غضبا كلما جعله صاحب الدكان ، بسحنته المقلوبة ، يحس بأنه قد طعنه طعنة الموت . فالمرء يجب أن يتعلم كيف يبتسم حتى والموت فى قلبه ! قال ماكهيث فى دخيلة نفسه سأعلمهم كيف يتظاهرون بالسعادة حتى لو اضطررت الى تأديبهم بلدغات العقارب.
ثم جفف العرق الذى تفصد على جبينه بمنديل كبير الحجم ·

بعد ذلك أخذ يفيض في شرح عدد من الوسائل التى يمكن باتباعها ايقاظ شهية الجمهور الخامدة وتنميتها . فقال ان شيئا من الهرجلة « التى تبدو » غير مقصودة فى عرض البضائع بحيث يختلط حابلها بنابلها يحدث المعجزات · لان تلك الهرجلة تتيح للعميل أن يقع على اكتشافات تفجأه وتسره · يلمح فى الفوضى البارعة شيئا يبدو نافعا ، فتنقلب نظراته الخامدة يقظة ، وينشط . وبينما هو يبحث عن شيء يعثر على آخر . وهكذا تكتشف عينه التى كعين الصقر قطعة صابون تحت كومة البضائع يدرك فجأة أنه فى أشد الحاجة اليها . حقيقة أن قطعة الصابون هذه لاتكون لها أدنى صلة بقماش المآزر الذى دخل الدكان أصلا ليبحث عنه ، ولكن هل يجعلها ذلك أقل نفعا ؟ أبدا . ولذا فانه يشتريها ، قطعة الصابون هذه ، دون أن يدرى متى سيحتاجها · وقد لا يجد القماش الذى جاء من أجله . لكنه قد اشترى شيئا ، وأصبح عميلا للمحل .

وما من شك فى أن الاسعار عامل حاسم · اذا تباينت كثيرا فيما بينها أزعجت العميل وضايقته لانه يضطر أن يجمع ويطرح · وهو ما يجب أن يمنع من القيام به مهما كانت الظروف · ولذلك فان ماكهيث يريد أن يبتكر نظاما جديدا للبيع توحد فيه الاسعار قدر الاستطاعة بحيث تنحصر فى عدد قليل من الفئات المحددة · فلا شيء يستثير ثقة العميل بنفسه حتى يصبح مخمورا بها أكثر من المدى الواسع لكل البضائع المنوعة التى يمكنه ان يشتريها بمبلغ معين من المال ·

ماذا ؟ هذه القطعة الضخمة من اثاث الحديقة لاتكلف الا هـــذا المبلغ فقط ؟ وعدة الحلاقة المعقدة هذه لا يزيد ثمنها على هذه الدراهم القليلة؟

جلس ميللر ينصت الى كل هذا ، محدجا ماكهيث بنظرة عجب طفيف من عينيه اللتين لاتفصحان عن شيء ، وقد انطلق هذا الاخير متحمسا يشرح له فكرة دكاكينه التى تبيع « برخص التراب » : تشكيلة صغيرة من البضائع لاتتعدى فئات الاثمان التى تباع بهـــا ثلاثا أو أربع فئات • ولا يضر أبدا أن تكون بعض السلع مما يقوم المشترون بتجميعه • فبالوسع مثلا شراء مقاعـــد للحـديقة تتألف من كرسى بحر ، ومسند للقدمين ، ومظلة صـــغيرة يقوم العميل بتجميعها بعد الشراء ، وذلك حتى يكون ثمنها معا اعلى من السعر الاعلى المحدد لاية سلعة فى أى دكان حرف « ب » ، ومع ذلك فان أثمانها متفرقة تندرج فعلا تحت الفئات الموحدة المعلن عنها •

وينبغى أن تستمر الدكاكين الصغيرة الملحق بهـــا ورش وتبيع الاحذية ، أو الملابس الداخلية ، او الطباق ، على ماهى عليه ، فلا يسمح لها الا بائتمان محدود . لكن الدكاكين الكبيرة يجب أن تمول بحيث تتمكن من تخزين كميات كبيرة من البضائع قدر الامكان .

اختتم ماكهيث شرحه الحماسى لمشروع التوسع قائلا انه متى تم الاتفاق على قرض البنك ، سيقوم بافتتاح محلاته الكبيرة بأســبوع من الاوكازيونات تسبقه ضجة اعلانية لافتة للانظار •

هنا صرف مستر ميللر زوجته من الغرفة باشارة من رأسه . قامت المراة فغادرت الغرفة بهدوء ، بينما جلس مستر ميللر يهز رأسه الاشيب مستغرقا فى التفكير ، ثم نظر الى زائره وكأنه يبحث عن الكلمات المناسبة التى يقول بها مايريد قوله .

فلما تكلم اخيرا سأله :

ــ ماموقف مستر بيتشام من زواجك بابنته ، هل هو موافـــق عليه ؟

فأجاب ماكهيث :

ــ ان قلبه ليس من حجر !

وهنا قال مستر ميللر دهشا :

ــ حقـــا ؟

رشف ماكهيث رشفة من فنجانه بصوت مسموع • لزم كلاهمـا الصمت لحظة . كان بعض الاطفال يتصايحون فى الطريق ، وصياحهم يحمل الى مسامع الرجلين سببا ينصب على شيء ما .

استطرد ميللر قائلا :
ـ عال . مادام الامر كذلك سيكون كل شيء غاية فى البساطة . انت تدرك طبعا أننا نحب ان يكون حموك معنا فى هذه الصفقة . لا لشيء الا لتخرس الالسنة التى سيتساءل أصحابها دون شك عن السبب فى عدم اشتراك جميك فى هذه العملية معك . ولا تنس أنه يجب أن يكون اكثر الناس فهما وتقديرا لفكرتك هذه ، لان صلات القربى تجمع بينكما . عندما تشرفنا بالزيارة فى المرة القادمة ، دع مستر بيتشام يأت معك ، وسوف نسوى كل شيء فى خمس دقائق لا أكثر يامستر ماكهيث .
وهنا سأله ماك بفلظة مفاجئة :
ـ واذا لم يكن مما يوافقنى أن أطلب من الرجل أن يسدى الى معروفا ؟
ـ لاتثر ياماكهيث . ليس هناك أدنى سبب لذلك . يجب عليك أن تدرك أننا مضطرون الى أن نلزم الحذر . فالبنك ليس ملكا لنا ، بل لتلك الفتاة الصغيرة توك . وهى طفلة أخاذة حقا . حرام أن نسيء اليها . نعم أنت تمتلك هذه الدكاكين . لكن فكرتك هى التى تهمنا حقا . فأهمية الدكاكين ثانوية للغاية . لانها بسيطة على ما أظن . أما النقطة الرئيسية ففكرتك الرائعة عن الاثمان الموحدة ، والاوكازيونات ، والاستغلال المربح لاستقلال المالك الصغير .
انصرف ماكهيث بعد ذلك على عجل . .

***

قطع جزءا من الطريق سيرا على قدميه . كان الظلام قد حل . أخذ يطوح عصاه الغليظة وكأنه يريد أن يهشم بها رأس أحد ، غير قادر أن يكف نفسه عن طعن أسيجة الخضرة بها وهو يمر بالحدائق الامامية الصغيرة فى بيوت الضاحية . كان مزاجه منحرفا للغاية ، ويود لو فثأ غيظه فى أحد .
فى أصيل اليوم السابق كان قد قابل بولى . لكن لقاءهما لم يزد عن نزهة بريئة فى الحديقة . وبعد ساعتين من السير الذى لا طائل من ورائه عادت الى « البيت » ، دون أن يجرؤ على منعها .
أى شيء جعله يتزوج ؟
فى اليوم التالى كان له لقاء آخر بميللر وهوثورن ، فى البنك . لكن شيئا فى الموقف لم يتغير . فلم يتفقوا ثلاثتهم على شيء اكثر من تحديد موعد للقاء قادم .

بدل ماكهيت جهدا خارقا فى اقناع العجوزين بمزايا أفكاره ، وعملا على التأثير فيهما ، شرح لهما بحماس فائق الاثر المدمر الذى يمكن ان يكون لتلك الافكار — متى وضعت موضع التنفيذ بمساعدة أموال مصرفهما — على المشروعات الاخرى المنافسة .

وقد أصغى له الرجلان بانتباه تام ، وبدا واضحا أنهما يقدران أفكاره حق قدرها . لكنهما فى النهاية قالا له آه . هذا كله جميل . غير أنه من قبيل القصور التى تبنى فى الهواء . وقالا أيضا أنه يجب أن

والاسوأ من ذلك أن ماكهيث لم يستطع — طيلة هذه المفاوضات المطوطة المرهقة للاعصاب أن يتخلص من وسواس تسلط عليه بأن يستثير اهتمام حميه بالموضوع ، وانه اذا فعل ، فان كل شىء سيصبح على مايرام .

الامسية المشئومة التى قضاها فى ضيافة ميللر وأطلق خلالها العنان للسانه هى التى جلبت كل ذلك البلاء على رأسه وعرقلت مشروعاته . الا تكون أفكاره أكثر تقدمية مما يستطيع هذان العجوزان المحنطان أن يسيغاه ؟ انتابه غضب عارم وهو يستعيد الترهات التى أرغمه ميللر على الاستماع اليها متصورا أنه بذلك يثقفه ، ويكسبه خبرة ، ويضىء له سواء السبيل .

ولم يخطر له فى غمار ذلك كله أنه ليس بمستبعد أن يكون تردد بنك الائتمان الاهلى ، وهو من البنوك العريقة المحترمة ، راجعا بالدرجة الاولى الى غموض ماضيه الذى لايعدله الا غموض مصادر بضائعه . ذلك الاحتمال وجهت نظره اليه فانى كرايزلر فى مرحلة متأخرة من المشكلة .

وهكذا فانه لم يكن لديه — فى مقابلته الثانية مع العجوزين — مايضيف جديدا الى ماسبق . وكل ماعاد به من ذلك اللقاء انه تورط فى اعتراف مؤداه أنه لم يتوصل الى « عقد صالح » من أى نوع مع مستر بيتشام . وللفور انقلبت سحنتا العجوزين وظهر عليهما الانزعاج بأجلى معانيه . نعم لم يلقيا به خارجا ، لكنهما سألاه ، بصفاقة ، وبلا مواربة ، عددا من الاسئلة المحرجة التى لا ذوق فيها .

والحقيقة أن عدوانية الرجلين كانت ناجمة عما أصيبا به من خيبة أمل . فقد راقت لهما أفكار ماكهيث وتيقنا من سداد آرائه ، ومما يمكن أن تعود عليهما به التجديدات التى يريد من مصرفهما تمويلها من أرباح دسمة . ولقد كانا ، فى واقع الامر ،

متلهفين على القاء شباكهما في مياه جديدة .

ولذلك فان فشل مفاوضاتهما مع ماكهيث أعقبته مفاوضات ناجحة بينهما وبين سلسلة محلات كرستون ، سرعان ماترامت أنباؤها الى مسامع ماك .

فكانت الضربة أكثر من مؤلمة . لان تلك المحلات بالذات كانت النمط الذى دارت حوله احلامه الطموح : محلات ضخمة ، ذات مبان فخمة تفعل فعلها فى النفوس ، مواقعها ممتازة ، واقسامها المختلفة العديدة مكتظة بتشكيلات هائلة من البضائع . ولقد قام جانب من مشروعه على ارغام المنظمة التى تدير تلك المحلات على ان تجثو على ركبتيها . ولكنه بدلا من أن يحقق ذلك الحلم ، يسمع أن محلات كرستون قد شرعت ، فوق ما حصلت عليه من تمويل من بنك الائتمان الاهلى ، فى اجراء تجديدات مسروقة من افكاره بحرفيتها . وهاهى تعلن عن اسبوع من الاوكازيونات « سيجد فيه الجمهور مفاجآت سارة عديدة » . من الجلى أن هذه عملية سطو بالغة الخسة على افكاره . ومن الجلى أيضا أنه كان حمارا عندما أولى العجوزين ثقته وكشف لهما كل أوراقه . الحقيقة أنه كاد ينشق غيظا .

جلس امام فانى كرايزلر ممتقع الوجه غيظا ، وأخذ يرغى ويزبد:

ـ لماذا يحاول الجميع أن يسرقونى ؟ انا افعل كل ما استطيع لكى اصبح محترما . اكف عن العنف بكل اشكاله . اسير على الصراط المستقيم ، أو على مقربة منه . فأتنكر للماضى ، وارتدى ياقة منشاة ، واستأجر بيتا من خمس حجرات ، وأتزوج زيجة كان ينبغى ان تكون مجزية . فما الذى يحدث لى فى هذا الوسط الرفيع ؟ يحدث انهم يسرقوننى ! هذا شىء لا يتصوره عقل ! الحقيقة اننا نحن المجرمين البسطاء لسنا أندادا لهؤلاء الناس يافانى . انهم يفوقوننا لصوصية . ففى خلال يومين لا أكثر يجردوننا من كل مدخراتنا التى جمعناها بعرق جبيننا وكأننا ننحتها من الصخر ، ولا يكتفون بذلك ، بل يجردوننا من المأوى والحذاء أيضا ، وكل شىء ، فنعود عراة حفاة مشردين . وكل ذلك يفعلونه بضمائر مستريحة ، دون أن يخرقوا قانونا واحدا ، بل وربما كانوا يغبطون أنفسهم الآن لكونهم قد أدوا واجبهم !

فالحقيقة أنه جرح فى الصميم لترديه فى الشراك الغادرة التى بثت فى طريقه ، وبدأ يشك فى قدراته ويفقد الثقة بنفسه .

ولذلك أخذ يهيم على وجهه فى لنــدن . فركب اكثر من عربة اوتوبيس تجرها الجياد ، جيئة وذهابا ، وقد غرق فى افكـــاره السوداء . ولقد احسن بذلك صنعا . لان ضــجيج الناس وهم يصعدون وينزلون بعث شيئا من السكينة فى شعوره المضــطرم ، وتتابع المشاهد من جيرة فقيرة الى جيرة غنية بعث شيئا من الطمأنينة فى نفسه . لكن ذلك كله لم يخلصه من الكآبة الشديدة التى ترسبت فى أعماقه بسبب أفتقاره الى التعليم الى الحد الذى جعل فى مكنة بنك صغير كهذا وجماعة من اصحاب المحــلات يضحكون عليـــه ويسرقونه فى وضح النهار . لو كان متعلما لما ضحكوا عليه . فلم يسترد توازنه الا بصعوبة فائقة .

والحقيقة ان مالك عاش فى تلك الآونة اياما من أسود أيام حياته.

يد صديق فى ساعة الضيق

فى تلك الايام اصبحت فانى كرايزلر سندا قويا ، وموئلا يجـد فيه راحة لقلبه . كانت تقيم فى بيت صغير بلامبث ، مؤثث بأثاث قديم جميل ، وفيه غرفة اضافية .

دأب فى تلك الايام على قضاء جانب كبير من وقتـــه فى دكان العاديات الذى تديره ، وفى المساء ، عندما لم يكن يبدى رغبة فى الذهاب الى داره ، كانت تصطحبه معها الى بيتها . كان لا يكف عن الشكوى من أنه لا يجد من يقدم اليه افطارا فى بيته .

وقد تمكنت فانى بلباقتها المعهــودة من تجنب أية مصاعب مع جروتش الذى كان عشيقها الدائم . قالت له ببساطة ان عليه آن يبتعد عنها بضعة اسابيع .

لم تتحدث أبدا عن زواج ماكهيث ، لانها ادركت انه اعتبر زيجتــه صفقة غير موفقة ومخيبة للآمال .

فوق أنه لم يعد يرى بولى الآن الافيما ندر .لذلك نشطت فانى فى مساعدته على تنظيم شئون دكاكين حرف « ب » كما لم تنشط فى اى وقت مضى . ولقد كانت الدكاكين بحاجة حقا الى مثــل ذلك الجهد ، اذ ساءت أحوالها كثيرا .

فأصحاب الدكاكين باتوا لا يدفعون بانتظام ، ان دفعوا اصــلا . ولم يكن كل الذنب فى ذلك ذنبهم . لانهم ظلوا ــ رغم شكاواهم التى

لم تنقطع ـ يتسلمون شحنات ضخمة من بضائع لا تنوع فيها ، تكون في مرة كميات هائلة من الساعات ، وفي اخرى من النظارات ، وفي ثالثة من الغلايين والطباق . ولم يكن بوسع أي منهم ، بطبيعـــة الحال ، تصريف كل تلك الكميات المكدسة بما يمـــكنه من الوفاء بالتزاماته قبل المنظمة .

ولقد كانت التجربة المزعجة التي مر بها مع امرأة جعلهـــا من اصحاب الدكاكين بدافع الرحمة خير دليل على الحالة المؤسفة التي وصلت اليها تلك الدكاكين المنكودة . كانت المرأة صديقة قديمـــة تدعى ماري سوير .

وقد اكتشفت المرأة بطريقة أو بأخرى انه تزوج ، ولسبب مابدا أنها تعتبر ذلك الزواج اساءة اليها لا تغتفر ، فأحدثت ضجة كبرى ، ووجدت عددا من المشجعين اخذوا يترددون على دكاكين حـــرف «ب» ويحاولون استدراج أصحابها الى الثرثرة عن شئون ماكهيث . ثم اتضح أن أولئك المشجعين كانوا يتربعون على مقاعد رئاسة التحرير في مجلة « العاكس » . والظاهر أن اولئك السادة كانوا قد أخذوا على عاتقهم الوقوف على كل مايمكنهم الوقوف عليه من معلومات عن محلات حرف «ب» منذ أن طرد واحد منهم شر طـــردة عندما حاول ابتزاز بعض المال من ماك . فوق أن تلك المجلة كانت تدعى انها تتبع مبادىء الاشتراكية ، لانها لا تنشر من الفضائح الا ما يمس الاغنياء وحدهم . ولو ان السبب في ذلك كان ببساطة ، لا اشتراكية ولا يحزنون ، بل املاق الفقراء الذى جعلهم غير صـالحين كموضـــوع للابتزاز . وهكذا فان ماكهيث كان في مأزق غير مستحب ، ويجب ان يأخذ حذره . فهو ، ككل ميسور الحال ، يجب ان يكون ذا ســـمعة ناصعة البياض لا تشوبها شائبة حتى لا يجعل لاحد منفذا اليه . ولقد كان في مسيس الحاجة الى ذلك حتى يتفـــرغ للنصب على اصحاب دكاكين حرف « ب » المساكين بغير منغصات .

جرت المفاوضات بينه وبين ماري سوير في محل عاديات فاني كرايزلر ، وبمحضر منها .

أعلنت مسز سوير ، وهي شقراء عظيمة الصدر ، مشرفة على الثلاثين ، انها لم تعد تعرف أي وجهة تتجه . فقد اخذها ماك من بيئتها المألوفة وظل يسود عيشها بغيرته سنوات طويلة . ولقـــد اضطرت هي ، طوال تلك السنين ، ان تقوم بدور المتفرجة ، بينما هو ، على حد تعبيرها ، ينتقل من زهرة الى زهرة . وها هو الآن

يبلغ من القحة حد اخراجها واذلالها علنا بالزواج من امرأة أخرى ٠ وهى لم تتزوج من زوجها الحالى — الذى يحارب الان فيها وراء البحار — الا بناء على تحريض ماك لها والحاحه المستمر عليها ٠ لكنها لا تكن لذلك الزوج أى ود أو محبة. هذا والدكان الذىأعطاه لها ماك ليس دكانا تقر به عين احد ٠ وزوجها قد رزأها بطفلين ٠ ولذلك فانها ان لم تستطع الحصول على بضعة جنيهات تستأجر بها عددا من الفتيات للخياطة فى محلها ، لن يكون امامها الا ان تلقى بنفسها فى النهر ٠ فأعصابها قد اعلنت العصيان مؤخرا ٠ والحقيقة ان بعض التصريحات الغاضبة التى بدرت منها لم يكن من سبيل الى تفسيرها الا بذلك العصيان الذى اعلنته اعصابها ٠

حاولت فانى ، قبل كل شىء ، ان تكتشف ما اذا كان اتصال ما قد تم بالفعل مع مجلة « العاكس » أم لا ، فسألت ضيفتها :

— الى من افضيت بهذه التصريحات ؟ ذلك أمر مهم للغاية ٠

لكن مسز سوير كانت ما زالت محتفظة ، فيما بدا ، بقدر من التحكم فى اعصابها مكنها من الافلات من ذلك الشرك ،فتكلفت الابهام والاستنكار . ألم تمنح ماك خير سنى حياتها ؟ عندما بدأت معه كانت فتاة متفتحة فى ربيع العمر ، ولم تكن قد عرفت رجلا قبله او خبرت اى شىء عن الرجال فيما عدا هجوم بقصد الاغتصاب تعرضت له وهى فى الثانية عشرة . والآن اذا ماتخلى عنها ماك لن تستطيع أن تجد رجلا غيره ٠ وعملا على تأكيد ذلك اشارت لهما الى التجاعيد التى حفرها الزمن وغدر ماك فى وجهها ٠

عندما قالت كل ما عندها .. بدأ ماك يتكلم .

أكد لها أنه من دعاة الحرية الكاملة للنساء . فهن متى اعطين أنفسهن لرجل ، يجب أن يكون ذلك على مسئوليتهن الخاصة ، فيتحملن كل ما ينجم عنه من مخاطر ٠ فهو ضد أية قيود او وصاية تفرض على اى امرأة . والحب ياعزيزتى ليس وثيقة تأمين ضد الشيخوخة . الحب الذى يدوم يجب أن يكون حبا يستمتع به المرء ، لا حبا يزاوله كواجب . وكل امرأة يجب أن تعتبر ملذاتها فى الحب مكافأة كافية لها ٠

وهنا اخذت مارى تصرخ من جديد . نعم ، نعم ، نعم ؟ ما دخل ملذاتها القديمة مع ماك فى هذا كله ؟ كان بوسعها انتحصل علىنفس تلك الملذات عينها مع أى رجل آخر ، هه ؟ على سبيل المثال مع رجل محترم لا يتخلى عن امرأة تضحى بكل شىء من أجله ، وتمنحه

زهرة عمرها وشبابها . ألم تكن بائعة في احد المحلات ، وأخذها ماك من عملها وأهلها لانه نظر الى اعلى عندما كلفها مدير المحل بالصعود على سلم لتحضر صندوقا من فوق احد الارفف فرأى ساقيها ؟ ولكن منذا الذى يريد ان يرى ساقيها الآن ؟ لا احد يريد ان يرى ساقيها . ذلك الشاب الوسيم الذى تحدث معها حديثا مستفيضا كله عطف ونطف وتفهم حول هذه الحكاية البشعة كلها قال لها ذلك . لم يعد بوسعها ان تعتمد على ساقيها .

أراد ماكهيث ان يرد عليها ردا عنيفا ، لكن فاني رأت أنه من الافضل أن يلزم المرء الحذر في مثل هذه الامور . فوق انه كان من الواضح ان حالة الكساد التى انتابت الاعمال هى المسئولة وحدها عن ذلك السلوك العدواني من جانب هذه المرأة التي لولا ذلك الكساد لكانت قد ظلت امرأة لا ضر منها .

سألتهما ماري مغضبة :

ـ كيف أستطيع أن أبيع تلك القمامة ؟ ليس كل زبائني زبائن ساعات . لقد ظللت أحاول أن أدخل تجارة الملابس الداخلية في دكاني ، دون جدوى . هل اذا جاءتني خادم تريد شراء قميص داخلي يتعين على أن أقول لها : لاتوجد عندى قمصان داخلية الان، الا تأخذين ساعة بدلا من القميص ؟ نعم ، ربما كانت سرقة الساعات أسهل ـ لا تقاطعاني . أنا أستطيع أن أستخدم عقلي حتى ولو لم اكن قد ذهبت الى المدرسة كزوجة ماك الجديدة .

كانت مفاوضات طويلة مرهقة . قاتلت ماري بضراوة النمرة . وعندما اقترحت فاني في النهاية تسوية تقوم على تعهد من جانب ماك ـ رغم أنه لايعترف بأى التزام عليه قبلها ـ بتمويل عملية توسيع نشاط دكانها ليشمل بيع الملابس الداخلية ، بشرط ان تلزم هي الصمت بشأن علاقتها به ، تلقت ماري الاقتراح بجبين مقطب ووجنتين متوهجتين غيظا وشكا .

لكنها عندما تسلمت الشيك غيبته بسرعة في حقيبة يدها والجشع يطل من عينيها ثم أسرعت بالانصراف دون أن تعنى حتى بالنظر الى ماك .

***

أصطحبت فاني ماكهيث معها في تلك الليلة الى بيتها بلامبث . أعدت الشاى ، وجلست أمامه مرتدية بيجامة شفافة . لاحظ ماك سمرة بشرتها ، وتذكر بشرة بولى البيضاء كالحليب . قال في

نفسه كم هما مختلفتان .
لكن فانى كانت امرأة قوية الشكيمة ، متفـردة الرأى وقـد استقر رأيها على ما يجب أن يفعله ماك بدكاكينه حرف «ب» .
قالت انه بعد محاولته الفاشلة للحصول على المال اللازم لتعويم تلك الدكاكين ، سواء بالزواج أو بالاقتراض من البنك ، يجب عليه ان يدرك أن الدكاكين قد باتت مشروعا خاسرا ، ومن رأيها أن يصرف ماك نظرا عنها تماما ، فيتركها تفرق بأصحابها المتعبين .
قالت له وهى تميل الى الوراء ، واضـعة ساقا على ساق وفنجانها فى حجرها :
ــ لو فكرت قليلا لوجدت أن دكانى أفضل ألف مرة . ولو عرفت اين تكمن مصلحتك الحقيقية لركزت على ذلك . ان جروتش بارع جدا فى هذه الاشياء . قال لى مرة انه لو استطاع فقط أن يحصل على معدات حديثة لاستطاع أن يفعل بها كل مايخطر للمرء على بال . فان وجدت ان مثل هذا النـوع من النشاط ابطأ من أن يحقق لك ماتريد أمكنك أن تخبط خبطـة أو خبطتين تجمع من ورائهما مبلغا كبيرا من المال تشغله بعد ذلك كيفما شئت . لكنه لن يفعل أى شىء الا اذا حصلنا له على معدات حديثة .
فقال ماك بلهجة من يتوقع سوء المصير :
ــ سنعود الى السطو ثانية ؟
ــ نعم . ولكن بمعدات حديثة !
فلم يتفقا الا وقد أوشك الصبح أن ينجلى .
قبل أن تذهب فانى الى محل العاديات ، رفعت اغطية الفراش من الغرفة الاضافية ، وفى المساء جلس جروتش معهما وأملى شروطه .
لم يكن ماكهيث سعيدا بهذه الحكاية الجـديدة كلها . فوق أنه أحس بمهانة حقيقية اذ وجد فانى تنظر اليه باعتباره رجلا فاشلا لايستطيع حتى أن يعقد صفقة هامة مع أحد البنوك . ادرك أن مكانته قد انحطت كثيرا ، وبشكل حاسم .
ذهب هو وجروتش ، بعد بضعة أيام ، الى ليفربول ، حيث أقيم معرض لاحدث وسائل الجريمة وطرق مكافحتها .
رأى الرجلان فى ذلك المعرض عجبا . معدات لفتـح الخزائن من كل صنف ونوع ، حتى أحدثها واشدها منعة . بدا أن اشد أجهزة الانذار تعقيدا وكفاءة لن تصمد أمام تلك الوسائل العلمية الحديثة وأن الاقفال مهما بلغت متانتها لن تمثل عائقـا الا بالنسـبة لذوى

المقاصد المشروعة ، أما بالنسبة للخبراء المتخصصين فهي عبث صغار.
بدآ يتشاجران في الفندق ذلك المساء ، لان جروتش صمم على الحصول على المعدات الفرنسية بينما تمسك ماك بالنماذج الانجليزية . قال لصاحبه :
— نحن في انجلترا ياجروتش ، ولسنا في فرنسا . من العار أن يسرق الانجليز بعضهم بعضا بمعدات فرنسيه . كيف يكون منظرنا امام العالم متى تبين أننا نفضل منتجات الصناعة الفرنسية على منتجات بلادنا ؟ هه ؟ قل لي فقط . سيكون منظرنا ممتعا . ان مصيبتك الرئيسية أنك لا احساس لديك البتة بمعنى كلمة « الوطنية » . هذه المعدات التي لاتريدها ابتكرتها عقول مواطنيك. عقول انجليزية . وانتجتها الصناعة الانجليزية . ولذلك فانها يجب أن تكون كافية لكل انجليزى . ولن أقبل أى شيء خلاف ذلك . مفهوم ؟

انتظرا حتى الثانية صباحا ، ثم خرجا من الفندق خلسة ، وذهبا الى المبنى الذى يضم معرض الجريمة الحديثة . وسرعان ما تغلبا على مقاومة الخفير . لكن ماكهيث مالبث أن سمع وقع أقدام في الشارع ، فارتعدت فرائصه ، وخذلته شجاعته تماما . وقف مرتجفا ، وقد تفصد جبينه بالعرق ، يحملق بعينين مذعورتين غير قادر على اختيار الطفاشة المناسبة . هز جروتش رأسه أسفا لهذا الجبن ، وأخذ حلقة المفاتيح من اليد المرتعشة . بدا واضحا أن التاجر العظيم لم يعد أهلا لهذا النوع من العمل الذى تتطلبه تجارته .
والحقيقة أن جروتش المسكين اضطر أن يقوم — تقريبا — بكل شيء وحده ، وكان النجاح حليفه . في صباح اليوم التالى وضعا المعدات أمام فاني .
كان جروتش — خلال ساعات فراغه — قد دبر أكثر من خطة لمشروعات جديدة . وبذلك أصبح لديه عدد من المخططات يختار منها مايشاء .
قال متفكرا :
— كل مشروع منها يدر نهرا من المال . أليس ذلك أفضل من الزواج ؟
لكن ماكهيث عندما ذهب الى سكوتلانديارد ليزور براون ويسأله النصيحة في أمر ما ، فوجيء مفاجأة غير مستحبة . صباح

براون فى وجهه مغضبا :

ـ اذن فهو ابن الحرام جروتش ! هذا أكثر مما يحتمل . هل قرأت جرائد الصباح ؟

كان محقا فى غضبته . فقد سلقت الصحف البوليس بألسنة حداد ، وأحدثت ضجة كبرى حول حادث السطو على معرض مكافحة الجريمة . ووجدت فى الامر كله مادة للتفكهة والتريقة : ها قد ضحك أحدهم على ذقن الشرطة وسرق معدات السرقة من تحت أنفها .

لذلك كانت ثورة براون عارمة . قال الماك :

ـ أنا لم أدع أحدا يسيء اليك ابدا ، أو يسلبك شيئا ، وكنت اتوقع منك أن تظهر نفس القدر من الاهتمام بمستقبلى ، تماما كما اهتم أنا بمستقبلك . نحن حتى الآن قد لعبنا لعبا نظيفا ، فلم يحاول احدنا خديعة الآخر . نعم أنا معترف عن طيب خاطر بأنى لم أكن لأصل الى منصبى الحالى بهذه السرعة لولا الخبطات الموفقة التى قمت بها بناء على ما تزودنى به من معلومات تتيح لى القبض على أولئك المجرمين . لكن علاقاتنا ، التى تعود الى أيام ان كنا ، أنت وأنا ، فى الهند معا ، تعنى بالنسبة الى شيئا أكثر من مجرد التعاون فى مجالات العمل . وها أنت الآن تسقط من حسابك تماما أبسط الاعتبارات التى يجب مراعاتها بين صديقين . أنت تعلم كم أحب عملى . وتعلم أنى لو لم اكن متعلقا بمهنتى لما استمررت فيها . وتعلم ايضا أنى لست أيا كان ، وأن قدراتى كفيلة برفعى الى منصب مدير البوليس . وليست الرتب هى التى تعنينى ، حتى وان ظننت أنت ذلك . لكنى لا اطيق أن ارى ذلك الحمار ويليم متربعا حيث لا يجب أن يكون ، فى منصب لا يليق له البتة . سأعطيك حتى مساء اليوم . يجب أن تكون العدد المسروقة أمامى هنا قبل المساء ، والرجل الذى سرقها ايضا .

أنصت ماكهيث لكل هذا بتعاسة . أدرك أنه قد تخطى كل الحدود المسموح بها مع صديقه براون ، أو ، كما يقول الانجليز ، داس على أصابع قدميه . فلم يجد مناصا من مصارحته بحقيقة الامر كله ، وبالدوافع التى حدت به الى الموافقة على القيام بتلك السرقة المشئومة .

قال براون وقد بدأ يلين بعض الشيء .

ـ نعم ، نعم . ولكنك ، ان كنت بحاجة الى المال ، تعلم أن هناك طرقا أخرى للحصول عليه . لماذا لاتريد اللجوء الى أحد البنوك ؟ هناك بنوك أخرى غير بنك الائتمان الاهلى كما تعلم .

فقال ماك أن دكاكينه ، والشركة التى تمونها بالبضائع فى حالة لا تشجع أى بنك على المخاطرة بتمويلها .

اذ ذاك أظهر براون طيب معدنه . عرض على صديقه ، من تلقاء نفسه ، أن يقرضه بعضا من ماله الخاص . ثم قال مخاطبا ضمير ماك :

ــ لماذا تضل عن الطريق القويم ؟ لماذا تمشى فى سكة الهلاك ؟ هه ؟ لا يجب أن يمشى أحد فى تلك الدرب أبدا . تاجر مثلك لا يجب ان يسرق . التاجر يشترى ويبيع . وهو ــ بهذه الطريقة التى يحبذها القانون ــ يصل الى نفس النتيجة . عنــــدما انبطحنا على وجهينا فى حقل الارز الموحل على مشارف بشاور ، تحت وابل ممیت من الرصاص ، هل قمت واقفا فهاجمت أولئك السيخ الملاعين بغصن شجرة أو أى شيء من هذا القبيل ؟ كلا طبعا . مثل ذلك الحمق كان يصبح شيئا لا يليق برجل عملى يزن الامور ، فوق أنه لم يكن ليجدى أحدا شيئا . أنت تقول أن اعمالك يجب أن تصبح فى حالة تغرى البنوك بتمويلها . عظيم . اجعلها فى تلك الحالة . لماذا لا تلجأ الى ؟ اذا كنت تجد غضاضة فى الحصول على ما تحتاجه من المال من صديق مثلى ، ادفع لى فائدة على ما تقترضه . ادفع لى ــ لكى تتخلص من الاحساس بالغضاضة ــ فائدة اكبر مما انت حرى بأن تدفع لاى شخص آخر ، عشرين ، أو حتى ــ أن شئت ــ خمســة وعشرين فى المائة . واذذاك تصبح أنت صاحب الفضل لا أنا . أنا اعلم جيدا انك رجل اعمال يركن اليه ولا اريدك أن تنحرف وتفسد كأى غر مفتون لا يعرف ما فيه صالحه ، ولا يفهم فى الاعمال شيئا ، فينحط ويسرق . لا يجب أن تعمل مع اناس على شاكلة جروتش هذا ثانية ، أبدا . اعمل مع البنوك ، كأى رجل أعمال محترم ! فذلك شيء يختلف الاختلاف كله !

جاشت نفس ماك جيشانا عنيفا وهو يصغى لصاحبه . ود لو عانق براون . لكنهما ككل رجلين خاضا مهالك الحياة معا ، وواجها أعاصيرها جنبا الى جنب ، لم يكن من السهل عليهما أن يبكيا كل على كتف الآخر . فنظرة حرج وتأثر فى موقف كهذا تعبـــر عما يجيش فى النفس بأبلغ مما يستطيعه أحر عناق .

قال ماك بصوت مختنق :

ــ يا سلام ! ليس هناك صديق مثلك يا فردى . هناك دائما من لا يضنون على غيرهم بالنصح ولا شيء غيره . أما أنت ، فتمد يد العون . فى ساعة الضيق . العون العملى . هذا هو ما جعلت الصداقة

لاجله ، وهذه هي الصداقة الحقة ، يد الصديق ..
قاطعه براون وهو يحدجه بنظرة جادة :
ــ هناك شيء واحد أطلبه منك لقاء ذلك كله . اطلب منك أن تتخلى عمن هم على شاكلة جروتش وأوهارا ، بصورة نهائية وكاملة . تقطع كل صلة لك بهم . فان لم تستطع ان تفعل ذلك على الفور ــ وانا اقدر ارتباطاتك ــ فلا اقل من أن تنهى علاقاتك بهم بعد أن تكون قد خرجت من هذه الورطة القبيحة . تلك العملية التى تفكر فيها قد تمكنك من أن تفعل ذلك . وانا ان كنت أساعدك اليوم ، فما ذلك الا لانى اريد أن اراك فى صحبة غير صحبة هؤلاء مستقبلا . لكنى لا اعنى بذلك الغد ، او حتى بعد غد . فأنا مدرك تماما انك ما زلت محتاجا لهذه المخلوقات لكى تنجح . لكن سيأتى وقت بغير شك يتعين أن تضع فيه حدا نهائيا . ذلك ما أصر عليه .
أومأ ماك برأسه ، فاقدا لكل نطق ، والدموع فى عينيه .
ذهب من عند صاحبه سعيدا ، ممتلئا سعادة . فقد قررا أن يدعا جروتش فى حاله مؤقتا ، على أن يلقى براون القبض على رجل آخر بوصفه مرتكب السرقة . وقد قام ماك نفسه بتسليم المسروقات الى براون بعد ظهر اليوم .
وبالمثل حافظ براون على كلمته ، ولو أنه لم يكن من السهل عليه أن يدبر المبلغ الذى سيقرضه لماك . وجد لزاما عليه أن يأمر بمداهمة عدد من النوادى أولا . وقد رأى ماك نتيجة جهود صاحبه عندما زار صديقته مسز لكسر فى تنبريدج يوم الخميس التالى . اشتكت له الفتيات مر الشكوى من الاستقطاعات التى خصمتها المعلمة من أجورهن بعد غارات البوليس على بعض البيوت الاخرى .
لكن تلك كلها تفاصيل صغيرة . المهم أن براون حافظ على وعده بتمويل ماك ، وأن ماك وجد بين يديه ، خلال اسبوع واحد لا اكثر ما كان يحتاجه من مال ليرفع كفاءة « مندوبى مشترياته » الى أعلى ذروة لها .
اجتمع بأوهارا ، ووضعا معا خطة مفصلة بحملتهما المقبلة . واحسنا الاستعداد للايام القادمة . فبالاضافة الى ما كان لديهما من مخازن عديدة ، استأجرا عدة شوادر ومغارات ، وعززا أسطول النقل بعدد من اللوريات الثقيلة . وبالنسبة للعمليات المقبلة فى بعض بلدان الاقاليم ، أودعت المبالغ اللازمة ، واستؤجرت أماكن الاقامة . باختصار ، تم ترتيب كل شيء .
والحقيقة أن الفتى أوهارا اثبت ــ رغم شبابه وميله للعبث ــ أنه

ممن يعتمد عليهم تماما عندما يجد الجد . فوق أنه كان قد اظهر دائما نفورا ملحوظا من التورط شخصيا فى أى سرقة من السرقات التى يقوم بها رجاله . وذلك — فى واقع الامر — اول اسس النجاح فى المسيرة المحفوفة بالشراك الى المستقبل العظيم الذى ينتظر الموهوبين أمثاله : أن يدع غيره يقوم بالاعمال القذرة . وقد لاحظ ماكهيث تلك السمة من فوره ، وأدرك أن ذلك الفتى يشبهه فى أشياء كثيرة . حتى فى بداياتهما . فصعود أهارا سلم النجاح والشهرة بدأ هو الآخر من الصفر . عندما بلغ السادسة عشرة وضع فحولته فى خدمة عدد من سارقات المحلات التجارية والخادمات خفيفات اليد . فلا تكاد الواحدة منهن تقضى أسابيع قليلة من مدة عقوبتها فى السجن حتى تحصل على عفو ، اذ يكتشف طبيب السجن أنها حامل . وقد ذاعت لاوهارا شهرة مدوية بين ذلك الصنف من الفتيات آنئذ ، وأفدن من خدماته مقابل اتعاب مجزية . لكنه — بعد أن سار قدما فى طريق النجاح — لم يكن يحب أن يذكره أحد بتلك الايام او تلك المهنة .

ولم تكن فانى تميل اليه كثيرا . قالت عنه دائما أن النساء بعقولهن الصغيرة دللنه حتى أفسدنه . وكانت ، فوق ذلك ، لا تثق فيه . ثم انه كان منافس جروتش الاول على المركز الثانى فى العصابة . وكانت حادثة ليفربول قد أسقطت جروتش فى نظر ماكهيث كثيرا . وبدأ أوهارا يسبق منافسه .

كانوا يعقدون اجتماعاتهم فى بيت فانى ىلامبث ، وقد درج ماك على الانصراف ، بعد الاجتماع ، فى صحبة أوهارا . غير ان فانى لم تكن على كل ذلك القدر من السذاجة . أدركت أن انصرافه مع أوهارا يعنى انه هو ايضا لا يثق بذلك المفتون . لقد حاول أوهارا فى تلك الايام أن يصل ما كان قد انقطع بينهما ، فجاء ذات يوم حاملا عزاله ، يريد أن يقيم معها ، فاضطرت الى مصارحته برأيها فيه بكل وضوح .

لكن اكثر ما كان يثير حفيظتها على أوهارا موقفه الصفيق من مسألة تقسيم الغنائم . فهو فى ذلك مصاص دماء بحق ، لا يشبع ، ويريد كل شىء لنفسه . فوق أنه — حتى وان كان ذلك لا يعود عليه بأى نفع — لم يكن يدع فرصة تمر دون أن يحاول انقاص نصيبها هى بالذات .

قالت أنه لا ينام فى الليل أبدا من فرط انشغاله بابتكار طرق تمكنه من اغتصاب أموال الآخرين . ولقد وبخته أكثر من مرة أمام

الجميع على تلك الخصلة التى قالت أنها ليست فى صالح العمل ، وانها ــ من الناحية المالية البحتة ــ خصلة غبية للغاية .

بعد حادثة ليفربول بوقت قصير ، قبض البوليس على « روبرت المنشار » باعتباره مرتكب السرقة . ولم يمر الامر بسلام . فقد كادت العصابة تعلن العصيان على زعيمها • اشيع أن روبرت المسكين سلم الى البوليس ككبش فداء ، وبدأ البعض يتذكرون ــ فجأة ــ حالات عديدة مماثلة وقعت على مدى السنوات الماضية .

كان أوهارا أول من حمل أنباء التمرد بين صفوف العصابة . وقد جاء بتلك الانباء المزعجة مبتسما ــ برعونته الايرلندية ــ ابتسامة عريضة شقت وجهه من الاذن الى الاذن . فأسكتته فانى غاضبة . وقالت له ، وقد بدا اضطرابها واضحا ، أن الامر ليس فيه ما يضحك ، وأن التمرد ــ ان كان قد وقع حقا ــ أمر خطير للغاية ، ويؤسف له أسفا شديدا .

قال أوهارا ساخرا وهو يرمق ماكهيث بنظرة شيطنة :

ــ لكن الزعيم ذهب بنفسه الى روبرت المسكين فى زنزانته وصافحه بحرارة !

وكان ماك قد ذهب بالفعل لزيارة مستخدمه منكود الحظ فى سجنه ، بعد أن سلمه بيده الى براون ، وقال له أنه لن يتخلى عنه ، وأنه سيقف بجانبه حتى النهاية . فهو فى مثل تلك المواقف يظهر مواهبه الحقيقية كقائد محنك .

لكن فانى اعتبرت تلك اللفتة منه مجرد لفتة كلبية لا تستحق احتراما .

احتدم نقاش طويل بعد ذلك بين فانى وأوهارا ، جلس ماك خلاله صامتا وبين أسنانه سيجار أسود رفيع • بدأ واضحا أنه استمتع كثيرا بتبادل السباب بين الاثنين • كان لا يزال يحس بالغيرة من أوهارا ، رغم أنه لم يكن يحب فانى ، لكنه سعد على أى حال لخيبة ذلك الايرلندى المفتون معها •

قالت فانى أن القبض على روبرت المنشار كان غلطة . وأن المتاعب لن تتوقف بعد ذلك فى صفوف العصابة . وأن عددا من العمليات قد فشل بالفعل نتيجة لذلك التذمر • وتوصلت الى اقناع أوهارا ، بعد نقاش طال عدة ساعات ، بالتوقف نهائيا عن تسليم أفراد العصابة الى البوليس . بل ونجحت فى اقناع ماكهيث ــ الذى كان يميل دائما الى اظهار الكرم تجاه رجاله ــ بالتعاقد مع مكتب محام محترم

يتولى الدفاع عمن يقبض عليه من أفراد العصابة .

وقد ذهب ماك الى أبعد من ذلك ، وعد بدفع مرتبات شهرية ثابتة لرجاله . والحقيقة أنه وزن الامر جيدا فوجد أن تلك المرتبات الثابتة ستكلفه اقل ، خاصة وانه — تبعا لمشروع التوسع الجديد — مقدم على حركة « شراء » واسعة النطاق تمكنه من تزويد دكاكينه باستوكات من البضائع تثير اهتمام أى بنك يتفاوض معه .

لكن العصابة اعتبرت نظام المرتبات الثابتة هذا نصرا كبيرا لها ، ولم تفطن الى ما فيه من فائدة لزعيمها . وباتت فانى — التى عرف ، بطريقة ما ، أنها السبب فى تطبيق ذلك النظام — بطلة العصابة المحبوبة . قيل (وقد كان لجروتش ضلع كبير فى كل ذلك) أنها أرغمت الزعيم على تحمل كافة المخاطر بمفرده ، وأنه اضطر الى الموافقة لانه فى حاجة اليها ، ولا يملك أن يغضبها أو يعارض رأيها .

وهكذا فان لصوص اوهارا لم يعودوا — بعد عملية اعادة التنظيم هذه — لصوصا يعملون بالقطعة ، بل أصبحوا مستخدمين فى شركة كبرى ، وهو ما أتاح لهم أن يعملوا بكفاية أعظم . لان وسائل التنظيم الحديثة دخلت فى مجال عملهم ، وأوجدت الطريقة المثلى للافادة من تخصصاتهم ، والتنسيق بينها ، وتوجيه جهودهم بما ينفذ سياسات العصابة ويؤدى الى تحقيق أهدافها . وقد بعثت تلك الوسائل الحديثة احساسا بالراحة فى نفوس أولئك الرجال بما أشاعته فى وجدان كل منهم من شعور بالمعاصرة ، فوق أنها حققت لهم استقرارا كانوا يحلمون به دائما ، لان اعتماد كل منهم على عمل الآخر جعل من المحتم استمرار عملهم فى خدمة العصابة ، ودفع أجورهم بانتظام .

قالت فانى لماكهيث بعد انصراف أوهارا ذات ليلة :

— أنت بهذه الطريقة قد تمكنت من الامساك بهم جميعا فى قبضة يدك . لم تعد بحاجة الى أن تشهر مسدسا أو سكينا فى وجوههم (وهو ما لاتستطيع أن تفعله على أية حال) . لان شيئاأهم من ذلك بات يغلهم اليك، فأنت تحتفظ لديك بأدوات عملهم . ولم تعد بحاجة ايضا الى تسليمهم للبوليس ، لان الخوف من الجوع سيجعلهم يتمسكون بالبقاء فى خدمتك . كل أصحاب الاعمال المحدثين يفعلون ذلك .

هز ماكهيث رأسه مؤمنا، وهو غارق فى أفكاره . آخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، سائرا على السجادة الصينية الزرقاء ، أثمن مقتنيات

فانى على الاطلاق ، وهو يعبث ببضع قطع من النقود المعدنية فى جيب سرواله ،ويخرجها ،بين الحين والحين ،ليلقى بها الى أعلى ثم يلقفها ٠
كان قد أوشك على الافاقة من أثر الطعنة الغادرة التى تلقاها على أيدى القرن ونصف القرن ، وبدأ عدد من الافكار العظيمة يجول فى رأسه ، ومن الافكار تنبع خطط مهولة .

لكن تلك الخطط المهولة ـ على ضخامتها ـ لم تنبثق من أى احساس بالثقة الزائـــدة بالنفس من جانبه ٠ كانت ضخامتها راجعـــة الى الضرورة وحدها . فهى ضرورية لانقاذه من الخراب الذى أوشك أن يحيق به ٠ ازدهر نشـــاط « الشراء » فى منظمته كما لم يزدهـر من قبل ، فبدأ سيل من البضائع يتدفق على الدكاكين . اكتظت الارفف الخشبية حتى ضاقت بما تكدس فوقها من سلع٠ وفتيات المشغل فى دكان مارى سوير بدأن يسهرن الى ساعة متأخرة من الليل لينهين ما لديهن من عمل . بالات ضخمة من الجلود المدبوغة تحولت الى احذية . وكميات هائلة من خيوط الصوف أعملت فيها ابر تحركها أياد دؤوب لعائلات بأكملها فتحولها الى ثياب صوفية عديدة الاشكال والالوان ٠ والجحور الكثيبة المعروفة باســـم دكاكين حرف « ب » امتلأ كل ثقب فيها بالادوات الكتابية ، والمصابيح ، والآلات الموسيقية ، والسجاجيد .

لكن ماكهيث كان يدرك أن المال الذى أقرضه له براون لن يكفى لتشغيل عصابة أوهارا لاكثر من ستة اسابيع .
فى مثل تلك المواقف لا تكون نجاة الا بوضع خطط ذات أبعـاد نابوليونية حقا ٠

(٨)

« يشتبك المرء أولا ، وبعد ذلك يرى »

(نابوليون)

« أوه ! انها تمطر خارجا !
« أوه ! لكن النار ممسكة بالبيت ، لا تنسوا ذلك !
« نعم ، لكنه من الافضل لنا
« بدلا من أن نحترق أحياء ،
« ان نخرج فتبتل ثيابنا ! »

(أغنية الرواد الصغار)

خطط نابولونية

فى احدى العمارات الكبرى فى حى المال والاعمال استأجر رجل فى مقتبل العمر طابقا بأكمله . وقع الفتى العقد باسم لورد بلومزبرى ، وأثث أربع أو خمس غرف لتكون مكاتب لشركته . حقيقة ان الاثاث كان معظمه رثا قديما ، لكنه أضفى على الحجرات تلك المسحة من الاحترام التى يوحى بها القدم . وقد ساعدت الفتى امرأة فى مقتبل العمر ذات بشرة تخطف العين بسمرتها الذهبية ، فقامت بكل شىء معه ، حتى اختيار الموظفين .

قالت له عندما وصل الاثاث ورأته ينظر اليه باستهجان :

ـ تعرف ؟ الشركات القديمة لها جاذبية خاصة لدى الناس . فقدمها يوحى بأنها شركات محترمة لم تتعرض للمتاعب أو القلاقل أبدا ، وانها ستظل كذلك ، لانها ما دامت قد عاشت كل ذلك العمر الطويل دون أن ينكشف أمرها ، لا يحتمل أن يحدث لها ذلك مستقبلا .

أعدت أكبر الحجرات لتكون قاعة اجتماعات ، وعلى الباب الزجاجى الخارجى كتب بحروف ذهبية كبيرة « م . م . م » وتحتها ، بحروف أصغر كثيرا : « المجلس المركزى للمشتريات » .

كان الاجتماع الاول لمديرى الشركة الجديدة قصيرا . أخذت الاصوات ، فصوت أعضاء المجلس وهم : محاميان ذائعا الصيت فى حى المال والاعمال ، وسيد يدعى مستر أوهارا ، ولورد يدعى بلومزبرى وسيدة تدعى مسز كرايزلر ، بالاجماع ، على انتخاب سيد

اسمه مستر ماكهيث ، ومهنته تاجر ، رئيسا لمجلس ادارة الشركة.
أما نائب الرئيس فكان لورد بلومزبرى . كان ماكهيث قد التقى به
فى بيت من بيوت المتعة بتنبريدج حيث ألف أن يقضى مساء الخميس
من كل اسبوع ٠٠٠كاجراء صحى ٠ لم يجد ماك صعوبة فى اقتناص

ذلك الغر الذى لا ضر منه ، لان الفتى كان فى حاجـــة مزمنة الى
النقود ، رغم لقبه الرنان ، وكان كل اعتماده فى معاشه على الفتاة
جينى مانث ، نجمة بيت مسز لكسر ٠ والحقيقة ان ماك وجد الفتى
غبيا غباء لا يطاق ، لكنه قليل الكلام بدرجة لافتة للنظـر ، يتمتع
وجهه بنعمة ابتسامة مباغتة ترتسم عليه لغير ما سبب على الاطلاق،

تعبر عن خجل واحراج لايحسهما البتة . وهكذا فانه ـ فى جملته ـ
كان صيدا ثمينا ، لانه يخلف انطباعا حسنا فى نفس من يراه . وقد
توصل الى أن يعيش حتى الان على ذلك الانطباع وحده ، ولا شيء
سواه .

انحصر أول نشاط للشركة فى تحرير عقدين ، تعهد مستر أوهارا ،
بموجب أولهما ، بتزويد شركة م ٠ م ٠ م . بشحنات ضـخمة
من البضائع المنوعة ، واكتسب مستر ماكهيث ، بموجب ثانيهما ،
الحق فى أسبقية الشراء على تلك البضائع جميعها لدكاكينه حرف
«ب» ٠ ولم تكد الشركة تنتهى من أبرام هذين الاتفاقين حتى تخلى
مستر ماكهيث عن مقعد الرئاسة لصديقه اللورد بلومزبرى ، راجيا
الحاضرين أن يبقوا أمر رئاسته للشركة سرا ، مؤقتا ٠

تفرق الجميع بعد ذلك وهم على وفاق تام ، وبدأت مكاتب الشركة
تعمل بنشاط تحت ادارة السيدة كرايزلر الحازمة . وقـد تركز
نشاط تلك المـكاتب فى مراسلة عدد كبير من الوكلاء فى مختلف أنحاء
الجزر البريطانية والقارة الاوربية ، كانوا ينوبون عن شركة م٠م٠م٠

فى شراء المخزون من بضائع الشركات التى تفلس ، وتسليم تلك
المشتريات الى مخازن الشركة فى حى سوهو . وقـد عنيت مسز
كرايزلر عناية فائقة بنظام الحفظ والارشـيف بمكاتب الشركة ٠
فكانت فواتير شراء البضائع التى تتسلمها مخازن سوهو ، وايصالات
المبالغ المدفوعة للشركات المفلسة ، ثمنا لتلك البضائع ، تحفظ بعناية
فى قسمين مختلفين من أقسام الشركة . فوق ان القيود الخاصة
بكافة اللوطات المسلمة للمخازن كانت تمسـك على حدة فى دفاتر
مستقلة تماما عن تلك التى تدرج فيها قيود البضائع التى تسلمها

المخازن لمحلات حرف «ب» .
ولم يمض على افتتاح مكاتب الشركة أسبوعان الا وتقدم سيدان حسنا الملبس ، هما مستر ماكهيث ، ولورد بلومزبرى الى المختصين فى « البنك التجارى » ، طالبين مقابلة السيد رئيس مجلس الادارة .
كان ذلك البنك من البيوتات المالية الحديثة نسبيا ، ذات المعاملات الواسعة فيما وراء البحار ، ومبناه الفخم فى شارع رصل ينبىء عن ميل غير مألوف فى البنوك الى الجدة والمبالغة فى الزركشة . وقد تخصص البنك فى تمويل المنشآت التجارية بمختلف أنواعها ، ومن بينها سلسلة محلات هارون (منافس ب . كرستون الخطير) وعدد كبير من المنشآت المماثلة ، الاصغر حجما ، فى الاقاليم .

باختصار كان ذلك البنك من البنوك المحترمة ، شديدة الاحترام ، فوق خبرته الواسعة بكل ما يخص تجارة التجزئة . ولذلك استقبل ماكهيث ، عندما طرق أبوابه ، استقبالا متحفظا للغاية . وما لبث أن تبين ان البنك ملم ، الماما يثير الدهشة ، بكل ما يتعلق بمنظمته وبالمركز المالى لدكاكينه حرف «ب» .

لم يتقدم ماكهيث الى البنك كرجل أعمال متمكن متعال ، بل كانسان مسكين حل به الخراب . كان ذلك هو الخط الذى قرر أن يتبعه مع البنك الجديد . ذهب اليهم بوجه ممتقع وقطرات العرق البارد ترصع جبينه معترفا لهم بأنه انسان محطم ، لم تعد به قوة للنزال ، فقد ذهب الى بنك الائتمان الاهلى بكل براءة ، واضعا ثقته الكاملة بمديريه ، فصارحهم بخططه ومشروعاته ، فاذا بأولئك الناس يسرقون أفكاره وعصارة ذهنه ويذهبون فيعطونها الى شركة كرستون . وها هو الان ملزم بالوفاء بتعهداته لشركة م.م.م. واستئجار المخازن الهائلة ، التى تسرع فتعاقد عليها ، لثقته بأن بنك الائتمان الاهلى لا يمكن أن يتخلى عن تمويل مشروع كهذا ، ودون أن يتصور طبعا امكان وقوع خديعة كتلك التى تعرض لها ؛ فوق اضطراره الى الوفاء بالايجار الباهظ والفائدة المرتفعة التى تطلبها شركة م.م.م. وهو مفتقر الى المال اللازم الذى يمكنه من توسيع أعمال دكاكينه والحصول على الائتمان اللازم . أما المخازن فمن الممكن معاينتها بالاتفاق مع شركة م.م.م.
قام البنك فعلا بتلك المعاينة . فكانت لها نتائج مشجعة للغاية ، اذ اطلع مندوبو البنك على فواتير وايصالات تغطى كل المشتريات ، بعضها صادر من شركات دنمركية وفرنسية .

الحقيقة ان وجوه مديرى البنك التجارى ظهر عليها الارتيــاح البالغ فى أعقاب ذلك الفحص .
لــكن ماكهيث وبلومزبرى عندما ذهبا الى البنك فى اليوم التالى ، فوجئا بوجود سيد بدين له سحنة يهودية للغاية ، جالســا بجوار السيدين جاك وهنرى أوبر . اخذ ماكهيث قليــلا بتلك المفــاجأة فالسيد البدين يهودى السحنة كان اسحق هارون ، صاحب سلسلة محلات هارون ، بلحمه وشحمه . قال أصغر الاخوين أوبر بعذوبة :
ــ هذا طبعا مستر هارون ، ولا أظنكما تجهلان اسمه . مستر هارون يهتم كثيرا بأفكاركما النيرة يا سادة !

لــكن اسحق هارون لعنة الله عليه يمتلك ثمانية عشر محلا من المحلات الــكبرى فى أرقى أحياء لندن تعتبر محلات حرف «ب» ، بالمقارنة اليها ، كالجراء الضالة الصغيرة بجوار كلاب نيوفاوندلاند العملاقة .
ظل ماكهيث مترددا بعد تلك المفاجأة . فكر فى الانصراف غاضبا. لــكن نظرة واحدة الى الاخوين أوبر كانت كافية لاقناعه بأنهما لن يدخلا فى أية مفاوضات بدون هارون . راوده احساس مزعج ــ جعلته الاحداث التى وقعت بعد ذلك يتذكره كثيرا ــ مؤداه أن هؤلاء الناس قد ضحكوا عليه مرة أخرى . لكن موقفه لم يكن يسمح بأى تراجع . كان فى حاجة الى المال .

أعاد ماكهيث رواية قصته فعلق عليها هارون بصــوته المبحوح قائلا نعم هذا هو ما يتوقع من رجل مثل كرستون . وقال ان رأيه فى ذلك الغر المفتون يعرفه الجميع ، لكنه ــ على أية حال ــ أفاض فى شرح ذلك الرأى بقدر كبير من التطرف وخفــة الدم ، مؤكدا لسامعيه أن كرستون هذا ، وهو شــاب أرعن فى مقتبل العمر ، لا يتورع عن شىء ، وأن همه الاول والاخير فى الحياة تكديس المال ، وانه بالرغم من صغر سنه ــ وربما بسبب ذلك ــ يعتبر نموذجا حيا لذلك الصنف « الدقة القديمة » من رجال الاعمال الذين يفعلون كل ما فى طاقتهم للاحتيال على الجمهور . هو شخصيا ، اسحق هارون ، ليس من دعاة التمسك بالاخــلاق أو أى شىء من هــذا القبيل ، بل ان قلة الحياء تمتعه كثيرا ويجد فيها مسلاة عظيمة ، لــكنه فى مجال الاعمال لا يسمح بأى شىء من ذلك على الاطلاق ، لا لشىء الا لان الامر لا يستحق المخاطرة .
ثم أضاف بفطف أبوى حنون وهو يربت على ركبة ماكهيث الذى

ود لو دق عنقه :
ـ ان فكرتك عن توحيد الاسعار لا بأس بها بالمرة • لكن مخازنك هى التى تثير اهتمامى حقا •
وهنا استدار الى لورد بلومزبرى ـ الذى يمثل شركة م•م•م • ـ وقال له معاتبا :
ـ كيف حدث أن ذهبتم الى ماكهيث أولا ؟ كان يجب أن تأتوا الى رأسا • لكننى أدرك الان ان الطريق اليكم يجب ان يكون من خلال صاحبنا ماكهيث ها ها ها . يعنى اخوتنا الصفار دكاكين حرف «ب» يجب أن يسمح لها باقتحام الملعب ها ها ها .
أصغى ماكهيث بكآبة جنائزية غير واجد فى كل ذلك ما يدعو للقهقهة • فوق ان فكاهات ذلك اليهودى الشحيم كانت ثقيلة الظل • ثم انه لم يحس أدنى رغبة فى اقتسام مخازنه مع هارون •والحقيقة انه لو لم يستخدم كل ما لديه من قدرة على ضبط النفس لما تمكن من الاستمرار فى أداء دور رجل الاعمال الصغير المسكين الذى لحقته اهانة بالغة على يدى ابن الحرام كرستون .
وعلى العكس منه تماما ، بدا هارون البدين مستمتعا بالامر كله غاية الاستمتاع . ولو ان ماكهيث لاحظ أن الرجل ، رغم جذله ، يحتقن وجهه كلما جاء ذكر كرستون . بدا واضحا أن هناك حسابا عسيرا بينه وبين كرستون يجب أن يسوى .
حقيقة الامر ان كرستون كان قد بدأ يصعد سلم النجاح قفزا ، وانه قفز مؤخرا أكثر مما ينبغى . ومن جانب آخر بدا أن بنك الائتمان الاهلى كان يمثل ـ بالنسبة للبنك التجارى ـ نفس الشىء البغيض الذى كان كرستون يمثله بالنسبة لهارون . فالقرن ونصف قرن مجالهما من قديم الارض والعقارات . ما الذى أدخلهما فى تجارة التجزئة أيضا ؟ وبنكهما على أية حال دكانة صغيرة خائبة تضم بضع خزائن عتيقة يكسوها العفن . البنك التجارى بطبيعة الحال أكبر من أن يحس بالغيرة من بنك قمىء كهذا أو يعتبره منافسا له . لكن البنك التجارى يعتز كثيرا بما له من نفوذ فى مجال تجارة التجزئة ، ولا يروقه البتة أن يزج بنك صغير كهذا أنفه فى ذلك المجال • هذا واضح طبعا • فالبنك التجارى يعتبر نفسه الحجة الثقة فى كل ما يخص ذلك الفرع من فروع التجارة . وهو بنك لا رغبة لديه فى التورط فى أية صفقات تتسم بالعجلة أو الانحراف قيد أنملة عن قواعد الاخلاق . فرسالته الحقة فى الحياة هى رعاية الاخلاق والحفاظ عليها فى تجارة التجزئة •

كان من الواضح للبنك طبعا أن أمثال ماكهيث لا يمكن للمرء أن يعاملهم الا وهو يمسكهم بملقاط ، ومع ذلك بدا أن الرجل ـ رغم أخلاقياته غير المستساغة ـ قد عومل معاملة غير عادلة . والحقيقة أن الرجل المسكين يبدو محطم الاعصاب . فقد أجاد ماكهيث القيام بدور الرجل الذى هدته نوائب الدهر ، وأجهز عليه غدر الناس وختلهم .

ولم يكن ماك غرا أو ساذجا . كان يعرف جيدا ما هو بسبيله . ويعرف أيضا كراهية هارون لكرستون وكراهية البنك التجارى لبنك الائتمان الاهلى . فأظهر ، بما لا يدع مجالا لشك ، انه ممتلىء نقمة على كل من كرستون وبنك الإئتمان ، وانه لن يتورع عن شىء فى سبيل الانتقام منهما ، حتى ولو ضحى فى سبيل ذلك بمصالحه الشخصية . فلما وجد استجابة لذلك الدور أمعن فيه ، متظاهرا بأنه قد أطلق العنان لعواطفه وأن نقمته قد غلبت على حسن تقديره للأمور ، فعرض مخازنه على اسحق هارون بثمن بخس لا يعقل ، لكى يمكن هارون « من سحق كرستون » ، قائلا انه لا يطلب شيئا الا أن يسمح لدكاكين حرف «ب» التى يلتزم بتعهدات معينة تجاهها ، بالدخول فى الصفقة ، خاصة وان أصحابها جميعا من صغار التجار الذين أولوه ثقتهم .

نجح ماك فى مخططه نجاحا مبدئيا بذلك الدور الذى أداه باتقان. فقد قرر البنك التجارى والسيد اسحق هارون أن يدرسا المشروع دراسة جدية وقد بدا لهما من أداء ماكهيث أن هناك فرصة سانحة لاستغلال هوس الانتقام الذى تسلط عليه ـ رغم ان ذلك الهوس بدا للسيد أوبر وللسيد هارون أيضا ضعفا مؤسفا يعزز ما تردد دائما من شائعات عن ماضى ماكهيث العكر .

وهكذا تلقى ماك (أو نابوليون دكاكين حرف «ب» كما أسموه فيما بينهم) دعوة من مستر جاك أوبر ، رئيس مجلس ادارة البنك التجارى ، لقضاء عطلة نهاية الاسبوع فى قلعة واربورن .

ولم تكن تلك بالدعوة الهينة . فقلعة واربورن ، بالنسبة لتجارة التجزئة ، كانت تمثل ما يمثله شارع داونتج فى عالم السياسة ، وول ستريت فى عالم المال . كانت قبلة تتجمع فيها كل الخيوط ، وتحرك بعض الاصابع فيها كل تلك الخيوط ، فتتحكم فى مقدرات تلك التجارة وثروات أهلها .

لهذا عاد ماكهيث الى مكاتب شركة م . م . م . وهو من الاثارة فى حال . فلم تكد فانى تسمع بالنبأ الخطير حتى أرسلت من يستدعى

الفتى بلومزبرى على الفور ، لان ماك صـــارحها فى غير مواربة انه لا يعرف كيف ينبغى للمرء أن يأكل السمك ــ مثلا ــ فى مأدبة تقام فى مكان كقلعة واربورن ، وأنه ــ رغم حداثة عهد الاخوين أوبر بتلك القلعة ــ لا يريد أن يبدو أمامهما جلفا .

وقــد حلت فانى الاشكال على الفور ، بطريقتهــا التى لا التواء فيها ، مع جاك أوبر . ذهبت لمقابلته فى البنــك التجارى متأبطــة محفظة أوراق مكتظة بالتفاصيل والبيانات، وفى تلك المقابلة توصلت الى أن تزيل من ذهن أوبر اية أوهام تكون فى رأسه عن ســلوك رئيسها . قالت له أن الناس الذين ألفوا أن يفترفوا المال بيديهم ، يأكلون طعامهم بنفس الطريقة ، فيغمسون بأصابعهم ، وقد يلعقونها متى راق لهم ما يأكلون ، وانه اذا دعى بلومزبرى ، فقــد يستطيع أن يوازن ، الى حد ما ، مواهب ماكهيث فى ذلك المجال . وهكذا دعا جاك أوبر لورد بلومزبرى أيضا .

لكن تلك المناورة لم تكن بارعة بالقدر الذى تصورته فانى . لان ذلك الشاب النبيل لم يكن يقيم للأخوين أوبر كل ذلك الوزن الذى أقامه لهما ماك وفانى ، أولا لانه لم يكن يفهم شيئا على الاطلاق عن قيمة النقود ، خلا انها شيء يقترض ولايرد وينفق بمجرد اقتراضه ، وثانيا لان الاخوين أوبر كانا فى تقديره من محدثى النعمة . ولذلك فانه تمسك بأن يصحب معه صديقته جينى ،(نجمة ذلك البيت من بيوت المتعة الذى قابله فيه ماك) ، باعتبار أنها أخته ، لــكى تقدم فى قلعة واربورن عرضا لاحدث رقصاتها العارية ، مؤكدا ان ذلك حرى بأن يحدث نتائج مذهلة .

وقد أقنعته فانى بالعدول عن تلك الفكرة المهلــكة بعد ان كادت تزهق روحها . ثم انصرفت بعــد ذلك الى الاشراف بكل دقة على أختيار ثياب ماكهيث ، ووجدت صعوبة بالغة فى اقناعه بالتخلى عن عصاته المسلحة . قالت له وهى تأخذها منه :

ــ لم تعد فى حاجة اليها الان .

لــكنه فى اللحظة الاخيرة اشترى لنفسه قفازا صارخ اللون من وراء ظهرها ، مما سبب للورد بلومزبرى متعة لا توصف .

وفى أثناء الرحلة الى قلعة واربورن ، توصل لورد بلومزبرى الى اقناع ماك ــ بنفس الروح الشريرة التى جعلته يستمتع بمنظر ذلك القفاز الفاقع ــ أن أفضل تاكتيك يتبعه هو الا يغير من سلوكه الفج المألوف شيئا والا فان الاخوين أوبر لن يجدا متعة تشجعهما على

التعامل معه ، لان السبب الوحيد لقبولهما فكرة التعامل مع ماكهيث ـ فى تقدير اللورد الشاب ـ كان احساسهما بالتعالى عليه . والحقيقة ان تلك الموعظة الصغيرة الضارة كانت كل ما أسهم به بلومزبرى فى غزوة ماكهيث لقلعة واربورن .

غير ان الوقت الذى قضاه ماك فى ضيافة أولئك الناس كان أمتع كثيرا مما توقع . والحقيقة أنه احس ان وجود بلومزبرى معهلم يكنهناك مايدعو اليه البتة ، خاصة وان مشكلة السمك لم تعرض له اصلا.

أما ما أثار دهشة ماكهيث حقا ،الطريقة التى تعالج بها الاعمال فى تلك القلعة . فلم يكن أحد يذكر النقود بكلمة . وقد اكتشف ماك أن السبب فى عدم توجيه الدعوة الى السيد اسحق هارون أن ذلك اليهودى البدين لم يكن يكف لحظة عن ذكر النقود ، مما يثير أعصاب السيد جاك أوبر . لان جاك أوبر لم يكن يطيق أن يذكر أحد النقود أمامه . وموقفه من ذلك كله أن هـذه أمور يجب أن تدبر بشكل أو بآخر ، حتى تأخذ الحياة مجراها ، لـكنها يجب أن تظـل فى خلفية الصورة حتى يتسنى للمرء أن يطيق حياته . ومع ذلك فقد سرق ماك .

***

فقد تم خلال الاسبوع التالى لتلك الزيارة توقيع العقـود « اللازمة » بين محلات اسحق هارون ، والبنك التجارى من جانب وشركة م . م . م . من جانب آخر . وبموجب تلك العقـود أصبح لمحلات هارون الحق فى شراء البضائع من شركة م. م. م. بنفس الاسعار التى تشترى بها محلات حرف «ب» .

والحقيقة ان العقود التى اضطر بلومزبرى الى توقيعها عن شركة م . م . م . كانت مخيفـة ، الى الحد الذى جعـل ماكهيث لا يجرؤ على النظر اليه مواجهة .

فلما خرجا الى عرض الطريق أصيب ماك بنوبة هستيرية ، مما سبب لبلومزبرى قدرا كبيرا من الدهشة وبعض الحرج ، واضطره الى أن يسحب صاحبه الى أول مشرب شاى فى طريقهما . وهناك طلبا خبزا بالزبد . لـكن ماك لم يستطع أن يأكل من فوره ، لانه استغرق وقتا طويلا قبل أن يستعيد سيطرته على أعصابه. واذ ذاك لم يجد فى نفسهشهية للأكل .قال لبلومزبرى وهما يبرحان المشرب:

ـ هـذه مصيبة . بهذه الاسعار التى اتفقنا على البيع بها لابن الحرام هارون لن يجدينا حتى أن نسرق البضائع التى نبيعها له .

سيكون من المستحيل أن نصمد طويلا • أقصى ما نستطيعه أن ننظم أسبوعا للأوكازيون كما فعل كرستون ، وهذا هو ما يريده اللعينان أوبر • يريدأن ان نفلس بأسرع ما يمكن حتى تقصر مدة تعاملهما معنا الى الحد الادنى . يشعران بأننا أحقر من أن نتعامل معهما . وذلك هو الواقع فعلا . انظر الى مبنى ذلك البنك ! رخام وبرونز، يا بلومزبرى ! رخام وبرونز ! لم أستطع طيـلة حيـاتى أن أفهم السبب الذى يجعل الناس يذهبون بأموالهم الى بنوك تتخذ أبنية باذخة كهذه مقرا لها • يبدو أن الناس يتصورون أن الشركات التى تستطيع أن تتحمل تكلفة مبان من الرخام والبرونز لا تكون فى حاجة الى أموال أحد ، وأن أموالهم ، لذلك ، تكون بمأمن لديها !

والحقيقة انه لم تزايله حسرة على بنـك الائتمان الاهلى بمبناه الحقير وأثاثه القمىء. فقد بدا له ذلك المبنى بما فيه من «كراكيب» زرية بمثابة اعلان مطمئن فحواه « اننا لا نسرق الـكثير من عملائنا» لـكن بنك الائتمان اللعين لعب عليه ملعوبا قذرا . ومع ذلك فانه أحس أن مصلحته الحقيقية كانت مع ذلك البنك . أليس هو البنك الذى تضم خزائنه النخرة بائنة زوجته ؟ فاض قلبه بالمرارة عندما فكر فى ذلك • فقد أصبح واضحا أمامعينيه أنه يخوض معركة ضد تلك البائنة التى فيها خلاصه . فهـل هناك ما هو أتعس من ذلك المصير ؟ وهل من العدل أن تفرض عليه الاقدار أن يبذل كل جهـد فى طاقته للقضاء على تلك البائنة لـكى يشق طريقه الى النجاح ؟ لقد أراد معارك نابوليونية . وها هى معركة لا رحمة فيهـا تفرض عليه ، ولا يستطيع أن يكسبها الا بالقضاء قضاء مبرما على العدو . وما العدو هنا الا البنك الذى فيه بائنة بولى . رأى ماك أمامه أياما عصيبة حافلة بالمتاعب والعمل الشاق .

تكبد ماك الشىء الـكثير فى اعداد شركة م • م • م • لتكون طعما للبنك التجارى • ولقد كان بوسعه أن يحتمل ذلك الشىء الكثير لو توصل فقط الى تحسين حالة دكاكينه كما كان يشتهى . لكنه ، بدلا من ذلك ، تعرض لاسوأ نكسة يمكن أن تحدث لاحد ، فأرغم على ادخال اليهودى هارون ، منافسه ـ منافسه الاعظم ـ فى الخبطة كلها ، لـكى يسرقها منه . فكأنه أنفق ، وأسس ، ووسع ، لـكى تسرق أفكاره ، وبضائعه ، ومخازنه ، وأمواله منه ! ها هو يجد نفسه مرة أخرى وقد ضحك هؤلاء الناس عليه ، فلم يتقدم خطوة ،

وظل حيث كان ، معرضا للخراب الشامل ان لم يخف الحظ لنجدته . فهو ثابت فى مكانه كأنسان حافى القدمين واقف فوق جمر ، كل ما يسعه من حركة أن يقفز فى الهواء ، لكن القفز لا يجديه شيئا ، لانه لا يتوصل الا الى استبدال جمرة بأخرى ، قد تكون اسوأ وأشد توهجا ولذلك فان أسعد لحظاته هى تلك اللحظات القصيرة التى يكون فيها معلقا فى الهواء .

***

عقد ماك اجتماعا لاصحاب دكاكين حرف « ب » ، ألقى فيه خطبة من نار . أعلن بادىء ذى بدء أنه قرر ، من الآن فصاعدا ، أن يولى دكاكينه كل اهتمامه ورعايته . وانه ، لكى يتفرغ لذلك الجانب من نشاطه تفرغا كاملا ، قد تخلي ، بطريقة تكاد تكون تامة ، عن نشاط الشراء ، الذى تكلفت به شركة كبرى تعرف باسم « مجلس المشتريات المركزى » . وتلك الشركة تقدم بضائع ممتازة ، لكنها لا تكون رخيصة الا اذا اشتريت بكميات كبيرة ، وقد بذلت جهود - لم تكلل بالنجاح لسوء الحظ - لمنع شركة م . م . م . من تقديم نفس التسهيلات الى محلات أخرى ، لكن دكاكين حرف «ب» لن تكون قادرة فى الحقيقة على استيعاب كل ما تعرضه شركة م . م . م . من كميات . ثم استطرد قائلا :

- ولعلكم قد سمعتم ان دكاكين حرف « ب » قد دخلت فى شركة تجارية ، بالامس ، مع محلات هارون . ولهذا سوف تقوم شركة م . م . م . بتزويد محلات هارون أيضا بالبضائع . فما الذى تعنيه هذه الحركة المثيرة من جانب كومبينة هارون القوية ؟ أيها السادة ، انها تعنى انتصارا ، انتصارا ساحقا لدكاكين حرف «ب» ، والاهم من ذلك ، للمثل الاعلى الذى قامت عليه فكرة دكاكين حرف «ب» . فما هو ذلك المثل الاعلى ؟ أيها السادة ، انه المثل الاعلى الذى يجعل ثمار التقدم الصناعى الحديث فى متناول أفقر طبقات المجتمع ، فى متناول رجل الشارع ، ذلك الفرد الذى يمثل الجماهير الكادحة . والجماهير الكادحة هى التى يجب أن تعنينا أيها السادة ، لان رجل الاعمال الذى يزدرى البنس يرتكب خطأ فاحشا . لان البنس لا يقل أهمية عن غيره . ذلك هو شعار دكاكين حرف «ب» . ألا تزدرى البنس الذى يكسبه العامل « بطلوع الروح » . وذلك هو مثلكم الاعلى الذى حقق نصرا حاسما على سلسلة محلات هارون الكبرى بفروعها العديدة . فمنذ الان

فصاعدا ستفتح محلات هارون هى الاخرى أبوابها لفقراء الناس ، وتدخل بذلك فى خدمة السعر الرخيص والتقدم الاجتماعى . ولست اشك لحظة فى أن البعض منكم لا يؤمن بشىء من هذا ، لانه لن يخلو مكان من الضعفاء والمتذمرين . بل واستطيع أن أسمعهم وهم يبرطمون لانفسهم قائلين : ولاى شىء تريد كومبينة هارون الضخمة أن تعمل معنا نحن اصحاب الدكاكين الصغار ؟ وذلك سؤال ينبغى أن نعترف فى اجابتنا عنه : ليس طبعا من اجل سواد عيون دكاكين حرف «ب» فحيثما نظرنا فى الطبيعة ، لن نجد شيئا يحدث الا لمنفعة مادية . فكلما قال انسان لآخر دعنى اساعدك ، دعنا نبـــدأ معـــا ، الى آخر ذلك الكلام ، فان ذلك يعنى : افتح عينيك جيدا ، لان النـــاس بشر وليسوا ملائكة ، وهم يفكرون فى أنفسهم أولا ، فلا يوجد من يفعل شيئا من أجل آخر على سبيل الرحمة فقط ! القوى فى هذه الحيـــاة يغلب الضعيف . وهكذا فاننا فى عملنا مع هارون ينبغى لنا أن نسأل أنفسنا هذا السؤال (بغير عداء طبعا) : «من الاقوى؟» هى معركة اذن ؟ نعم يا سادة ، انها معركة ! لـكنها معركة سلمية ! معركة فى سبيل مثل أعلى ! ورجل الاعمال الذى يفكر تفكيرا صحيا لا يخشى خوض المعارك . الضعيف فقط هو الذى يخاف . ومثل ذلك الضعيف هو من تمر فوقه عجلة القدر لتمحقه محقا وتدمره تدميرا ! محلات هارون قد انضمت الينا اذن لا لان سواد عيوننا قد سحرها ، ولكن لانها قد أرغمت ارغاما على احتـــــرام قوة دكاكين حرف «ب» المتمثلة فى صمودها وتضحيتها بالذات فى سبيل مثـل أعلى . وهذه صفات يجب أن نقويها وننميها . فقوتنا نابعة من تفانينا فى العمل ورضانا بالقليل . والـكل يعرف ان كل واحد منا يقوم بما عليه أن يقوم به . ولهذا فانى ، أنا أيضا ، قررت أن أكرس كل جهدى وطاقاتى مستقبلا لدكاكين حرف «ب» . وليس دافعى الى ذلك الكسب المادى ، بل لانى أومن بالمثـــل الاعلى الذى تجسده دكاكين حرف «ب» ، ولانى أعلم أن تجارة التجزئة المستقلة هى عصب الحياة فى تجارة الوطن كلها ، وانها أيضا ، كنز ذهب لا ينضب !

وقد استمع لهذه الخطبة التى أحدثت تأثيرا قويا ، عدد من الناس لا يقل عن خمسين رجلا وامرأة ، وبعض الصحفيين . ورغم ان ذلك الحشد الصغير لم يخل ، بطبيعة الحال ، من عدد من الضعفاء أو ــ على الاقل ــ ممن يبـدو عليهم الضعف ، الا انهـا قوبلت بالتصفيق ، لان التغنى بعظمة المنافسة والمجهود الفردى ، يجد من

الناس دائما أذنا صاغية .

ولقد كان ماكهيث حريا بأن يهنىء نفسه على ما أحرزه من نجاح فى ذلك الاجتماع ، لولا أنه انصرف فى اثره بصحبة فانى كرايزلر ، وبلغ ذلك مسامع بولى بطريقة ما .

***

فوجىء بها ذات ليلة ، وقدتأخر الوقت بعض الشىء .. فى انتظاره أمام منزله بنانهيد . كانت قد حصلت على عنوانه من أحد دكاكين حرف «ب» . وعندما وصل كانت قد قضت بضع ساعات جالسة على عتبة بابه . وجدها فى حالة نفسية سيئة . ولم تكد تراه حتى بادرته قائلة أنها لم تعد تستطيع العيش بدونه .

عندما دخلا قال لها ان موقف ابيها غير المفهوم منـــه قد عقـــد الامور كثيرا . اعترف لها صراحة بأنه كان يعتمد على بائنتها ، أو ، بالاقل ، على معاونة أبيها له فى الحصول على ائتمان كاف من البنك .

بكت بولى قليلا ثم قالت أنها لم تعد تطيق مطاردة مستر كوكس لها ليل نهار وهى عزلاء أمامه . ثم أخبرته أنها حامل ، وان ماكهيث صغير ينمو الان على مهل فى داخلها . فتلقى ماك النبأ بطريقة أثلجت صدرها . تغيرت لهجته معها عن ذى قبل ، وبات يعاملها بقدر من التحرج المتسم بالخشونة سرها كثيرا .

اعترفت له والسعادة تملأ جوانحها أنها انتظرت طيلة ذلك الوقت أن يأتى لزيارتها خلسة ، خاصة وهى تعلم أنه لن يجد صعوبة فى التسلق الى شرفتها . فدهش لذلك وأبدى استهجانه لمثـــل ذلك الخاطر . قال كيف تتوقع منه أن يأتى اليها خلسة فى الليل لينام معها كما لو كانت عشيقته ؟ قال ان ذلك يكون أمرا لا يتصـــور . فوافقته الرأى .

رقد بجوارها مستيقظا ، مسندا رأسه الى يديه ، محـــدقا فى السقف ، واخذ يحلم :

– سوف أدعوه ديك . وسأعلمه كل شىء . أخبره بكل ماأعرف.

وأنا أعرف الكثير . وســـوف أوفر عليه مشـــقة تعلم الكثير مما اضطررت الى أن أكتشفه لنفسى بنفسى ، فأعلمه حقائق الحيـــاة رأسا ، سآخذ بيده الصغيرة وأعلمه كيف يدير عملا ، وكيف يستغل غيره ، فيجعلهم يعملون من أجله ، كيف يستخلص النفع من أخوته بنى الانسان رغم تقلبهم ، وعدم امكان الاعتماد عليهم ، واستحقاقهم لكل احتقار . سوف أقول له اذا حاول أحد أن يسرق لقمة من طبقك

اضربه على رأسه بملعقتك ، بأى شيء فى متناول يدك ، سوف أقول له ذلك ، وأظل أقوله له حتى يسلم به ويدخله فى رأسه ، فيبيت بمأمن من غيره من الناس . سأقول له كلما رأيت بابا مواربا ، أولج قدمك ، ثم ادفع بكتفك ، واقتحم البيت . افعل أى شيء ألا أن نقف كالابله منتظرا ان تسقط النعم فى حجرك من السماء . سوف أعلمه بصبر وأناة . لكنى سأكون حازما للغاية معه . لن أدلله أو أفسده . سأقول له ان أباك لم يكن رجلا متعلما ، لكن أعظم أساتذة التاريخ لم يكن يقدر أن يعلمه جديدا فى كيفية خداع الناس والضحك على ذقونهم ! نعم تستطيع أنت أن تذهب الى الجامعة وتتعلم ، لكن اياك أن تنسى من الذى جعل ذلك فى مكنتك . أبوك اضطر أن يستخلص المال اللازم لتعليمك من بين فكى الاسد بنسا وراء بنس ، من جيوب خصوم متوحشين . خذ رأس المال هذا وضاعفه . وسع معارفك يابنى . ولكن فى الوقت ذاته رسخ دعاماتك أكثر !

استغرق فى النوم بعبسة عميقة فى جبينه ، لكنه كان فرحا للغاية ببولى ، وبالابن الذى ستلده له .

فى صباح اليوم التالى ذهبت فأحضرت اللبن من دكان اللبان ، وتعلمت كيف تطبخ له طبقا من الكبد كما يحب أن يأكله . ولم تذكر فانى كرايزلر بكلمة . لا فى تلك الليلة ولا فى أى ليلة أخرى .

كانت علاقات ماكهيث قد أصبحت وثيقة بفانى فى الفترة الاخيرة . بالحقيقة أصبحت حميمة للغاية . وقد خشى أن تركب المرأة رأسها وتثير له المتاعب . لكنها – لعظيم ارتياحه – لم تبد أى تغير فى موقفها منه ، رغم أنه كف عن قضاء الليل معها ، وبات يقضيه فى بيته . والحقيقة أنه كان حريا بأن يأسف كثيرا لو وقعت جفوة بينهما ، لانها كانت دعامة كبرى من دعامات شركة م.م.م. رغم أنه عندما أدخلها تلك الشركة فعل ذلك لانه تصور أنها متعلقة به لاسباب جسدية بحته

ولقد كانت حاجته اليها فى تلك الايام أعظم من أى وقت مضى .

فقد اعلن عن أوكازيون محلات كرستون بضجة دعائية كبرى .

وفى الاجتماع الذى عقد أثر ذلك فى قاعة فاخرة بمبنى البنك التجارى تقرر أن الوقت قد حان لكى تشتبك محلات هارون ودكاكين حرف «ب» فى معركة حاسمة مع كرستون ، وأن تتخذ تلك المعركة شكل أسبوع من الاوكازيونات بتضحيات مخيفة فى الاسعار ، اتفق على أن يبدأ بعد ثلاثة اسابيع من تاريخ الاجتماع .

(٩)

« ولان الانسان يعيش برأسه ،
يحتاج الانسان لرأس أكبر ،
ومن لم يصدق فليجرب بنفسه :
وسوف يجد أن رأسه لا يكفى طعاما لقملتين .
وسيجد ايضا أنه فى هذا الوجود
لا يوجد انسان ذكى بما فيه الكفاية ،
فالحياة اقصر من ان يتعلم فيها كل ما يجب أن يتعلمه ،
فيعرف كل الالاعيب وكل الحيل !

« ضع خطتك الصغيرة اذن
واقنع نفسك أنك شديد البراعة اذن ،
ثم ضع خطة اخرى صغيرة أذن ..
فكل خططك لن تجديك شيئا !
لان هذا الوجود يا صاح
ليس فيه انسان شرير بما فيه الكفاية
ليقدر على العيش فيه .
لكنه من الممتع حقا أن يرقب المرء كل هؤلاء الناس وهم
يتظاهرون بالصلابة !

« اجر اذن وامسك بحظكفى الحياة ،
لكن لا تسرع فى الجرى كثيرا ،
لان الكل يجرون وراء الحظ جريا
والحظ يجرى وراءهم !
وليس فى هذا الوجود يا صاح
انسان وديع وطيب بما فيه الكفاية .
وكل جهده العظيم ، سواء كان طيبا أو لم يكن
ليس الا خدعة كبيرة مضحكة ! »

(نشيد عدم جدوى الجهد الانسانى)

قتال على كل الجبهات

كان مستر بيتشام هو الاخر مشتبكا فى معركة مستيئسة .
كان يقاتل ليل نهار ليرفع عن كاهله رزية شركة الملاحة ويحطها على كاهل احد غيره ،مناضلا بكل ما اوتى من قوة ليخرج عنقه من تلك الخية ، ويعود الى مهنته آلتى يجيدها ، مهنة الشحاذة بالجملة .
ولقد أصـــبح حبه لتلك مضـــاعفا . فخوفه من أن يعود الى الحضيض ، وشعوره بأنه قد وقع ضحية لنصـــاب يفوقه مكرا ، وقسوة ، وبراعة ، أثارا فيه حماسا الى الشحاذة بضراوة أكثر ، الى توسيع مجال نشـــاطه الذى يزدهر هو الاخر على الخديعة ، والنصب ، واضطهاد الاخرين . كان من دأبه أن يقلب الخسارة الى مكسب ، والهزيمة الى نصر ، لانه يعلم جيدا أنه لا يوجـــد مكان للخاسرين أو المنهزمين .
كان يقف أحيانا على مقربة من حظائر الكلاب فى فناء بيته ويتحدث الى العسكرى فيوكومبى كما لو كان صديقا حميما . وقد دهش العسكرى الاعرج لذلك كثيرا ، لكنه ما لبث أن أدرك أن مستر بيتشام لم يكن ينظر اليه اطلاقا ، فخطر له أن ذلك الحديث ربما كان موجها الى الكلاب .
قال مستر بيتشام فى يوم من تلك الايام :
ــ قرأت فى احدى الصحف مؤخرا أن الشحاذة كثرت فى هـــذه الايام . هراء ! لان المرء اذا اتخذ عدد الشحاذين مقياسا سيتصور أنه لم يعد وجود للفقر . ولطالما سألت نفسى أين هم أولئك الفقراء ؟ والجـــواب : فى كل مكان . انهم يختبئون وراء كثرتهم . يلوذون ببعضهم بعضا . ويتجنبون الشوارع النظيفة والاماكن التى يكثر فيها سواهم من الناس . لكن مخبأهم الاعظم هو العمل . فهم يعملـــون طيلة الوقت . فان لم يجدوا من يعطيهم عملا خلقوه لانفسهم خلقا . لكن ذلك لا يجديهم شيئا . فوق أن أحدا لا يلاحظ أنهم فقراء وأنهم غير قادرين على أن يشتروا شيئا لانهم لا يدخلون دكانا ليشتروا أى شيء . ومع ذلك فأنا أعرف أين أجدهم . وأعرف ايضا كيف يمكن للمرء أن يكدس ثروة هائلة من ورائهم ، باستغلال عطف الاخرين عليهم واحساسهم بالذنب تجاههم . لكن ذلك مستحيل التنفيذ عمليا . كيف يستطيع المرء مثلا أن يستخدم منظر أم تحتضن طفلها الجائع المريض وهى تحملق فى جدران غرفتهـــا التى تنشع بالمـــاء ؟ ينظم جولات

سياحية لمشاهدتها هى وآلاف مثلها ؟ أو منظر الرجل الـــذى يدرك فجأة أن الحياة قد أسقطته من حسابها وأنه قد استهلك ونبذ ولم يعد يريده أحد ؟ منظر كهذا يقطع نياط القلوب ، لكنه بغير عرض تجارى سليم ودعاية منظمة لا يساوى قلامة ظفر . هذان مثالان اثنان فقط من آلاف الامثلة .

وفى مرة أخرى قال :

— لا تظن أنى أجيع كلابى هذه على سبيل القسوة . لكن تلك ضرورة من ضرورات العمل . فدخلنا يتناقص كلما سمنت هـذه الكلاب ، لانها اذ ذاك لا تستدر عطف أحد .

وفى مرة أخرى أثار ذعر فيوكومبى بقوله :

— انك تبدو ســعيدا أكثر مما ينبغى يا صاح . انا لا اكف عن محاولة افهامكم هذه الحقيقة : يجب أن تبدوا كلكم تعساء تثيرون نفور من يراكم . فالناس يدفعون اذذاك عن طيب خاطر ليجعلوكم تغورون عن وجوههم .

والحقيقة أن مستر بيتشام كان حريا بأن يصاب بصدمة حقيقية لو أدرك أن مثل هذه المصارحات أمام مستخدميه تعتبر عرضا من أعراض اصطخاب نفسى خطير . فهو يعلم جيدا أن المرضى والضعفاء لا مكان لهم .

لكنه — فى واقع الامر — كان يمر بمرحلة نفسية عصيبة ، حتى وان لم يدرك ذلك . فتدبير المال اللازم لشراء تلك السفن الجديدة من ساوثمبتون لم يكن أمرا سهلا على الاطلاق .

ولقد اضطر أن يلجأ الى ميللر ، فى بنك الائتمان الاهلى . لـكن ميللر اســتفظع فكرة القرض الذى ألح اليه بيتشــام ، فى حدود ٥٠٠٠ جك . رفع ميللر يديه الى السماء علامة الرفض البـــات والاستفظاع الكامل . لكنه لم يشأ أن يغضب ذلك العميل القديم ، فأشار من فوره الى مسئوليته تجاه البنت الصغيرة المسـكينة التى عمرها سبع سنوات والتى تملك البنك . ثم أضاف أنه ، فى تلك الآونة ، غارق حتى أذنيه فى عدد من الصفقات الضخمة ، ولا يجد حرجا فى مصارحة عميل موثوق به كمستر بيتشام أن تلك الصفقات تخص أساسا مؤسسة كرستون ، وقال أيضا أنه قد احزنه وصدمه كثيرا أن يكتشف افتقار عميل ملىء كمستر بيتشــام الى السيولة بهذه الدرجة الخطيرة . وفى ذلك القول الاخير لم يكن ميللر منافقا كدأبه ، لانه أحس فعلا بالانزعاج ، بدرجة تفوق ما أظهره لبيتشام.

كانت لبيتشــــام وديعة ثابتة فى بنك الائتمان الاهلى قيمتهـــا ١٠٠٠٠ جك • لكنه لم يخطر له ببال أن يمس تلك الوديعة ، تحت اى ظرف من الظروف . فوق أنها لم تكن تكفى .

لكن الامور فى شركة النقل البحرى كانت تتدهور بصــورة تدعو الى القلق . ففينى العجوز أعلن فى حسم أن الاوان قد آن أخيرا لاجراء عمليته ، وهدد بدخول المستشفى فى اليوم التالى . لم يظل من الشركاء واقفا على قدميه غير ايستمان الذى استمر بعناد كعناد البولدوج ، لكن جهوده لم تجده أو تجد أحدا شيئا .

ثم بلغتهم أنباء مفادها أن مستر هيل ، صديق كوكس الذى فى الاميرالية مهدد بفضيحة مدوية .

جاء كوكس بنفسه الى بيتشام وانتظر فى المكتب الصــغير وراء الباب المبطن بالحديد حتى أقبل ايستمان الذى استدعى على عجل. واذ ذاك أفضى اليهما بما عنده من أنباء سيئة .

قال ان هيل تلقى منذ بضعة أيام خطاب تهديد بقصد ابتزاز بعض المـــال منه جاء فيه أن زوجته كانت قد ألقى القبض عليها منذ عامين، أثناء غارة قام بها البوليس ، فى فندق مشبوه ، برفقة صديق من أصدقاء زوجها . قال مرسل الخطاب فى خطابه أنه قد توصل الى الحصول على يوميات ذلك الصديق ، وأن تلك اليوميات تثبت أن هيل كان على علم بالامر كله .. وأنه لم يفعل حياله شيئا ، بل والادهى من ذلك أنه متورط الان فى عمليات مريبة مع ذلك الصديق الذى ضبط مع زوجته فى وضع شائن ..

روى السمسار هذه القصة وعيناه لا تحيدان عن وجه ايستمان ، الذى كان الحديث موجها اليه أساسا . فلما قال كوكس ما عنده ، التفت ايستمان بوجه ناطق بالعذاب الى بيتشام الذى ظهرت عليه اعراض المرض من جديد .

سأل بجهد متجنبا النظر الى كوكس :

ــ كم ستتكلف تلك اليوميات ؟

قال كوكس كأن الامر لا يعنيه :

ــ ألفا من الجنيهات .

فقال ايستمان :

ــ لم لا يدفعها هيل اذن ؟ لقد دفعت له شركة النقل البحرى ٩٠٠٠ جك حتى الان •

قال كوكس ، متذرعا بالصبر :

ـ أنه لا يحتكم فى مليم واحد من ذلك المبلغ . فزوجته يجب أن تشترى ثيابا وما الى ذلك ، والا عجزت عن الخروج مع احد ، او حتى عن الذهاب الى فندق مع أحد . ثم ان بقية النقود التى اخذها من شركة النقل البحرى يجب أن تستخدم فى تكتم الفضيحة التى اثارتها معاملات شركتكم الملتوية مع الحكومة ، ومنع اجراء تحقيق بأى ثمن. الحقيقة أن موقف ذلك الرجل يقطع نياط القلوب .

سأل بيتشام متنطعا :

ـ وما الذى سيحدث اذا لم يدفع ؟

فقال كوكس :

ـ أبدا . سيحدث فقط أنه سيضطر الى الاستقالة . من افظع الامور أن يكون الناس الذين يتعامل معهم المرء متورطين فى أشياء كهذه . يجب أن نساعد هيل . لانه اذا غرق غرقنا معه .

تردد كوكس لحظة وهو ينصرف ثم سأل بيتشام وهو يبرم شاربه بحركة جريئة وقحة :

ـ هل عادت مس بولى من شامونيكس بعد ؟

فقال بيتشام بصوت مبحوح :

ـ كلا .

كان قد قال لكوكس أن بولى فى سويسرا ، لتستكمل دراستها . وقد خطر له أن يرسل عددا من بطاقات البريد المزيفة باعتبار انها من شامونيكس ، تعزيزا لتلك الاكذوبة . لكنه عدل عن تلك الفكرة ، مدركا أن القصة المخجلة بأكملها يجب أن تروى لكوكس صراحة ، ان آجلا وان عاجلا ، ولو ان ذلك لا يجب أن يحدث الا بعد أن يكون قد تم ترتيب كل شىء بطريقة مرضية .

لم ينس كوكس مرة أن يسأل عن بولى .

تقرر أن يقابل بيتشام كلا من كوكس وهيل فى الحمامات يوم الاثنين التالى . كان كوكس يصرف كل أعمال شركة النقل البحرى الان فى حمامات « أبى ريشة » ، وفى يوم الاثنين ، بصرف النظر عن أية طوارىء تدعو الى تغيير ذلك اليوم . فى يوم الاثنين التالى لمجىء كوكس الى الدكان ، بكر ذلك الاخير فى الذهاب مع هيل الى الحمامات . خلع الاثنان ثيابهما بسرعة ، بغير مساعدة من الفتيات ، ثم أخذ هيل ، وهو رجل سمين قد تخطى الاربعين من عمره ، يتكلم قال لكوكس بنبرة عتاب :

ـ لقد كنت دائما ، منذ البداية ، ضد علاقتك بايفيلين

يا ويليم ، وأنت تعلم ذلك جيدا . فأنت لم تسبب شيئا غير المتاعب بينها وبين رانش . أستطيع أن أقص عليك حكايات لا نهاية لها عن مشاحنات وقعت بينهـا وبين رانش كلها بسـبـبك أنت . وهى حساسة للغاية . أدنى قلق نفسى يجعل مزاجها منحرفا لبضعة أيام. وأنا لاأحس بالسعادة أبدا عندما يكون هناك مايضايقها . فأنا مغرم بها. ثم حكاية الفندق هذه ! لابد أنك كنت غائبا عن وعيك . فلاأحد يذهب الى فندق كهذا مع سيدة كهذه الا اذا كان مجنونا . وانى لاعجب كيف لم تصبها حكة ! فى فندق كهذا يغيرون ملاءات أسرته كل ساعتين لابد أن تكون الملاءات رطبة ، وغير نظيفة ! وحتى بغير هذا . كيف سمح لك قلبك أن تحقرها بالنوم معها فى مكان موبوء كهذا ؟ أنا أعرف زوجتى جيدا ، وأعلم أنها أشد نساء العالم حساسية . لابد أن حقارة المكان سـحرتها . فهى لم تألف مثل تلك الامكنة الموبوءة . وتلك الملاءات ! لن أغفر لك ذلك أبدا . وصدقنى عندما أقول لك أنهـا ليست هى العواقب التى تزعجنى . ولو انى بسبب حماقتك مع ايفيلين أجدنى الان مضطرا الى اذلال نفسى فى سـبيل ألف جنيه أشحذها من هؤلاء السوقه . وبصرف النظر عن كونهم كذلك ، اى ذنب لهم فى مشكلاتى الخاصة التى جاءتنى من تحت راسك ؟ سيكونون محقين اذا قالوا : نحن نتعامل معك ، لكننا لسنا ملزمين بأن ندفع من حر مالنا فى سبيل تنظيف غسيلك القذر . والحقيقة أنى أفضل أن أنصرف الان قبل أن يسوء الامر أكثر . فأنا ، بعد كل شىء ، موظف حكومى .

نظر اليه كوكس وقال :

ـ تماما . أنت ، بعد كل شىء ، موظف حكومى .

فقال هيل مزمجرا وهو يضع جوربه على ظهر مقعد :

ـ الذى أود أن أعرفه هو كيف توصـل هذا البلطجى الى سرقة يومياتك اللعينة التى كان يجب أن تكتبها بكل هذه الدقة !

غطس كل منهما بعد ذلك فى برميله الخشبى .

كان هيل قد طلب أن يأخذ حماما من الطين ، بينما اختار كوكس حماما أضيفت الى مائه بعض الاعشاب الطبية المقوية . استطرد هيل قائلا بحزن بالغ :

ـ أنت لا تتصور كم يجب علينا نحن كبار المسـئولين أن نلتزم بمقتضيات الامانة . لا يجوز لنا أن ندخل فى أية صفقات جانبية أو أشياء كهذه . لن أتحدث عن أحداث وقعت أخـيرا فى الامبرالية .

افضل أن أدع بريطانيا العظمى خارج الموضوع . أنا لا أعلم شيئا عن هذه المسائل ، وافضل ـ كانجليزى ـ الا أعلم عنها شيئا . ولكن انظر ما فعله الهرفون بيسمارك فى المانيا ! انه رجل عظيم . لقد اقتنى حتى الان ضياعا شاسعة ، وافادت بلاده من ذلك فائدة عظيمة . لكن الناس لا يحكمون على رجال الدولة احكاما صائبة أو عادلة . لانهم لا يرون الصورة كاملة . يرون فقط هذا التصرف أو ذاك فيطلقون ألسنتهم ويثرثرون وينتقدون . لكن ما الذى يفهمونههم فى هذه المسائل ؟ تسمعهم يقولون هذا التصرف الدبلوماسى أو ذاك تصرف خاطىء . وما ذلك الا لانهم يأخذون بالنتائج الخارجية . وهو موقف بالغ السخف . فهل يعلم أى منهم الغرض الحقيقى من ذلك التصرف الذى ينتقده ؟ أبدا . عندما أبرق قيصر المانيا الى الرئيس كروجر ، هل تعرف أية أسهم ارتفعت وأية أسهم انخفضت؟
كلا ! الشيوعيون وحدهم هم الذين يزجون بأنوفهم فى مسائل كهذه ويسألون . ولو أننا يجب أن نعترف بيننا وبين انفسنا أن الشيوعيين ليسوا وحدهم الذين يريدون أن يعرفوا ، فالدبلوماسيون يريدون أن يعرفوا هم أيضا . ولا يجب أن نخجل من الحقيقة . فالسياسة ليست الا نشاط أعمال هى الاخرى ، ولو أن وسائلها تختلف عن وسائل رجل الاعمال . ولهذا السبب يجب أن نحرص على شرفنا ، فلا ندعه تشوبه شائبة . هذه الحكاية عن مغامرتكما الحمقاء فى الفندق يجب أن تظل طى الكتمان بأى ثمن ، لانها ان عرفت ، سأطرد من الامبرالية شر طردة . سأخرج مجللا بالعار ، مشيعا باللعنات . لانه لا يوجد سجل خدمة ، مهما طال وعظم ، يستطيع أن يجب فضيحة كهذه . ولا تنس ان ايفيلين زوجتى ، وأن الناس يحبون أن يلفوا فى مثل هذه الامور الحميمة . لكنى ، رغم ذلك كله ، أمين فى دخيلة نفسى ، وأحس أنى لا يجب أن تكون لى أدنى علاقة بهؤلاء الناس البائعين الذين تتعامل معهم .

وهنا اضطر هيل أن يكف عن الكلام ، لان بيتشام دخل عليهما . انتقل الثلاثة بعد ذلك الى حيث أخذوا حماما تركيا معا .

فيما بعد ، وقد تمدد كل منهم على أريكة ، مسندا رأسه الى منشفته المبللة ، بدأ بيتشام يتكلم . وقد فعل ذلك بصوت خافت ، كما لو كان مريضا . وهو ما لم يجانب الحقيقة كثيرا . قال :

ـ يؤسفنى أن أقول لك يا سيد هيل أن معاملاتنا معك ، رغم ما تكبدناه من أموال جسيمة فيها ، لم تكلل بالنجاح أبدا . فعلى

العكس تماما من كل توقعاتنا ، وما قيل لنـــا اكتشفنا مؤخرا أنك لست فى مركز يسمح لك بشراء سفننا نيابة عن الحكومة بغير عقبات، وهو ما سبب لنا ، بطبيعة الحال ، خسائر فادحة .

دمدم هيل شيئا ، لم يتبينه بيتشـام ، وهو ممدد على أريكته المخلخلة يربت على صدره الاسفنجي بيدين صغيرتين شحيمتين .

استطرد بيتشام قائلا ، وما زال يتكلم بنفس الصوت الخافت المجهد :

ـ يجب أن تدرك ياسيد هيل أننا ، كلنا ، رجال أعمال صغار ، امكانياتنا محدودة ، وأموالنا كسبناها بخلع الضرس . ولذلك آمل أن تكون قد جربت كل الطرق الممكنة للخروج من ورطتك هذه دون أن تحملنا عبئها ؟

مال بيتشام برأسه ونظر الى الموظف الكبير . كان هذا الاخير قد خرس الان. ولم يعد يبدو مهيباعلى الاطلاق. مجرد كتلة من اللحم على قطعة خشب . أدرك كوكس وهو ينظر اليه أنه أخطأ اذ قدمه بغير ثياب . رآه كمجرد رجل آخر سمين ، فى منتصف العمر ، لا يتميز بأى ذكاء خارق ،ولا يبدو اطلاقا كما ينبغى أن يكون موظف الحكومة الخطير : شخصا خطيرا ، ملء ثيابه . التمعت عينا كبير الشحاذين وهو يتفحصه وكأنه قد اكتشف فيه شيئا أثار اهتماما خاصا فى نفسه . وعلى الفور طرأ على صوت بيتشام تغير . حقيقة أنه كان تغيرا لا يكاد يلحظ ، لكن لهجة الرجل تغيرت عن ذى قبل . قال :

ـ سمعنا من مستر كوكس أنك تعانى من متاعب خاصة تسبب لك مضايقات فى عملك . ذلك أمر يؤسف له . فهل نستطيع أن نساعدك بأن نزيل من طريقك السبب فى تلك المتاعب ؟

دمدم هيل شيئا آخر غير مفهوم . ود لو استطاع أن ينظر الى كوكس . فلم يكن اللقاء سائرا فى الاتجاه الذى توقعاه .

استطرد بيتشام قائلا :

ـ لعلك تعرف أننا لم يحالفنا الحظ فى العثور على سفن لنقـل الجنود . فالسفن التى اشتريناها تبين فيما بعد أنها ليست مرضية بالدرجة التى جعلنا البعض نتوهمها . وقد سمعنا أيضا أنك تتوقع أنت الاخر متاعب غير مستحبة بخصوص هذهالسفن .ونحن نقدر طبعا أن المتاعب الخاصة التى تعانى منها تجعل من الصعب عليك أن تتفرغ كلية لمواجهة هذه المتاعب الخاصة بالعمل . وأجدنى مضطرا فى هذه المرحلة أن أفضى اليك بسر يتعلق بشئونى الخاصة وشئون أسرتى .

أنا أنظر الى مستر كوكس باعتباره زوج ابنتى المقبل ·
استدار كوكس بتكاسل ، فنظر الى بيتشام بدهشة طفيفة .
ثم تذكر فجأة مقابلة له مع بيتشام فى دكانه ، سأله هذا الاخيرفيها عن المبلغ الذى ينوى أن يعفيه من تحمله فى مذبحة سفن النقل هذه · تذكر أن ذلك السؤال أعطاه انطباعا معينا عن بيتشام ما لبث أن نسيه ·
وفى اثناء ذلك كان بيتشام مستطردا فى كلامه ، بهدوء :
ـ وأحب أن تعرفا أننا لم نتخل بعد عن فكرة استخدام السفن القديمة .
لزم السيدان الاخران الصمت . لكن بيتشام لم يتأثر لصمتهما كثيرا · فقد اكتشف شيئا لم يدركه يوم ذهب الى ساوثمبتون : أن هذين الافاقين كانا قد عقدا العزم منذ البداية على تسليم السفن القديمة الى الحكومة ، ولا شيء سواها !
ضحك كوكس ضحكة خشنة ، كمحاولة أخيرة للارهاب ، وقال :
ـ كذا ! انتم اذن ، فى سبيل بضعة آلاف قميئة من الجنيهات ، قد عقدتم العزم على غش الحكومة البريطانية وتسليمها سفنكم النخرة ؟
الان جاء دور بيتشام ليلزم الصمت .
سأل كوكس بفظاظة مفاجئة :
ـ هل هذا هو قرار شركة النقل البحرى ؟
فنظر اليه بيتشام ببطء ، وقال ، هادئا :
ـ كلا . انه قرارى أنا .
بعد بضع دقائق تحولت دفة الحديث . بدأ هيل يبرطم شيئا أو آخر عن الضباب . فوافقه بيتشام الرأى فى كل ما قال . ثم خرجوا ثلاثتهم من الحمامات ، بعد أن اتفقوا على لقاء آخر . وخلال تلك الدقائق الاخيرة التى أعقبت رد بيتشام الهادىء ، لم ينطق كوكس بكلمة .

***

أخيرا ، بعد تخبط دام شهورا طويلة تعسة ، بدأ جوناثان أرميا بيتشام يرى طريقه بوضوح .
عندما بدأ حديثه مع رجل الامبريالية الخطير لم يكن يتوقع أن تنفتح أمامه بغتة ، من خلال صمت هيل البدين ، تلك الثغرة التى أطل منها على الحقيقة ، واكتشف هول الخديعة .

لكنه اطل واكتشف ورأى لا لشىء الا ليتعذب .

لم تكن سفن ساوثمبتون الجـــديدة ، تلك التى دفعته الى حافة الخراب ، هى التى ستسلم للحكومة ، بل السفن القديمة النخرة التى لا تصلح لركوب البحر كما قال عنها الجميع . ومعنى هذا ؟ هذا له معنى واحد : أن الافاق كوكس والتعس هيل سادران فى عملية نصب رهيبة يحلبان خلالها شركة النقل البحرى الهزيلة ، المريضة ، المسكينة ، فيستنزفان منها آخر بنس فى دمائها • وقد يشتريان بعد ذلك السفن الجديدة أو لا يشتريانها ، فذلك شىء لا علاقة له بالحكومة ، لكن كيفما كانت الحال فشركة النقل البحرى التى هتك عرضها هى التى ستدفع الثمن . وكل ذلك قد رسمت الخطط له وأعدت منذ البداية بهدوء أعصاب وبرود دم !

ولا يعنى ذلك أن مستر بيتشام أحس غصة أخلاقية لان أحدا نصب على أحد واستنزف ماله . فذلك أمر مسلم به ، ولا عيب فيه ، وهو سنة الحياة . لكن المصيبة أن المنصوب عليه هو بيتشام ولا أحد سواه ، والادهى والامر سبيلا أن كوكس لم يدخله فى اللعبة من مبدأ الامر ، وتركه فى غفلة من أمره ، رغم أن كوكس قد عامله دائما ، فيما خلا ذلك ، باعتبار أنه حموه المستقبل •

لكن بيتشام لم يعد لديه الآن ما يخشاه أكثر من أن كوكس قد يتعجل الزواج من بولى قبل أن يتمكن هــو ، بيتشـــام ، من فض مشكلتها الشينة مع ماكهيث . لكن كوكس لم يبـد أية علامة من علامات نفاد الصبر • وهكذا فانه عندما ذهب ليعطيه المبـلغ المتفق عليه لحساب هيل ، أدار دفة الحديث ـ وقد بدأ الفأر يلعب فى عبه كما يقال ـ الى موضوع ابنته • فلزم كوكس الصمت فى أول الامر ، ثم قال انه ليس ميـــالا الى تعجـــل بولى ، وأنه يريدها أن تحبـه لشخصه . وقال أيضا انه ليس هناك ما يدعو بيتشام الى القلق أيضا ، لانه ، بصرف النظر عما تحسه الآنسة بولى تجاهه ، فان بيتشام سيظل أباها فى عينيه ، وسيعامله على ذلك الاساس . ثم أضاف ، خافضا عينيه ، أنه يحس نشوة حقيقية ، لانه ، لاول مرة فى حياته ، وهى حيـاة كانت لها جـوانبها القبيحة التى لا تحصى ، بات بوسعه أن يقدم على تضحية حقيقية فى سبيل قضية أكثر عمقا ونقاء من أية قضية عرفها فى حياته .

الحقيقة أن مستر كوكس كان ـ ببساطة ـ واحدا من أفراد تلك القبيلة واسعة الانتشار التى تعرف باسم أولاد الحرام •

انصت اليه بيتشـــام بوجه لا يعبر عن شيء ، وقرر فيمـــا بينه وبين نفسه ـ للمرة الالف ـ أن يعجـــل بنك الزيجه بين كوكس وابنته • بدا له حديث كوكس هلاميا أكثر مما يجب• وبدت له دوافع الرجل أجمل وأنبل من أن تكون حقيقيه ، فذعر • خاصه وأن كوكس سبق أن قال ، بعبارة لا التـــواء فيهـــا ، بمحضر من كافة الشركاء فى شركة النقل البحرى المنكوبة ، أنه لن يتـــورع عن أخـــذ نقـــود بيتشام ، ضمن نقود من سيأخذ نقودهم .

لهذا أعقبت ذلك اللقاء المزعج مناقشات ومشادات مستفيضة فى شارع أولد أوك ، تقرر على آثرها القيام بمحاولة أخرى مستيئسة لتحرير بولى • من يدرى ؟ ربما كان بالوسع ترتيب بعض المصائب المالية التى تحل بماك فتربكه •

وبالفعل ، جاء من يقول لماك ، فى عنفوان حملة البيع الكبرى ، أن حشودا عظيمة من الشـــحاذين قد تجمعت فجأة داخل دكاكينه وخارجها ، وأن أولئك الشحاذين يقلبون البضـــائع ، ولا يشترون شيئا ، لكنهم لا يكفون عن انتقاد كل سلعة وتعداد عيوبها • وأنهم يحدثون ضجيجا لا مزيد عليه ، ويقلبون كل شيء رأسا على عقب •

وقال له من جاءه بتلك الانباء السيئة أيضا أن الشحاذين يقفون ازواجا وثلاثات أمام الدكاكين يتحدثون فيمـــا بينهم بأصوات عالية عن الخردة التى تباع بالداخل ، وعن سرقة نقـــود المشترين •• ولما كان المشـــترون يضـــطرون ، لكى يدخلوا الدكاكين ، الى شق طريق بين أولئك الشـــحاذين الذين كانوا على درجة غير مألوفة من القذارة والعدوانية ، فان أعداداً متزايدة منهم اضطرت الى العدول عن الشراء والانصراف من تلك الاماكن الموبوءة . قام ماك بجولة سريعة بين دكاكينه ، فتعرف على كثـــيرين من مســـتخدمى حميه . فكر باديء ذى بدء فى اللجوء الى البوليس • لكنه مالبث أن وقـــع على طريقة أفضل • ففى يـــوم الجمعة التـــالى ، والزحام على أشـــده ، جعل أصحاب الدكاكين يضعون فى واجهات دكاكينهم لافتات مكتوبة بخط اليد تقـــول :

« حتى الشحاذين بوسعهم أن يشتروا بضائع من أجود الاصناف هنا »

ثم وصل النبأ الي الصحف ، فاكتسبت دكاكين حرف «ب» شعبية أكثر •

مرة أخرى ذاق مستر بيتشام طعم الهزيمة . •

لكن ذلك لم يقلل بحال من المصاعب التى كانت تنتظر ماكهيث . فمقابلة مستر بيتشام باهظة الثمن بأحد كبار موظفى الاميرالية فى حمامات أبى ريشة كان مقدرا لها أن تكون بعيدة الاثر فى مخططات ماكهيث ومشروعاته . فمن ذلك الحين وصاعدا ظلت هناك صورة واحدة تتراءى لعينى بيتشام . صورة ثلاث سفن نخرة متآكلة ، محملة بآلاف الجنود ، تمخر عباب البحر . حكاية فظيعة !

نفدت البضائع

قسم ماكهيث وقته بين أوهارا وفانى كرايزلر بالعدل والقسطاس. كان يلتقى بالاول عادة فى دكان حلاق مع اثنين من رجال العصابة احدهما جروتش ، والاخر يدعى « الأب » ، والاثنان من كبار اللصوص . أما سرقاتهم الكبيرة فكانت توضع خططها فى حانة قريبة . أما اجتماعاته بفانى فى مكاتب م.م.م. ، فكانت تمنحه غذاء روحيا عظيما . كان رأس ماكهيث ما زال يفرخ الافكار الجيدة ، ولم يكن هناك من يضارعه فى مجال التنظيم . ولقد راقته فكرة فانى عن شراء ستوكات البضائع من الشركات المفلسة ، وأثبتت التجربة العملية أنها أربح بكثير من عمليات السطو . ولو خير ماك بين هذه وتلك لاختار الاولى بغير تردد ، فصال وجال فيها ابداعا ، وتحسينا ، وتنظيما . لكن ذلك العقد الذى وقعه مع اليهودى هارون كان كالغل فى عنقه .

ولقد مر ماك بعدة أيام عصيبة ، واجتاحه خوف من أنه سيضطر الى الاعتراف للسادة أوبر وهارون بأن المعركة الحاسمة الوشيكة مع كرستون لا يمكن أن تتم . لكنه ، فجأة ، خطرت فى ذهنه فكرة عظيمة ، ولو انها محفوفة بالمخاطر المهلكة .

ظل يقلب فكرته ليلة بعد ليلة يقضيها مؤرقا فى فراشه . متدبرا فى الوقت ذاته الموقف الخطير الذى بات فيه . كان ذهنه يصفو ويمسى قادرا على التفكير بجلاء وهو يسمع أنفاس بولى الهادئة التى تنم عن سبات لا يكدر صفوه شىء . فى تلك اللحظات كان يتخذ أجرأ قراراته .

ثم عقد عزمه ذات صباح ، وذهب الى اليهودى هارون ، دون أن يخبر فانى بشىء ، فحدثه هكذا :

قال له اسمع ٠لايجب أن نضع اعتمادنا كله علىأسبوع التضحيات الذى سنقيمه ٠ يجب أن نقوم أيضا بخبطة أكثر فعالية ، فنفسد أسبوع كرستون ما استطعنا قبل أن يبدأ . وقد يجدى فى ذلك أن نبدأ من الآن بخفض أسعارنا ٠ وشركة م٠م٠م٠ بوسعها ان تبدأ فى تسليم البضائع منذ الآن ، بينما بضائع كرستون الرخيصة ليست جاهزة بعد ..

نظر اليه اليهودى بعينين حالمتين ٠ كان فى ماكهيث شيء لايروقه٠ فهو كلص ، محترم أكثر مما يجب ، وكمواطن محترم ، لص أكثر مما يجب . فوق أن شعره شحيح فوق رأسه الذى يشبه رأس فجلة . كان هارون سريع التأثر يمثل تلك الصغائر .

لكنه ، رغم تحفظاته على ماك ، وافق على فكرته . كانت زوجته قد قامت بجولة لشراء بعض الحاجيات برفقة مسز ماكهيث ، منذ بضعة أيام ، ولم تجد منفذا الى ذكر بولى أو زوجها بسوء . واشد ما أثر فى نفس هارون ما اكتشفه — من خلال زوجته — من أن ماك لا يبذر نقوده ، وأنه يعيش حياة لا بذخ فيها ، ويمسك حسابات بيته بنفسه ٠ قال له عقله اليهودى هذا رجل يعرف قيمة المال وهذا المال الذى يدخره قد ينفع فيما بعد ٠

وفوق هذا كله وجد ماك حليفا غير متوقع فى شخص أكبر الاخوين أوبر ٠ فبفضل فكرة من أفكار ماك راقت للاخ أوبر أثناء عطلة نهاية الاسبوع المشهورة فى القلعة ، كان ذلك الاخير قد أقنع هارون بأن يعلن بين مستخدمى محلاته عن مسابقة — جائزتها المشاركة بنسبة معينة فى الارباح — « للانتصار » على أكبر عدد ممكن من العملاء الذين يدخلون تلك المحلات . أما ذلك الانتصار فيتمثل فى تغلب البائع على حرونة العميل الفطرية واحجامه عن الشراء ، بحيث يمنعه من الانصراف دون أن يشترى شيئا ، « فيجره » منتصرا الى الخزينة ، بعد أن يكون قد أقنعه بالشراء . وقد نجحت الفكرة نجاحا كبيرا ، وتبارى بائعو هارون ، وجلهم من اليهود ، فى اقتناص الزبائن ، و « الانتصار » عليهم ، بغية المشاركة فى الارباح ٠ ولم ينس الاخ الاكبر أوبر ، عندما نجحت فكرته ، أن الفضل فى تلك الفكرة لذهن ماكهيث ، فوقف بجانبه .

أفرخت حملة اعلانية كبرى ، وتكاثرت الاعلانات كالارانب أما الدكاكين فاكتظت بالبضائع التى حصلن عليها « مندوبو

المشتريات » فتنوعت وكثر عددها ، حتى الاقبية الصغيرة الملحقة بدكاكين حرف « ب » الهزيلة تكدست فيها البضائع حتى اسقفها ، وهكذا فان الجمهور عندما جاء ليشتري . . . كان يشتري سلعة فتجتذبه أخرى تبدو له ضرورية لا غنى عنها ، فيخرج الجمهور حاملا كل ما استطاع حمله وقد سحرته الاسعار المنخفضة حتى أصبح كالمنوم مغناطيسيا ، خاصة وأن لافتات كبيرة بالطباشير الملون على ورق اللف البنى أعلنته أن تلك كانت فرصته الوحيدة والاخيرة التى لن تتكرر أبدا لشراء أشياء لا حاجة به اليها . ومن رخص الاسعار كان المشترون يخرجون متسللين بمشترياتهم كاللصوص وكأنهم يخشون أن يفيق البائع فجأة فيدرك أنه قد باعهم كل تلك الاشياء بثمن بخس .

كان من الطبيعى أن يجد ماك نفسه فى دوامة نشاط محموم . أخذ يمر بدكاكينه ، دكانا وراء آخر ، فيساعد أصحابها باسداء النصح تارة ، وبكتابة بطاقات الاسعار تارة أخرى . لكن انشغاله الاساسى ، بطبيعة الحال ، كان تأمين تدفق سيل لا ينقطع من تلك البضائع التى لا تصدق أثمانها على دكاكينه ، من مصادر متباينة متباعدة ، كالدنمرك ، وهولندا ، وفرنسا . كان مجلس مشترياته المركزى لايكف عن العمل ليل نهار تحت اشراف أوهارا الذى لا يكل .

فى ذلك الزحام كان لابد للحوادث المؤسفة أن تقع . وقد وقعت حادثة مؤسفة بالفعل عندما تعرف بعضهم على بضائع مسروقة معروضة فى أحد دكاكين حرف « ب » . فقدمت شكوى ضد ذلك الدكان المملوك لامرأة تدعى مارى سوير واللذى يقع فى شارع ملبرى . أما اكتشاف الواقعة والابلاغ عنها فيعود الفضل فيهما الى نفر من الشحاذين .

لكن ذلك لم يفت فى عضد ماكهيث . فقد سحب البضائع موضوع الشكوى من الدكان ، وسلمها الى البوليس معلنا أنها وصلت الى ذلك الدكان على سبيل الخطأ من دكاكين أخرى . وأعقب ذلك القبض على نفر من صغار الشحاذين .

ولو أن ذلك لم يمنع ماك من أن يظل نهب القلق أياما بأكملها . فقد راوده شك قوى فى أن بيتشام لم يقل كلمته الاخيرة بعد ، وأن الرجل لم يكف أذاه عنه حتى ذلك الوقت الا لأن الفرصة أعوزته .

قال ماك لبولى :

ـ ان كراهية أبيك لى غير طبيعية اطلاقا . يبدو أن اعتماده على ذلك الرجل كوكس قد ازداد ثانيـة . فهـو لا يكف عن مطاردتى واضطهادى . وكلما فكرت فيه تسلطت على أسود الافكار . ولقـد ظللت آمل طيلة الوقت انه لابد سيثوب الى رشده فينظر الى الامور نظرة واقعية ، طال الزمن أو قصر. ويدعنا فى حالنا ، أنا بعد كل شيء لا أكسب الا ما يكفى لمعاشنا ، أنت وأنا بالكاد .

لكنه ما لبث أن نسى تلك الهموم الصغيرة ، فى غمرة الاحداث العاصفة التى تعرضت لها أعماله بعد ذلك .

***

أعلنت محلات هارون الكبرى ، ومحلات حرف « ب » المتحدة ، فى كافة الصحف الكبرى عن تخفيضات هائلة واضافية فىالاسعار لكل أقارب الجنود العاملين فى خدمة القوات المسلحة . كما تضمن الاعلان أن الطلبات التى تقدم من أرامل الجنـود لافتتـاح دكاكين حرف « ب » تحظى بأسبقية خاصـة . وقد قوبل ذلك كله أحسن استقبال من الجمهور والصحافة . والمهم فى الامر كله ان الاسـعار ظلت تخفض بكل وسيلة ممكنة .

سرعان ما بدأت محلات كرسـتون تحس وطأة تلك المنـافسة القاطعة للرقاب ، واضطرت هى الاخرى الى تخفيض أسـعارها . وقد أحس بتلك الوطأة أيضا بنك الائتمان الاهلى الذى بذل مديروه فى عنفوان الازمة جهودا تدعو الى الدهشـة . ليلة بعد ليلة سهر القرن ونصف القرن مع كرستون يفحصون الدفاتر معا ، ويراجعون الحسـابات . لكن المعمعة كانت تبتلع مبالغ هائلة من النقود . ساءت الامور الى حد أن القرن ونصف القرن أشاح كل منهما بوجهه ، فلم يعد قادرا على مواجهة الآخر . كان احساسهما بالمسئولية مضنيا .

وفى تلك اللحظة التاكتيكية الحاسمة ، قام ماك بخبطة أخرى . اتصل ببنك الائتمان الاهلىعنطريق وسيط بغية ايهام القرن ونصف القرن أن البنك التجارى ، ومحلات هارون ، ومحلات حرف «ب» قد باتت كلها مهـددة بالخراب العـاجل نتيجة لتلك المعـركة التى خاضتها ضد كرسـتون وبنك الائتمـان الاهلى ، وأن الاخوين أوبر يحاولان خلسة النجاة من السفينة الغـارقة ، والانضمام الى ركب كرستون الظافر .

وقع بنك الائتمان فى الفخ ، وترك ماك يوهمـه بما أراد ايهامه به ، فأقنع كرستون بتخفيض أسعاره أكثر ، باعتبـار أن المعـركة

وشيكة الانتهاء ، وان النصر قريب .
ونتيجة لذلك ، اضطر هارون وماكهيث أيضا الى تخفيض أسعارهما من جديد ، ولم يكن أسبوع الاوكازيون الخاص بمحلاتهما قد بدأ بعد !
كان الجمهور قد أدرك من زمن طويل أن تلك معركة حياة أو موت بين هارون وكرستون ، وأدرك أيضا أن تلك فرصته التى لا تعوض للشراء بأبخس الاثمان . بدأت أعداد صغيرة من ربات البيوت فى الشراء كما لم يشترين قبلا . لكن الغالبية العظمى فضلت التريث حتى تخفض الاسعار الى حدها الادنى . ولم يمنعهن ذلك بطبيعة الحال من قضاء سحابة كل يوم هائمات على وجوههن من محل الى آخر ، والجشع يسوطهن ، يحملقن ، يقلبن ، ويقارن الاسعار .
بدأ هارون استعداداته الاولية لتنفيذ خطة ماكهيث الخاصة بالاسعار المتدرجة ، وكلما سار فى تلك الخطة قدما أدرك قيمة شريكه الجديد . كان كلما رأى ماكهيث برأسه الذى يشبه رأس فجلة ، انتابه شك فى أن الرجل يستطيع أن يكتب خطابا من بضعة أسطر بغير أخطاء املائية ، لكنه لم يعد يراوده أدنى شك فى نبوغ الرجل فى المسائل المالية . وسرعان ما اكتشف أن قدرات ماك لم تكن محدودة بتلك الحدود .
كانت شركة م.م.م. تجرى استعداداتها لاسبوع المبيعات الكبير الذى ازمع هارون وماك أن يجعلاه أحدوثة تاريخية لم يسبق لها مثيل . ففرت محلات هارون فكيها فابتلعت شحنات هائلة من البضائع من مخازن شركة م.م.م. ، وطلبت المزيد . ولم تكن أرباح الشركة الاخيرة تستحق الذكر ، لان الاسعار كانت منخفضة عن الحد الإقتصادى بكثير . لكن العملية كلها كانت فى الواقع مناورة حربية للقضاء على المنافسة . ولم تكن لهارون مصادر أخرى فى تلك المعركة سوى شركة الـ م.م.م. فاعتمد عليها اعتمادا كليا ، وقد بدا أنها ، تلك الشركة ، قادرة على كل شىء .
لكنها ، لسوء الحظ ، لم تكن كذلك .
عندما بدأت كميات البضائع المكدسة فى المخازن تتناقص ، أصيب ماكهيث بانهيار عصبى فى دكان فانى كرايزلر . صرخ ماك ، وبكى . وأعلن أنهم يلحقون به الخراب ، وأنه واقع وسط عصابة من قطاع الطرق . وقال انه يفعل كل ما فى وسعه ، لكنهم يزيدون

أن يسلخوه حيا ، وأنه لم يعد يطيق الاستمرار فى هذه الحياة التى بعيشها على فوهة بركان ، وأنهم لا يجب أن يتوقعوا منه ما يفـــوق طاقة البشر ٠

أخذت فانى تطبب ماك المسكين بالكمادات الباردة وتدعك جسده بمروخ مستخلص من نبات دخان الفوج (١) ، وتذرعت بالصبر معه وهو يقضى نصف الليل فى الصراخ والسباب ، متهما اياها ، هى الاخرى ، بأنها ليست أفضل من الاخرين فى شىء ، وأنها تستغله ، وتتصور أنهفحل طلوقة وأنهملزم بأنيضيع صحته فىسبيلأرضائها٠

حقيقة الامر أن ماك ، كسائر العظمـــاء من الرجال ، كان يتخذ القرارات العظيمة الطموح، ثم عندما يحين وقت تنفيذها ، ينكصأمام ضخامتها ٠ حتى نابوليون سقط مغشيا عليه فىاللحظة التى أصبحت فيها امبراطوريته ، التى خطط لها طويلا ، حقيقة واقعة ٠ لكن ماك ، كسائر العظماء أيضا ، كان سريع التقلب ، لا يثبت على مزاج بعينه٠ أحيانا كان يصفو مزاجه ، فيصحب فانى الى مطعم أو آخر من مطاعم سوهو ، فيقضيان أوقاتا مرحة ، ويضحكان كثيرا وهو يصور لها كيف ستصبح وجوههارون والاخوين أوبرعندما تنجح خطتهالكبرى٠

ورغم أن فانى كانت تشاركه ضحكه ، الا أنها لم تكن تعرف شيئا عن تلك الخطة الكبرى ٠ فلم يكن قد صارح أحدا بنواياه ، حتى هى٠

لكن لحظات البهجة هذه كانت نادرة ٠ وكما هىالعادة عندمايكتئب الزعيمبدأ الاتباع يرفعون رءوسهم ٠انتهز رجالأوهارا الفرصةوبدأوا يثقلون على ماك بمطالبهم . وذات يوم من أيام سبتمبر اســتدعى ماك على عجل الى مقر العصابة . فاغتاظ لذلك لانه لم يكن يتردد على ذلك المكان الا راغما ، ولم يكن هناك من يعرفه معرفة شخصية مباشرة من أفراد العصابة ، باعتباره مستر بيكيت سابقا ، سوى أوهارا ، والأب ، وجروتش . ومع ذلك ذهب صاغرا ، موقنا من أن شيئا غير مألوف لابد قد وقع ، فقابل أوهارا فى دكان الحلاق . لكنهما لم يتحدثا هناك ، بل ذهبا الى حانة مجاورة . وهناك اعتذر أوهارا قائلا انه اضطر الى استدعائه ليتحدث اليه على انفراد حتى لاتعرف مسز كرايزلر من ذلك الحديث شيئا ، لان أشـــياء عديدة غريبة قد تتابعت مؤخرا ، فى صفوف العصـــابة ، وقد لعبت فانى دورا مريبا للغاية فى كل تلك الاحداث المزعجة .

قال أوهارا أن رجال العصابة غير راضين عن الترتيبات الجديدة،

---

(١) «Arnica» دخان جبلى يستخدم فى استخراج مستخلص طبى

وان الاجور الثابتة التى حددت لهم منخفضة للغاية فى نظرهم ، وأنه هو شخصيا ، عندما بدأ ذلك التذمر اتخذ الاجراءات اللازمة فورا ضد المتذمرين ، لكن فانى وقفت فى وجهه قدر استطاعتها ، وأفسدت كل تدبير له . ثم قال انه من المحتمل جدا أن تكون فانى متواطئة مع جروتش الذى يساعدها ، بلا أدنى شك ، فى اثارة الخواطر ، وتحريض الرجال على التمرد . وقال أيضا أن جروتش قد عاد ليعيش معها فى بيتها بلامبث .

أزعجت تلك التطورات ماكهيث كثيرا . فقد اعتبر فانى دائما أشد أفراد العصابة ولاء له . لكن ها هى الآن ، حسبما يقوله أوهارا ، تعوض الرجال عن الاستقطاعات التى استنزلت من أجورهم منذ أن بدأت المعركة مع كرستون ، بنسب مئوية تدفعها لهم من أموال شركة م.م.م. دون أن يكفى ذلك لتهدئة ثائرتهم . فقد تباطأوا فى العمل عمدا خلال الاسبوع الماضى ، بل ووقعت بعض حوادث التخريب ، وتخلف البعض عن العمل . سأله أوهارا عما اذا كان أصحاب دكاكين حرف « ب » قد تضرروا من تناقص الكميات المسلمة لهم . لكن ماك لم يكن قد سمع أية شكوى بذلك الخصوص. بل على العكس تماما ،بدا أصحاب الدكاكين ،على غير عادة ،متفائلين.

وهنا صاح أوهارا مهتاجا :

ـ اذن فهى تشترى البضائع من مصادر أخرى . وهى تفعل ذلك من وراء ظهرك . ألم تخبرك بأى شىء عما يجرى هنا ؟

أخذ ماك يعبث بأطراف أصابعه فى قطرات من الجعة على سطح المنضدة ، ورمق أوهارا بنظرة جانبية من عينيه الدامعتين . طلب من النادل علبة من السيجار ، وأرسل أوهارا الى حارة رايد حيث كانت العصابة ، حسب قوله ، مجتمعة .

لم يكن أوهارا يعلم شيئا عن مشتريات شركة م.م.م. من الشركات المفلسة ـ ذلك المصدر الاضافى الذى تفتق عنه ذهن فانى ـ ولذلك أراد أن يدس لها بتلك الفرية عند ماك غير دار أن ماك لاغنى له عن ذلك المصدر الذى لا مأخذ عليه ، والذى تحصل الشركة بفضله على بضائع غير مسروقة ، لها فواتير وايصالات ، تغطى بها مايزودها به هو من بضائع مسروقة .

عندما عاد أوهارا ، قال أن الرجال لايريدون أن يتزحزحوا عن موقفهم ، وانهم قالوا له أن مسز كرايزلر تعرف كل مطالبهم ،وقال الم أقل لك أنها ضالعة معهم . لم اشتكى للمرة المائة من أن ماكهيث

جرده من كل سلطة له يكبح بها جماح الرجال ، عندما اخذ برأى فانى فى الكف عن تسليم المشاغبين منهم الى البوليس .

اصطحب ماك الفتى الايرلندى معه الى جسر ووترلو ، لكن دكان فانى كان مغلقا ، فذهبا الى بيتها فى لامبث ، ووجدا جروتش معها . نشب شجار محتدم لزم ماكهيث خلاله الصمت . كل ما فى الامر انه رمق جروتش ببرود ، وتوصل بنظراته الى احراج فانى بعض الشىء . لكن المناقشة ، عندما اتجهت من المسائل الشخصية الى مشكلات العمل ، بينت أن فانى فى صف الرجال فعلا ، وأنها تعتبر مطالبهم معقولة . قالت أن تخفيض أجورهم ضيع الفرض من فكرتها الاولى ، وأنهم يريدون العودة الى النظام القديم ، فيعملون بالقطعة ويقبضون ثمن كل مايوردونه ، أولا بأول . ثم هزت كتفيها وقالت ان ذلك ذنب ماك ، لانه خفض الاجور كثيرا .

فقال ماك :

ــ ولكن ذلك اجراء وقتى للغاية . فالبضائع يجب أن تباع بثمن بخس للغاية الى أن يتم القضاء على كرستون نهائيا . ومتى تم لنا ذلك ، سنرفع الاسعار والاجور ثانية .

قال أوهارا محتدا وهو يخبط المنضدة بقبضة يده :

ــ انهم ينتهزون الفرصة للضغط علينا . وهذا ما لن أقبله .

فقالت فانى ، متمسكة بموقفها :

ــ ليس بالوسع شرح الموقف بيننا وبين كرستون لهم . فوق أن ذلك لايعنيهم فى شىء • فهم لايعرفون الغرض الذى يعملون من أجله ، ولا يعلمون متى ستنتهى هذه العملية .

قال ماك بلهجة من تستغرقه أفكاره :

ــ ذلك كله لايليق منهم . فى البداية تذمروا وقالوا انهم يريدون أجورا ثابتة كالموظفين ، فأعطيناهم أجورا ثابتة وجعلناهم موظفين . والآن يريدون أن يستقلوا ثانية ، ليصبحوا من ذوى الدخول الخاصة . هل هذه طريقة يظهرون بها عمق الرابطة المشتركة بين الزعيم وأتباعه ؟ انهم مذبذبون لايستقرون على حال . بالامس أجور ثابتة ، واليوم مشاركة فى الارباح . ماهذا ؟ هذه الفوضى لن تؤدى الى خير •ليس هذا ما يجب ان نتحلى به من تماسك فى السراء والضراء -

قالت فانى مغضبة :

ــ وفر عليك حديثك عن السراء والضراء ياماك . فأغلب الظن ان سراءك هى ضراؤهم •

فقال ماك :
ـ لكننا ، فيما يحتمل ، سنواجه أوقاتا عصيبة عما قريب ، فمن الذى سيتحمل مسئوليتها عندما تأتى ؟ !
ـ أنت تعرف جيدا أنهم هم الذين يتحملون المسئولية دائما . دعك من العواطف النبيلة .
قال ماك بحسم مفاجىء :
ـ طيب . ليكن ما يريدون . سأدفع لهم بالقطعة . ويمكنك أن تقولى لهم أن الفضل فى ذلك لك يا فانى .
وهم واقفا . قال وهو يتناول قبعتى أوهارا وجروتش من فوق المشجب فيعطيهما لهما بشرود فكر :
ـ لكن الطلبيات ستصدر عنى أنا .
وقف جروتش مترددا وقد بدت على وجهه دهشة طفيفة ، فقال ماك لفانى :
ـ هناك أشياء أريد أن أناقشها معك على انفراد .
فخرج الرجلان يبرطمان . وعندما عادت فانى ، بعد أن صحبتهما الى الباب الخارجى ، وجدته واقفا الى النافذة . قال :
ـ قد يعود جروتش ليرى ان كانت الانوار مازالت مضـــاءة . يحسن أن نذهب الى غرفة النوم .
سبقها الى المخدع . كانت غرفة نومها مجاورة لغرفة الجلوس ، وتطل هى أيضا على الشارع . انتظر ماك الى أن لحقت به ثم ذهب فأطفأ ضوء غرفة الجلوس . قال لها :
ـ ضوء واحد يكفى . سيتعين عليك أن تقتصـــدى من الان فصاعدا . فالنسب المئوية التى دفعت للعصابة ، بناء على رأيك ، ستخصم من مرتبك .
جلس على الفراش وأشار لها أن تجلس . جلست فانى مظهرة الدهشة والالم لخشونته معها . سألها بغتة :
ـ هل تحسين بالغيرة ؟
نظرت اليه دهشة ثم ضحكت . قالت :
ـ كنت سأسألك نفس السؤال . ماك . أنت غريب الاطوار حقا !
دمدم مغضبا :
ـ اذن خبرينى بكل ماتعرفينه عن الخطة . كل شىء !
انتابتها دهشة ، لانها لم تكن تعرف عن خطته شيئا . كل همها انحصر فى تحقيق السلام بين صفوف العصـــابة عن طريق معاملة

الرجال معاملة عادلة . لم تكن ترمى الى احداث متاعب لاحد .
فموقفها كان موقف عش ودع غيرك يعش • ولعلها اتخذت ذلك
الموقف لان خليلها الحقيقى جروتش كان من رجال العصابة •

عندما بدأ ماك يشرح خطته لها ظهرت دهشتها واضحة ، فتأكد من صدق قولها عندما أكدت له أنها لاتعرف عن خطته شيئا . لكنه انتابه الحماس فاندفع شارحا لها الخطة تفصيلا . فأصغت اليه بانتباه كامل . ولطالما قال عنها انها أفضل من يعرف قدرة على الاصغاء لما يقال لها •

قال أن هناك ثغرات لاتحصى فى مركز كرستون وبنك الائتمان الاهلى ، وأنه يرى فى تلك الثغرات فرصا هائلة لتحقيق مآربه . فأحد العملاء الرئيسيين لبنك الائتمان الاهلى مثلا هو مستر بيتشام ، ومستر بيتشام هذا مازال والد زوجته ، شاء أم لم يشأ . لكنه يريد أولا ، وقبل كل شيء ، « أن يخرج الى العراء » مع حليفيه : هارون اليهودى ، والبنك التجارى . قال لها :

ــ لا أستطيع أن أقاتل جنبا الى جنب معه ، بكل قلبى ، وبكل امكانياتى ، كما أود أن أفعل ، وأنا أحس أنه قد غشنى ودلس على . ذلك الاحساس يقف حائلا بينى وبينه . لكنى بمجرد أن ألقنه درسا ، سيصبح من الاسهل أن أتوصل الى اتفاق سليم معه .

كان ينوى أن يوقف فى القريب العاجل سيل البضائع المتدفق ، سواء بالنسبة لمحلات هارون ، أو لمحلاته هو حرف « ب » . والاجراء الاخير ، فيما يخص دكاكينه ، وقائى ،ليتذرع بهأمام هارون والبنك ، مدللا على براءته . أما القصد من المناورة كلها فوضع هارون والبنك التجارى فى موقف يائس ، بحيث يجدان أنهما ، فى اللحظة التى أوشكا فيها أن يجهزا على خصمهما العتيد كرستون ، قد أصبحا بلا حول ، اذ توقف سيل البضائع المتدفق على هارون ، وبهذه الطريقة يدركان مدى تورطهما معه ، والى أى حد أصبحا فى قبضته . واذ ذاك تستطيع شركة م.م.م. أن توقع معهما عقودا جديدة ، وتملى شروطها التى سيقبلها هارون وأنفه الكبير فى الرغام ، لانه لايستطيع أن يظل خاوى الوفاض من البضائع وسط المعركة ، عشية أسبوع المبيعات الحاسم • فاذا وافق هارون على دفع الاسعار الجديدة المعقولة ، سيصبح فى الوسع التخلى عنالوسائل الاخرى غير المشروعة فى الحصول على البضائع . ولهذا فان ذلك الاتفاق الجديد مع رجال أوهارا جاء فى وقته ، لانه خلصه من عبء

الاجور المنتظمة ، وجعل فى مكنته أن يوقف طلبياته فى اى وقت ، ويستغنى بذلك عن خدماتهم . قال لفانى :
ــ لقد آن الاوان لتكوين أسرة . فقد بلغت من العمر حدا ينبغى للمرء فيه أن يكون صاحب حساب فى البنك .
أظهرت فانى حماسا فائقا لخطته ، حتى وجد صعوبة بالغة فى الافلات من ذراعيها فى تلك الليلة ، والعودة الى بيته . ولم يذكر جروتش الا وهو فى الطريق الى نانهيد . فقرر أنه يجب أن يعامل فانى فى المستقبل ببرود أكثر . فوق انها قد أظهرت من استقلال الرأى مؤخرا مالم يعجبه كثيرا .

مؤتمر تاريخى

بعد بضعة أيام عقد اجتماع لشركة م.م.م. بحضور ماكهيث . بدأ ماكهيث الاجراءات بدعوة الحاضرين الى تدخين السيجار ، ثم أشار الى منضدة محملة بالويسكى والصودا والكئوس ، لان الاجتماع قد يطول ، وهو على أية حال ، اجتماع مرهق . ثم عرض عليهم الترتيبات التى وضعها بالاشتراك مع هارون لاسبوع المبيعات المقبل ، وكانت شاملة لكل مايخطر ببال أحد من تفاصيل . قال لهم وهو يلوك سيجارا جديدا بين أسنانه :
ــ لقد عملنا أنا وهارون أربعة أيام متواصلة لوضع هذه الترتيبات . ثم عرضتها يوم الاحد الماضى على الاخوين أوبر فى قلعة واربورن . وقد قال جاك اوبر انهم سيقيمون بالمناسبة مهرجانا رياضيا تذكره لندن كلها لسنوات عديدة مقبلة .
كان ماكهيث يتكلم ببطء ووضوح ، ثم التفت الى فانى متسائلا عما اذا كانت شركة م.م.م. قادرة على تقديم كميات البضائع المطلوبة منها فى موعدها . فلما سألته عن تلك الكميات المطلوبة أذهل الحاضرين بأرقام لايصدقها عقل .
إبتسمت فانى والتفتت الى بلومزبرى الذى كان جالسا بينهم لايعرف له رأسا من قدمين، غير فاهم مما يدور حوله شيئا، مبتسما للمحاميين عضوى المجلس ابتسامة حرج بلهاء ، ثم قالت :
ــ مستحيل طبعا . فقد وصلنا الى أقصى طاقة لنا . وسنكون مجدودى الحظ ان استطعنا الوفاء بثلث هذه الكميات الخرافية التى

تطلبها . لقد تعجلتم الامور كثيرا ، وكان يجب أن تبدأوا هذه الحملة بعد أن نستعد لها جميعا الاستعداد الكافي .
فقال ماك وهو ينظر الى السقف :
ـ هذه أنباء مزعجة .
قالت فاني برباطة جأش :
ـ ما زلنا قادرين على تزويدكم بثلث الكميات المطلوبة .
ـ آسف . ليس هذا اقتراحا تسهم به شركتكم فى خطة جبارة كهذه يقول عنها جاك أوبر ذاته انه لايوجد لها مثيل منذ المباريات الاوليمبية فى عهد اليونان . ثلث الكميات حقا ! اسمعى ياسيدتى . اما أن يفى المرء بتعهداته كاملة واما لا . واعنى بذلك التعهدات بمعناها القانونى ،لامجرد الالتزام الاخلاقى القائم بين الاصدقاء وزملاء العمل.
قالت فاني باقتضاب :
ـ والله قد فعلنا كل مافى وسعنا .
ـ خسارة .
وهنا عيل صبر أحد المحاميين، واسمه ريجز، فقال ضائقا بمهزلة ماكهيث المكشوفة :
ـ اسمع . لم لا تقول ماتريد قوله بغير لف ولا دوران ؟ انت تريدنا أن نترك هارون ليوحل فى منتصف الطريق ،أليس كذلك ؟قل ذلك وانته .
ـ ما الذى تعنيه بقولك انى أريد ؟ قل انى يجب أن أفعل ذلك . انى مرغم على أن أفعل ذلك . فالتوقف عن التوريد الان سيؤثر على محلاتى أناأيضا . سيصيبها بضربة قاصمة .ولا أستطيع أنأستثنيها من ذلك . سيفوز كرستون بأسبوع مبيعاته ويخلفنا وراءه . تلك مصيبة ، لهارون المسكين ولنا . ولكن ما حيلتنا ؟ ليس هناك ما يمكننا عمله .
فقد وصلنا الى النقطة الحرجة ، وسنكون مجدودى الحظ حقا ان خرجت شركة م.م.م. من هذه المعمعة سالمة . فلنكن واقعيين . من الافضل لنا طبعا ألا نخبر هارون بشىء صراحة . يجب أن يتناقص التوريد تدريجيا حتى يتوقف تماما . هذا أمر يمكن تدبيره . فان لم نكن قادرين على تنظيم عمليات التوريد بكفاءة فلا أقل من أننظهر شيئا من الكفاية فى ايقافها . وشىء آخر ايها السادة . لاتنسوا أبدا أن الرجل المريض يموت أما الرجل القوى فيقاتل . هذه هى الحياة .

فقاطعه ريجز بغلظة . لم يكن لديه مايقوله ، لكنه لم يكن مرتاحا للأمر :

ـ دعنا من الفصاحة ياماكهيث . لنتكلم فى العمل .

لكن ماك لم يكن قد انتهى بعد . استطرد قائلا ببطء، وهو يمسك سيجارة بيده اليسرى، حتى يتمكن من الامساك بقلم فى يده اليمنى .

ـ ستكون محنة قاسية بالنسبة لاصدقائنا أصحاب دكاكين حرف «ب» المساكين ، وهو مايجب أن نحزن له جميعا . كل هؤلاء الاطفال الذين يعيشون فى الحجرات الخلفية . لكننا ، للاسف الشديد ، لا نستطيع لهم شيئا . كثيرون منهم متأخرون فى سداد ايجاراتهم والمبالغ الاخرى المستحقة عليهم ، ونحن الان فى مرحلة حرجة نحتاج فيها الى كل بنس مستحق لنا . لذلك يجب عليهم أن يدفعوا . لقد ساعدناهم عندما سلمناهم البضائع بالاجل ، والان يجب عليهم أن يهبوا لمساعدتنا بأن يدفعوا لنا . هذا عدل وصواب . فنحن فى حاجة الى احتياطى يساعدنا على عبور الاوقات العصيبة المقبلة سالمين . ويجب عليكم أن تذكروا أنهم سيحل بهم الخراب جميعا اذا ما أفلسنا نحن .

خيم على القاعة صمت مطبق . حتى فانى استفظعت الموقف . لم تتصور فى وقت من الاوقات أن تصبح هذه المذبحة ضرورية . لاى شىء يريد ماك تلك الاحتياطيات التى يتحدث عنها ؟ وما الذى يمكن أن يكسبه ان أفلست الدكاكين ومات من يديرونها جوعا هم وأطفالهم؟ سيترنح هارون من أثر الضربة التى سيكيلها له ماك لكنه سيعيش ، اما كرستون ، العدو الحقيقى ، فسيحقق انتصارا باهرا ، حتى وان كان مؤقتا كما يأمل ماك. لكن الدكاكين الصغيرة ستتساقط كالذباب.

لكن ماك لم يكن لديه وقت لشىء من ذلك. كان غارقا فى العمل الى أذنيه ، آخذا فى الكتابة بسرعة على كل قصاصة ورق فى متناول يده ، وأوهارا يتألق بجانبه ، مظهرا نشاطا يحسد عليه . وضعوا خمستهم الترتيبات اللازمة لتناقص البضائع الموردة ثم انقطاعها عن محلات هارون ومحلات ماكهيث معا . فقد أصر ماك على أن يتم تجويع محلات حرف « ب » بنفس القدر الذى يتم به تجويع محلات هارون فلم يكن بوسعه أن يعطى هارون ، والبنك التجارى معه ، أدنى فرصة للشكوى .

وهكذا بدأ تنفيذ الخطة الكبرى . فى منتصف حملة المبيعات ، تخاذل التوريد فجأة . كان هارون ، وقد أذهلته قدرة شركة م.م.م. على التوريد فى مبدأ الامر ، قد أولى تلك الشركة ـ كما أراد ماك تماما ـ ثقة عمياء مطلقة ، فلم يعن بتحرير عقود مفصلة معها تنص على عقوبات

وغرامات فى حالة العجز عن الوفاء بالتعهدات. ولذلك فان هارون ، وبنكه معه ،وقعا فى حيص بيص، ولم يخطر لهما ببال أن يفعلا شيئا الاماتوقعه ماك واستعد له: انصب همهما على الوقوف ــ من مصادرهما الخاصة ــ على حالة دكاكين حرف «ب» ، وهل زاد التوريد اليها أو نقص . وسرعان ماتأكدا من أن تلك المحلات تعانى من نفس المجاعة.

والواقع أن أصحاب محلات حرف «ب» الذين أصابهم الذعر كانوا يجتاحون مكاتب شركة م.م.م . يوما بعد يوم ، صارخين محتجين ، فتقابلهم مسز كرايزلر بابتسامة عذبة ، وتطيب خاطرهم .

لكنهم يعودون الى بيوتهم فيجدون فى انتظارهم انذارات من مستر ماكهيث تطالبهم ــ بأدب جم ــ بالوفاء بالتزاماتهم المتأخرة .

وعندما أستدعى ماك الى البنك التجارى، عبر لصاحبيه عن دهشته الفائقة وألمه البالغ .وقد اتقن دوره بصفاقه نادرة ،ونجاح، وتصميم. حتى أن أصدقاءه المساكين أصحاب دكاكين حرف «ب» لم يتجنبهم. على العكس تماما . ظل يزورهم كسابق عهده ، فيشرح لهم بوجه طافح بالالم لماذا هو مضطر الى جمع نقوده ، ويجلس فى الحجرات الخلفية فيضع أطفالهم الجياع على ركبته ، ليرقصهم ، ويداعبهم بحنان ، محاولا أن يملأ الصدور التى ينهشها الخوف واليأس ببعض من تفاؤله وثقته بالمستقبل ، محدثا النساء عن متاعبهن اليومية ، قائلا ان هناك دائما طرقا جديدة لاتحصى للاقتصاد فى النفقات .أما الرجال فيتحدث معهم على انفراد . يقول للواحد منهم تريد الحقيقة ؟ هذه المصيبة أصابتنى فى الصميم . لكنى لاأظهر مما أحسه شيئا .وانت أيضا: يجب أن تتماسك أمام أسرتك وتكونوا عونا لها على هذه الاوقات الاليمة.

وهكذا أثبت ماك مرة أخرى أنه ولد ليكون قائدا وزعيما ، وأثبت أيضا أن المرء يستطيع أن يقول أى شىء مادام قد عقد العزم على مايريد فعله .كان يعرف أولئك الناس جيدا. ويعرف أنهم كالخراف تستطيع أن تقودهم الى الذبح بيدك . ولذلك فان النظرات السوداء التى كانوا يقابلونه بها فى مبدأ الامر لم تكن تخيفه : ماعليه الا أن يقول لهم أن عليهم أن يصمدوا للنوائب وأن يكونوا أقوياء ، ثم يذكرهم أن البقاء للأقوى ، ويقابل نظراتهم المزعزعة المذعورة بنظرة ثابتة ثاقبة لاتحيد .

ولقد دأب ماك ، فى تلك الايام ، على ترديد نفس النغمة على مسامع بونى : يجب أن تقتصد غاية الاقتصاد فى النفقات . . لانه لايليق به الا أن يجوع كما يجوع رجاله . له عين . وأخذ يشترى سيجارا من صنف ارخص ، وألغى اشتراكه فى احدى الصحف الصباحية التى

كان مشتركا فيها وكلما تذمرت قال لها :
ــ لا تفقدى ايمانك . أنا أعرف رجالى . وأتوقع منهم الكثير . اتوقع كل شىء . وكما قالت تلك الام الاسبارطية التى يذكرها التاريخ لابنها الذاهب الى الحرب : عد كاسيا درعك أو محمولا على درعك ! أقول انا أيضا لاصدقائنا أصحاب دكاكين حرف «ب» : عودوا رافعين لافتات دكاكينكم أو محمولين عليها ! لكنى أنا أيضا يجب أن أشاركهم محنتهم
ثم حاول أن يشرح موقفه لجاك أوبر . لكن جاك أوبركان نافد الصبر معه . قال له بجفاء أنه لايفرق بين أولئك الذين يخونهم الحظ وبين من لاذكاء لهم ،وأن الشفقة على المغلوب علامة ضعف مرذولة .فضاق ماكهيث به ، وكره فلسفة اليونان هذه ، لانه وجدها لا انسانية .

من أجل راحة الجنود

كان ماكهيث لا يزال يحتفظ فى مخازنه بكميات ضخمة من الاقمشة القطنية والصوفية لم يعد يعرف ما يمكنه أن يفعله بها . فقبل أن تتخذ شركة م.م.م. قرارها التاريخى بقليل ، كانت تلك المخازن قد تسلمت عدة شحنات من الاقمشة ، نتيجة للسطو على مصنع من مصانع النسيج فى لانكشير .
كانت الصحف قد عادت فى تلك الاونة الى الكتابة باسهاب عن الحرب فى جنوب افريقيا . فلم تكن المعارك الضارية ناشبة فى لندن وحدها ، بل فى جنوب افريقيا أيضا . ولم تكن الطبقات الفقيرة ذائقة الأمرين بسبب صدام المصالح فى ساحة المال فحسب ــ ولنذكر مارى سوير وغيرها من أصحاب الدكاكين ــ بل بسبب صدام المصالح فى جنوب أفريقيا أيضا .
والحقيقة أن تلك خصلة رديئة لدى الفقراء . كلما نشب صدام ، توصلوا الى أن يكونوا بين المتصادمين. لكن تلك حال لايمكن السكوت عليها ، ويجب أن يكون هناك من يفعل لاولئك الفقراء شيئا .
لهذا تشكلت لجان للرحمة ولجان للاحسان . هبت سيدات الطبقات العليا ــ كدأبهن ــ الى نجدة المعوزين ، وغوث الملهوفين ، فتنافسن فى ذلك تنافسا شديدا ، فى كل بيت من البيوتات الكبيرة ، وكل مدرسة خاصة ، أخذت الايدى الرخصة الناعمة تمزق خرقا عديدة من قماش لتصنع منها ضمادات للجرحى . والقمصان أيضا حيكت للجنود البواسل ، والجوارب وما اليها . وهكذا اكتسبت كلمة

التضحيه معنى جديدا ! • فأرســـل ماكهيث زوجته بولى الى لجنة من تلك اللجان، اذا رأى سوقا طيبة لاقمشته الصوفية والقطنية. وهكذا أخذت بولى تقضى بعد ظهر كل يـوم فى عنـــابر حياكه اقيمت على عجل انكبت فيها سيدات من خيره الاسر على حياكة القمصان وهن يشربن الشاى ، وقد اكتست وجوههن جميعا ، بدون استثناء ، مسحه ورع وخطورة ، وباتت أحاديثهن مفعمه بموضوع التضحيه ، وبفرحه الجنود الابطال بهده القمصان الجميلة ، وبعظمة انجلترا ، ونذالة الاعداء . فى ذلك المجال الاخير كانت الكلمة العليا للمتقدمات فى السن ، وهن أشد الجميع تعطشا للدماء . قالت عجوز أرستقراطية :

ــ تردن رأيى ؟ نحن نعامل أولئك الوحوش الذين يلبدون لجنودنا الابطال فى كمائنهم الكريهة بكثير من الرحمة وضبط النفس • يجب علينا أن نهاجمهم ونقتلهم جميعا حتى يدركوا مصير من يتشـــاجر مع انجلترا . والذى لا أفهمه ، فيم تعففنا عن القضاء عليهم وهم ليسوا بشرا ؟ انهم وحوش مفترســه • هل ســمعتن كيف يســمون الابار ؟ رجالنا هم الذين يقاتلون قتالا عادلا •

فتنهدت عجوز أخرى أشد ايغالا فى الكبر ترتدى عوينات ذهبية :

ــ سمعت أن رجالنا يتقدمون تحت النار ببسالة منقطعة النظير ، وأنهم يسيرون تحت وابل الرصاص كما لو كانوا يقومون باستعراض فى ميدان الطرف الاغر ، لايعنيهم فى شىء أن يقتلوا أو لايقتلوا . وقد قام أحد المراسلين الحربيين باستفتاء بينهم فى ذلك الشأن ، فأجمعوا كلهم على أنهم لايقيمون وزنا لشىء مادامت انجلترا ستزهو بهم •

قالت العجوز الاولى بصرامة :

ــ انهم لا يفعلون الا ماهو واجب عليهم . فهل نقوم نحن بواجبنا ؟ فازددن سرعة فى حياكتهن • وانبرت فتاة فى العشرين قائلة :

ــ عندما تروى الصحف أنباء تلك الاشياء التى تجرى هناك ، لاتملك الواحدة منا الا أن تفكر فى كل أولئك الشبان الاصحاء ، بوسامتهم الاخاذة ، وبزاتهم العسكرية ، وتحس بالحزن حقا •

ثم عقبت فتاة أخرى فى مقتبل العمر قائلة :

ــ أتعرفن ؟ كلما رأيت رجالنا البواسل فى ثيابهم الرثة الملطخة بالعرق ، وتذكرت المخاطر الفظيعة التى تعرضوا لها ، والمصاعب التى مروا بها ، أحسست أنى أستطيع أن أقبل كل واحد منهم ، أن أعانقه وهو قذر هكذا ، وغارق فى عرقه ، ومغطى بالدم •

رمقتها بولى بنظرة سريعة ولم تقل شيئا • لكنها قالت لنفسها :

ـ ألم يكن أبى دائما على حق ؟ بعد أى انتصار من الانتصارات يجب أن يرسل المرء جنودا مشوهين ، تكسوهم القذارة ، وتبـدو عليهم التعاسة والبؤس ليشحذوا . أما بعد الهزائم فيجب أن يكونوا غاية فى النظافة ، والاناقة ، والحفلطة . هذا كل ما فى الامر .

تحول الحديث بعد ذلك الى الترفيه عن الجنود . قالت كل واحدة من السيدات أنها ترسل لهم الشيكولاتة ، والسجائر ، والتبغ ، وخطابات الاعزاز والتشجيع فى علب ذات أربطة وردية . ثم قالت احدى الفتيات :

ـ يقولون أن التبغ يباع الان برخص التراب فى محلات هاروز بشارع ميللر . قد لايكون من صنف جيد ، لكنهم ، على ما سمعت ، يفضلون الكم على الكيف .

بعد ذلك تبادلن بعض الخطابات التى أرسلها جنـود من الجبهة يشكرون فيها المحسنات اليهم . وفجأة اسـتدارت العجـوز ذات العوينات الذهبية الى بولى ، قائلة بضراوة :

ـ كلما فكرت فى أن هذا القماش الانجليزى النظيف سوف يخضبه سريعا دم جندى انجليزى ، وددت لو أطبق بيدى هاتين على اعناق أولئك القتلة حتى أزهق أرواحهم .

حملقت بولى فى العجوز بفزع حقيقى ، ويدها المعروقة ، بابرتهـا المشهرة ، متقبضة فى الهواء ، وفمها عديم الاسنان فاغر كأنها تتلمظ الى دم أحد . أحست بولى بالغثيان فخرجت مسرعة ، وعندما عادت قالت لها امرأة لها عينان كعيون الابقار :

ـ ان شاء الله يكون المحروس ولدا . فانجلترا فى حاجة الى الرجال .

بعد ذلك اتجه الحديث وجهة أخرى . قالت امرأة سمينة فى ثوب حريرى بورود كبيرة ، وهى زوجة اميرال :

ـ الحقيقة أن سلوك الطبقات الدنيا كان رائعا منذ بداية هذه الحرب . فأنا عضو فى لجنة أخرى مختصة بالضمادات . منـذ أيام مثلت أمام اللجنة امرأة كان من الواضح أنها من الطبقات العاملة ، فقدمت الينا قميصا نظيفا فيه أكثر من رتق . وقالت أن زوجها لديه قميصان آخران غيره ، وأنها تتبرع به لنصنع منه ضمادات للجنود . هل رأى أحـد مثل هذه الوطنية ابدا ؟ كم من دوقة بوسعها أن تتعلم من هذه المرأة !

فقالت العجوز الارستقراطية بحذلقة :

ـ كل فى مكانه ياعزيزتى ، وكل حسب امكانياته .

عندما عادت بولى الى البيت ، استطاعت ان تفرح قلب زوجها بعدد الدعوات التى تلقتها لزيارة بيوت الصفوة ، فسر لذلك كثيرا ، خاصة

وأنه صرف مالديه من كميات الاقمشة . وأوصاها بأن تثابر باجتهاد عظيم فيماهي قائمة بهمن أعمال البر خدمة لجنود الامبراطورية البواسل .

مستر اكس

دأب ماكهيث فى تلك الاونة ؛ كلما اجتمع بالسادة هارون وأوبر . على الشكوى من غدر صديقه القديم لورد بلومزبرى • لكنه - مع ذلك - أحس فى دخيلة نفسه بأنه يحسن به أن يقنع أولئك السادة ، بما لا يدع مجالا لشك فى نفوسهم ؛ بأن مصدره الوحيدالذى يحصل منه على بضائعه هو شركة م٠م٠م. ولا مصدر سواها . لان شكوك البنك التجارى كانت قوية ، ومن الصعب التغلب عليها . فمناورة ايقاف التوريد التى قام بها ماك ؛ وضعت البنك تحت رحمة الشركة بصورة كاملة ، بعد أن كان ماك . ودكاكينه ، وشركة م٠م٠م ، تحت رحمة البنك • ذلك انقلاب خطير فى الاوضاع • ويحسن ، بل يجب الا يكتشف البنك ، تحت أى ظرف من الظروف ، ان تلك الرحمة التى هو واقع تحتها ، هى رحمة مستر ماكهيث • لهذا عقد ماك اجتماعا ثانيا ، وسريا للغاية ، لمجلس ادارة شركة م٠م٠م٠ ولم يشر اليه فى محضر الاجتماع الا باسم « مستر اكس » •

قام مستر اكس هذا بتحرير خطاب اختيرت كل كلمة من كلماته بعناية ؛ لئلا تترك فيه ثغرة قانونية واحدة ؛ وجهه الى مستر ماكهيث، المقيم بنانهيد ، وأخطره فيه بحزم لا يقبل التأويل ، وان اتصف بالادب الشديد ، أن العقد الابتدائى القائم بينه وبين الشركة ينص على أسعار قصد بها أن تكون مؤقتة ، ولفترة محدودة للغاية ؛ من حيث أنها أسعار تضحية ، على سبيل الاعلان . وأخطره أيضا ان المصادر التى تحصل منهـــا شركة م٠م٠م. قد أصيبت مؤخـرا بشىء من الجفاف ،مما جعل التوريد يتوقف • ولوأن الشركةستكون قريبا فى مركز يسمح باستئناف التوريد ،ولكن بأسعار جديدة طبعا •

سار كل شىء فى الاجتماع على ما يرام . وعنـدما أوشـك على الانفضاض ، قرابة التاسعة مساء ، هم بلومزبرى واقفا ، لدهشـة الحاضرين جميعا ، فأخذ يتهته متسائلا عما اذا كانت هذه الاجراءات لن تسىء الى أصحاب محلات حرف «ب» •

كان الوقت مساء ، وكلهم جلوس فى هدوء حول المنضدة الثقيلة ، والنوافذ مفتوحة لان الجو ما زال دافئا •

انتزع ماكهيث سيجاره من بين أسنانه ، وألقى على الفور خطبة قصيرة . وجهها أساسا الى صديقه لورد بلومزبرى ، أكـــد فيها أن اجراءاته التى أثارت انزعاج اللورد تعنى بطبيعة الحال ان أصحاب دكاكين حرف «ب» سيمرون بفترة قصيرة من التضحية بالذات ،لكن اللورد يعلم أن نشاط الاعمال كله ، بل وكل نجاح فى هذا العالم الفانى، يعتمد أساسا على القدرة على تحمل التضحيات فى الوقت المناسب . فالرجل المريض يموت ، أما الرجل القوى فيقاتل . كان الامر كذلك دائما وسيظل كذلك أبدا . وما على أصحاب دكاكين حرف « ب » فى هذه الآونة العصيبة الا أن يظهروا طيب معدنهم .وهـــو لذلك يكلف السيدة فانى كرايزلر ، عضو المجلس الموقر ، بمتابعة سلوك أولئك الناس ، لترى من الذى سينهار منهم ، ومن الذى سيقاوم ويبقى . ثم أضاف أن السيد أوهارا هو الاخر سيضطر الى مواجهة هذا السؤال الحيوى . وقال ماك أنه هو شخصيا سيتحمل المسئولية كاملة . فكل صاحب دكان حرف «ب» سوف تلقى به فانى فى عرض الطريق ، سيكون قد ألقى فى عرض الطريق بيده هو . لانه لايسمح لاحد بأن يعمل معه الا اذا كان يؤمن به ايمانا كاملا ، ويســير على هديه . لكن فانى همت واقفة ، فأفاضت فى شرح بعض الوقائع المتعلقة بالحالة المؤسفة التى وصل اليها أصحاب دكاكين حرف «ب» ، متجنبة النظر الى ماك . قالت أن هذا الذى يحدث لاولئك الناس لا أسم له الا القتل العمد مع سبق الاصرار، وان السواد الاعظم منهم لن يصمد شهرا آخر ..

وانهت كلمتها قائلة :

ــ ما لم نقدر من الان مساعدة هؤلاء الناس ، سيتعرضون لكارثة محققة ، فان الكارثة لن يمكن تجنبها .

رد عليها ماك ببرود واضح ودهشة لم يحاول اخفاءها ، فقال : أولا ، فى أسوأ الاحـــوال لن تكون دكاكين حرف « ب » هى التى ستفلس ، بل « أصحاب » الدكاكين . وهذا يختلف عن ذاك اختلافا بينا . وثانيا، ان الشركة ليستفى مركز يسمحلها بأن تبدأ فىرعاية الارامل واليتامى . وفوق هذا وذاك فان مبدأه هو أن من يسقط يجب أن يترك ليسقط ، بل وأكثـر من ذلك ، يجب أن نعجل بســقوطه بضربة فى ظهره . وانفض الاجتماع .

ترك أوهارا مقر الشركة غاضبا . لكنه ــ رغم غضبه ــ نفذ كل ماتم الاتفاق عليه فى الاجتماع ، وتصدى لرجاله ، فقال لهم أن عليهم

الآن أن يأخذوا أجازة . قد تطول بضعة أسابيع . وستكون على حسابهم هذه المرة . وبذلك نضب معين التوريدات تماما ؛ وتوقف . فوق ان خطاب شركة م٠م٠م. الموجه الى ماكهيث ، عندما قدمه هذا الاخير الى البنك التجارى . أحدث تأثيرا بالغ القوة .

خلال بضعة أيام من تلك القرارات التاريخية ، بدأ أصحاب دكاكين حرف «ب» ، خاصة الفقراء فقرا مدقعا منهم ، يحسون بوطأتها . كانوا غارقين فى الدين الى قمة رءوسهم . وقد أحسوا جميعا أنهم راحوا ضحية للخيانة ، وأن ماك باعهم للمحلات الكبيرة . ساءت أحوالهم الى حد أن شحاذى مستر بيتشام بدأوا يعثرون . بصورة متزايدة ، على كثيرين منهم ، يحاولون أن يشحذوا فى الطرقات هم وأولادهم .

الحقيقة أنهم عندما طردوا من بيوتهم ودكاكينهم بمعرفة وكلاء مستر ماكهيث ، أصبحوا أكثر استقلالا من أى وقت مضى . تضخم استقلالهم حتى أصبح عظيما لا يطاق ، لانهم لم يعد يحد حركتهم سقف فوق رءوسهم ، فوق أنهم توصلوا ، فى المتوسط ، بجهودهم الخاصة ، الى انقاص وزنهم كثيرا . لكن بيتشام لم يحاول استخدام أى منهم ليس بعد على أية حال ، لانهم فى حاجة الى شهرين آخرين على الاقل قبل أن يفقدوا كرامتهم أيضا .

***

واجه السادة هارون وأوبر مشكلة خطيرة بدورهم . كان موقفهم فى بداية الازمة عنيفا للغاية تجاه بلومزبرى المسكين ،لكن ذلك الموقف تغير عشية أسبوع المبيعات المرتقب ، فبات غاية فى العذوبة والرقة. فقد أدمنت محلات هارون بضائع شركة م٠م٠م٠ الرخيصة ادمان الكوكايين .

لم يكن ماكهيث موجودا بمبنى البنك التجارىعندما قام بلومزبرى بزيارة للسيدين أوبر . فقد أعلن ماك أنه قطع كل مابينه وبين اللورد بعد ما ظهر من غدر شركته ، وأن قدمه لم تعد تطأ مكاتب تلكالشركة

احتفى هارون والاخوان أوبر (اللذان بدا واضحا أنهما لم يعودا يكنان نفس الود القديم لعميلهما اليهودى) احتفاء عظيما باللورد الذى جلس واضعا سيجارا ضخما بين أسنانه ، متظاهرا بالخطورة، مفكرا فى حقيقة الامر فى غانيته جينى ، متظاهرا بالانصات اليهم ، واعدا فى النهاية بأن يبذل كل مافى وسعه « لتسوية الخلافات » بينهم . فاستقر الرأى على عدم تأجيل أسبوع المبيعات العظيم ،

خاصة بعد أن لوح لهم بلومزبرى بأمل محدودفى استئناف التوريد .
وانفض الاجتماع وديا للغاية ، فصافح الجميع بعضهم بعضا بحرارة، ثم افترقوا وكل جانب يحس بأنه أسهم اسهاما ايجابيا نحو تحقيق تقارب متبادل . فوق أن الحديث تناول أيضا احتمال الاتفاق على أسعار مرتفعة . وبالاضافة الى كل ذلك وجه جاك أوبر الدعـوة الى ماكهيث لقضاء عطلة نهاية الاسبوع مرة أخرى فى قلعة واربورن .

اصطحب ماك زوجته بولى هذه المرة . وقد استخدمت فانى كل مواهبها وقدراتها على الاقناع فى سبيل الحد من ميـــل بولى الى البهرجة فيما اخذته معها من ثياب . لكن المشكلة لم تكن مشـكلة بولى. فقد تسلط على ماكهيث وسواس بأنه يجب أن يجعل زوجته تبدو كدوقة . لكن فانى توصلت فى النهاية الى اقناعه بأن ذلك يكون أسوأ بكثير ، من عزم بلومزبرى فى الزيارة السابقة ، على اصطحاب جينى معه . وهكذا ذهبت جينى بثياب معقولة ، واستقبلتها مسز أوبر استقبالا لطيفا للغاية . وتحفظت بولى فى حديثها ، فلم تقل ولم تكثر ، لـكنها دهشت كثيرا للأصوات المنفرة التى يحدثها آل أوبر على المائدة وهم يلوكون طعامهم .

عندما اصطحب جاك ضيفه ماكهيث للقيام بجولة فى حدائق القلعة، أشار رجل البنوك الى أشجار البلوط العتيقة المتباعدة عن بعضها البعض وكل شجرة متفردة بعظمتها الخاصة بها ، وقال له :

– أنظر الى هذه الاشجار ياعزيزى ماكهيث. انها مجدودة الحظ . تقف كل منها بمعزل عن الاخرى ، بمبعدة منها ، لا تزاحمها .

سار ماكهيث بجانبه صامتا ، وقد قرر فيما بينه وبين نفسه أن يكون مجدود الحظ هو الآخر ، لايزاحمه أحد .

لكن ذلك الصفاء المجدود لم يدم طويلا دون أن يكدره مكدر . ففى قلب تلك السكينة ارتفع صوت مزعج ، نشاز ، من العالم الخارجى. تلقى ماكهيث رسالة عاجلة من صديقه المفتش براون يقول فيها انه يأسف لانه لايستطيع أن يسوف أكثر من ذلك، فى تنفيذ الامر الصادر بالقبض عليه . فلما استفهم ماك عن السبب فى ذلك ، تلقى الرد التالى : للاشتباه فى أنك قتلت المرأة مارى سوير ، احدى صاحبات دكاكين حرف « ب » ياماك .

تم الجزء الاول ويليه الجزء الثانى والاخير